اليوم الآخر

الاستاذ حسين مظاهري

ترجمة

جواد علي كسار

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

اليوم الآخر

بحث قرآني

في المعطيات الأخلاقية والاجتماعية للمعاد

الأستاذ حسين مظاهري

ترجمة

جواد علي كسار

مؤسسة أم القرى للتحقيق والنشر

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٦

مؤسسة أُم القرىٰ للتحقيق والنشر

اليوم الآخر

بحث قرآني

في المعطيات الاخلاقية و الاجتماعية للمعاد

تأليف : الاستاذ حسين مظاهري

ترجمة : جواد علي كسار

الطبعة الاولىٰ (محرم ١٤١٩ هـ)

بسم اللّه الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

مع هذا الكتاب يمضي الإنسان في رحلة إلى عالم ما بعد الموت. ومن المؤكد أنَّ رحلةً كهذه - يقطعها وعي الانسان فيما جسده ماكث في الأرض- ستكون مشوبة بالغموض محفوفة بالأسئلة المبهمة لاسيما مع أُلفة الإنسان للأرض والتصاقهِ بها.

وستزداد مساحة الغموض والإبهام مع ضغط الاتجاهات المادية وطغيان أو غلبة التيارات التجريبية والحسية التي حاولت أن تضيّق من أُفق المعرفة وتحصرها بما يمرّ من قناتها ؛ حين أشادت مقياسها لصحة الأفكار والاشياء في نطاق ما تكون التجربة والحس (والمعرفة الناتجة عنهما) دليلاً عليها وحسب !

و لم يكن القلق والإبهام اللذان راودا وعي الإنسان ازاء عالم ما بعد الموت مقتصرين على مجتمعاتنا المعاصرة وإنسان عالمنا؛ بل كان الحالُ كذلك بالنسبة للمجتمعات القديمة، بل وللانسانية قاطبة مُنذ لحظة وجودها على الأرض حتى الشوط الأخير المقدَّر لمسيرتها.

ولكن ؛ كان للموت فضيلته في هذا المسار الشاق لوعي الإنسان وما يحيط به من غموض وإبهام، إذ هو الحقيقة الحتمية التي لا مراء فيها، والتي تصدم كلّ إنسان، حيث يكون إليه مآلهُ ومرجعه. يقول (سبحانه): «كل نفس ذائقة الموت

ثم إلينا ترجعون»[1]. وقوله: «إن إلى ربك الرجعى»[2].

إنَّ حقيقة الموت التي تصدم الوعي الإنساني في كل لحظةٍ وساعة ويوم، مهَّدت للإنسان أن يستوعب إلى حدٍ كبير عوالم الآخرة، وجعلتهُ أكثر استعداداً لتفهّم آفاق حياة ما بعد الموت، رغم أنَّ الموت نفسه محفوف بالغموض والإبهام؛ ليس للإنسان ان يعرف حقيقته أو يدرك كنههُ أو يصل إلى ماهيته، مع انَّهُ محيط به وواقع عليه في كلّ حال!

إنها بلاشك مفارقة غريبة في الوعي الإنساني أن يكون الموت حقيقة لامِراء فيها، يعيشهُ الإنسان عيش بداهةٍ وضرورة، ويحيط بوجوده كما يحيط به الهواء، إلاّ انَّهُ ليس لهُ منهُ سوى وقعه الثقيل، وسكراته المريرة، إذ لا سبيل لعقله أن يدرك كُنهه، ولا قُدرة لعلمه ان يحيط بحقيقته، ولا مجال لوعيه أن يُلامس ماهيته.

وعظمة هذه المفارقة أنها تُشكّل المفتاح إلى وعي عوالم الآخرة، وهي المثابة التي تقود إلى الطريق الصحيح لإدراك آفاق حياة ما بعد الموت. إذ ما يمنع الإنسان حينها وهو يعيش الموت كما يعيش حقيقة وجوده (بل إنّ الموت جزء من وجود الإنسان نفسه)، رغم انَّهُ يجهل حقيقته وكنههُ وجوهره؛ ما يمنعهُ ان يحمل بين جنبيه وعياً للمعاد وإيماناً مستيقناً لمنازل حياة الآخرة، إذا كانت الادلة العقلية (فلسفية وكلامية وحتى علمية) تنهض على ذلك، وإذا جاءت الأخبار الصادقة (عن الصادق المصدّق وأهل بيته صلوات اللّه عليهم أجمعين) المتواترة تُخبرُ بهِ وتُؤيِّده، وتتحدَّث عن مراحله وأشواطه وما يؤول إليه مصير الإنسان بعد ذلك؟

هل ثمة - بعد ذلك - إلى عدم الاعتقاد بالمعاد والإيمان بمنازل الحياة بعد الموت من مبررٍ سوى العناد واللجاجة التي تجعل صاحبها يصحو ويستيقظ في الساعة التي يكون لسان حاله فيها: «ولو ترى إذ وُقفوا على النار فقالوا ياليتنا نُردّ ولا نكذّب

(١) العنكبوت: ٥٧.

(٢) العلق: ٨.

بآيات ربنا ونكون من المؤمنين»[1].

ولكن لات ساعة مندم !

وهكذا نصل إلى قيمة ما تمثّله المعرفة الإسلامية قرآناً وسنةً حيال المعاد، ليس بالنسبة للمسلمين وحسب، وإنما للبشرية جمعاء.

فمع الإسلام يعيش الإنسان وضوحاً نقياً لما تؤول إليه حياته بعد الموت ؛ ومع الإسلام تزول عن الإنسان عوامل القلق والاضطراب الناتجة عن الغموض والإبهام الذي يحيط مصيره بعد الموت.

وإذ يفعل الإسلام ذلك، فهو لا يؤسّس في الفراغ أو يبني على الجهل والخيال الذي تمتزج فيه الحقائق بالأوهام، وانما يقيم وعي الإنسان على قواعد عقيدة متينة بالمعاد تقوم على الأدلة والبراهين العقلية، وتُشاد بالمعرفة اليقينية التي تمنح العقل ثباتاً مستنيراً، وتعطي للقلب يقيناً صادقاً، وتهب الروح اطمئناناً وسكينة.

وإذ ترتاد النفس آفاق المعرفة الإلهية حول المعاد وعوالم الآخرة، فهي لا تبقى اسيرة المعرفة والاعتقاد المجرَّدَيْن، لأنَّ العلم في الإسلام ينير الطريق للعمل «والعلم يهتف بالعمل فإن أجابه وإلا ارتحل»؛ فيما يكون للعقيدة معطياتها المُباشرة على الصعيد الاجتماعي والسياسي وباقي مجالات السلوك الإنساني.

العقيدة والحياة

ثمرة أيّ اعتقاد فيما نعرف، هي في مقدار ما يوفره من ضبطٍ والتزام في سلوك الإنسان. وإذا كانت الفلسفات الاجتماعية ومذاهب توجيه السلوك البشري والسيطرة عليه، قد عاشت مجموعة من الرؤى المتفاوتة في طبيعة العوامل القادرة على التحكم بسلوك الإنسان وضبطه من طغيان الغرائز والأهواء والميول النفسية والمؤثرات الخارجية، فإن المعاد هو أقوى تلك العوامل وأمضاها في التحكم بسلوك

---

(١) الانعام: ٢٧.

الإنسان وتوجيههِ نحو هدي اللّه ورسالات السماء، ولما فيه توازن المجتمع واستقرار الجماعة البشرية.

وبين الجواذب الذاتية التي تأسر الإنسان وعوامل الكثرة الخارجية التي تضل به السبيل يحتاج الإنسان إلى رؤية فكرية واضحة راكزة تمثلها عقيدة التوحيد. بيد ان الرؤية التوحيدية المستمدة من المثل الاعلى الذي يؤمن به الإنسان لا تكفي لوحدها بل «لابدَّ من طاقة روحية مستمدة من هذا المثل الاعلى لكي تكون هذه الطاقة الروحية رصيداً ووقوداً مستمراً للارادة البشرية على مرّ التاريخ. هذه الطاقة الروحية، هذاالوقود الذييستمدمن اللّه(سبحانه وتعالى)يتمثل فيعقيدةيومالقيامة»[1].

إن الإنسان المسلم الذي يعيش المعاد عقيدةً عقلية قائمة على أساس الدليل، ويقيناً قلبياً يضيء القلب والروح، لا يعتزل الحياة أو يعيش روح التواكل بذريعة إيمانه بالغيب، وإنما سيكون إيمانه الغيبي هذا حافزاً له على خوض لجج الحياة ومكابدة مشاقّ العمل التغييري الاجتماعي ومواجهة التحديات، ولكن في ضوء فلسفة أخرى تقوم على أنَّ حياته الدنيا هي شوط قصير في رحلة تكامله، وأنَّ سعيه في الدنيا هو ذخيرته لمنازل حياة ما بعد الموت.

ويشعر في حركته هذه ان الإيمان بيوم القيامة «هو الذي يعطي تلك الطاقة الروحية، ذلك الوقود الرباني الذي يجدّد دائماً إرادة الإنسان وقدرة الإنسان، ويوفر الشعور بالمسؤولية وبالضمانات الموضوعية [و] ينعش إرادة الإنسان ويحفظ له دائماً قدرته على التحديد والاستمرار»[2].

هذه العلاقة المحكمة بين عقيدة المعاد وحركة الإنسان في الحياة، تصدر من رؤية لا تتوقف عند تخوم استجلاء المدلولات العملية والاجتماعية لاصول الدين

---

(١) المدرسة القرآنية، محاضرات سماحة الإمام محمد باقر الصدر، دار التعارف ١٩٨٠، ص١٩٣ - ١٩٤.

(٢) المصدر السابق، ص ١٩٤ ، ١٩٨ - ١٩٩.

وانما تتحاوزها لتمثل منهجاً للثورة الاجتماعية التي قادها الأنبياء على الأرض؛ لان «أصول الدين الخمسة التي تمثل على الصعيد العقائدي جوهر الإسلام والمحتوى الاساسي لرسالة السماء هي في نفس الوقت تمثل باوجهها الاجتماعية على صعيد الثورة الاجتماعية التي قادها الأنبياء الصورة المتكاملة لأسس هذه الثورة وترسم للمسيرة البشرية معالم خلافتها العامة على الأرض»[1].

هذا الكتاب

لقد توفر الكتاب الذي بين ايدينا على مجموعة مزايا جعلتنا نميل لاختيار ترجمته وتقديمه إلى القارئ العربي المسلم، وكان في طليعة هذه المزايا:

أولاً: اعتماده المنهج الاجتماعي الأخلاقي في دراسة موضوع عقائدي كالمعاد. فالمؤلف لم ينشغل ببحوث نظرية حيال الموت والحياة بعد الموت، وإنّما عالج الموضوع من خلال إظهار القيمة العملية للاعتقاد على صعيد حياة الفرد، والقيمة الاجتماعية على صعيد حركة المجتمع المسلم. هذه الصلة الوثيقة بين الإيمان باليوم الآخر وحركة الإنسان في الحياة، ظهرت خطوطها واضحة جلية في بحوث الكتاب المختلفة، بحيث يمكن متابعتها بشكلٍ ناصع في فصوله العشرين.

أمّا الصفة الأخلاقية في منهج المؤلف، فهي أيضاً لاتعني الغرق في البحوث النظرية للمذاهب والتيارات الأخلاقية، ولم تكن كذلك دعوةً لاعتزال الحياة والانكفاء على الذات بعيداً عن المشكلات اليومية، وإنما كانت بمثابة الأرضية التي تنمو من خلالها الثمار الحركية والاجتماعية للإيمان بالمعاد. ومعنى ذلك أنَّ القارئ المسلم لا يخرج من قراءة أيِّ فصلٍ خالي الوفاض، وإنما يطلع دَوماً وهو متأثر بمعرفة قرآنية نورانية تدفعهُ للعمل الصالح وتدعوه لتقويم سلوكه وتصحيحه في ضوء مسار الهدي الإلهي.

---

(١) الإسلام يقود الحياة، الشهيد الصدر، ص ٣٨.

ثانياً: الميزة الثانية للكتاب اعتماده في بيان الموت ومشاهد الآخرة ومنازل القيامة على القرآن الكريم كمصدرٍ أساس، مع الاستفادة من السنة والأحاديث والأخبار الواردة في بيان مجملات الكتاب الكريم وذكر تفاصيلها.

إنَّ الحصيلة التي يخرج بها قارئ الكتاب في إطار اللوحة التي يعكسها المؤلف عن المعاد وهوامش المترجم عليه وما يتصل به من بحوث ومواضيع، هي إضمامة كريمة من ثروة معرفية قرآنية وحديثية يؤسس من خلالها عقيدته بالمعاد وما يرتبط به من ضرورات الإيمان كالمساءلة في القبر والبرزخ وعذاب القبر ومعاد الأجسام والحوض والشفاعة والجنة والنار.

لقد كان بمقدور المؤلف أن يدخل لجّة البحوث الفلسفية والكلامية، ويتناول معطيات الدراسات العلمية وأقوال العلماء من قدماء ومعاصرين، ويعرض لمذاهبهم المختلفة في موضوع معقّد كالمعاد، بيد أنّهُ لم يفعل ذلك، بل اقتصر على القرآن اولاً، والسنّة الشريفة ثانياً. ويستثنى من ذلك إشارات فلسفية عابرة وردت في السياق عرضاً دون أن تُخرج المؤلف عن منهجه القرآني.

وهذا المنهج في بحث المعاد من خلال القرآن والسنّة وإنْ كان شاقاً على المؤلف، إلاّ أنّهُ يوفّر للمسلم رؤية نقية وتصوراً أقدر على جذب قطاعات واسعة لخلوه من إشكالات البحث الفلسفي والعقلي وتعقيداتهما في موضوع شائك كالمعاد.

ثالثاً: لقد اعتمد المؤلف لغة سهلة تكاملت مع منهجه في إقامة الموضوع على أُسس المعرفة القرآنية والحديثية، مما أعطى الكتاب ميزته الثالثة المتمثّلة في قدرته المشهودة على مخاطبة السواد الأعظم من أبناء مجتمعاتنا الإسلامية والنفوذ إلى قلبها ووعيها.

وتُعدّ هذه سمةً ثابتة في منهج المؤلف وهي أثر من آثار عمله الدائم مع الناس، فمُحاضراته لا تنقطع، وجمهوره في اتّساع وانتشار.

بل يحقّ لنا أنْ نقول: إنَّ اعتماده على القرآن والسنّة، وابتعاده عن التعقيدات النظرية فيما يطرق من بحوث، وتأكيده على المعطيات الاجتماعية والعملية للعقائد والأفكار، واستخدامه لغة سهلة مطعمة بالإمثلة ذات المغزى الأخلاقي الوجداني العميق ؛ هي كُلّها من ثمار عمله المباشر مع الناس وللناس. ذلك لأنَّ العمل بين المجتمع يمنح صاحبه حساً اجتماعياً من نوعٍ خاص يجعله مُرهفاً في تشخيص حاجاته المُباشرة.

لقد تأكدت هذه القناعة بمكوناتها العامة من تجربة سابقة امضيتها من قبل مع كتاب آخر للمؤلف هو «تربية الطفل في الرؤية الإسلامية». فبرغم مرور سنوات على طبع الكتاب إلاّ ان ردود الفعل الايجابية لم تنقطع حياله، بل هي متواصلة تسجّل للكتاب نجاحه في مخاطبة الوجدان وملء الشعور بمادة تجمع السهولة إلى الاصالة، والوضوح إلى العمق، وتدمج بين النظري والعملي، فتؤثر في المخاطَب وتجره إلى تصحيح رؤاه برفق وتعديل سلوكه دون قسر.

وإذ نثبت هذه المزايا للكتاب، لا نغفل القيمة الأساسية لما تمثله البحوث العميقة فلسفياً وعقائدياً حيال المعاد، وما لها من شأن كبير لدى أهل الاختصاص والتطلع العلمي.

والفروقُ واضحة دون شك بين ما يُكتب تأليفاً وبين ما يُجمع كحصيلة لدروسٍ ومحاضرات.

ولكن جَهدنا قدر المستطاع ان لا يحس القارئ بوطأة تلك الفروق، بحيث جاءت الحصيلة - على ما نحسب - وكأنّ القارئ يقرأ في كتاب أُلف تاليفاً.

أمّا خطوات تنفيذ هذا المنهج فتمثّلت بما يلي:

أولاً: حذف الاستطرادات والمقاطع المكرّرة والإضافية التي تُعتبر طبيعية في منهج الدرس والمحاضرة، لكنها ليست كذلك بالنسبة للكتاب.

ثانياً: توزيع الدروس التي ألقاها المؤلف على عشرين فصلاً انتظمت مسألة

المعاد وأُمّهات المواضيع التي تتصل به.

ثالثاً: تنظيم هوامش الكتاب بحيث استوعبت الإحالات مصادر جميع ما ورد في المتن من نصوص قرآنية وروائية إلاّ ما ندر.

وقد تضمنت الهوامش أيضاً بعض ملاحظات المؤلف، في حين دأبَ المترجم - في الأغلب - على ذكر مصدر ونص أيّ حديث أو خبر يشير المؤلف في المتن إليه أو إلى مضمونه.

رابعاً: لكي تكتمل فائدة الكتاب اشتغل المترجم في خطٍّ مُوازٍ للمتن، حيث قامَ بتهميش الكتاب بمتون روائية تشرح وتوضح وتفصل مجملات الكتاب المبين حيال المعاد وأُمهات الأفكار التي تناولها المؤلف، وذلك لتعمّ الفائدة بحيث يتذوق الإنسان المسلم لذة الحياة الآخرة قرآنياً وحديثياً في آنٍ واحد.

وربما عادَ السبب المُباشر الذي سهل الترجمة وجعلها تُنجز في وقت قصير وفق هذا المنهج، إلى ما نستطيع ان نسميه بالخبرة الخاصة في التعامل مع كتابات الشيخ حسين مظاهري، حيث كُنّا قد قدّمنا قبل ذلك للقارئ العربي كتابه الضخم حول تربية الطفل[1]، والذي وهبنا مرونة كبيرة في كيفية التعاطي مع كُتبه التي نأمل أن نقدمها تباعاً للمكتبة العربية لاسيما بعد أن أبدى أحد الناشرين حماسه لهذا المشروع، وبعد أن فاتحنا المؤلف المحترم بتقديم موسوعته الأخلاقية (ثمانية مجلدات) في صياغة عربية جديدة.

خامساً: لقد اجرى المترجم تعديلاً طفيفاً على عنوان الكتاب لما يجعله أكثر جاذبية للقارئ العربي.

كلمة أخيرة

يقول الفيلسوف الإسلامي الكبير صدر المتألّهين الشيرازي: «إنَّ مسألة المعاد

---

(١) تربية الطفل في الرؤية الإسلامية، الصادر عن مؤسسة البعثة.

من أغمض المسائل دقة، وأعظمها شرفاً ورتبة، وقلَّ من يهتدي إليها من كبار الحكماء، ومن يرشد إلى إتقانها من عظماء الفضلاء».

لنكن أشد حرصاً في التعاطي مع هذا الكتاب، لما يوفره للإنسان المسلم من إطلالة معرفية قرآنية وحديثية حول المعاد مادمنا نعلم يقيناً أنَّ مآلنا إلى الموت، وأننا في سيرٍ وتحوِّل من هذه النشأة إلى النشأة الأُخرى، وفي انتقال من دار إلى دار.

بيدَ أنّا نعترف ان ليس بوسع الإنسان ان يرفل بنعمةِ هذا الكتاب وأمثاله، إلاّ على قدر استعداده لتلقي هذا اللون من المعرفة الإلهية.

أخيراً ؛ لا نملك ونحن نخطّ هذه الكلمات في يوم النصف من شهر رمضان المبارك، سوى ان نرفع يد الضراعة إلى اللّه (سبحانه) في ان يتقبل جهدنا في هذا العمل مرفوعاً ثوابه إلى سبط النبي وسيد شباب أهل الجنة الإمام أبي محمد الحسن المجتبى بن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب لمناسبة مولده الاغر.

فبآل بيت رسول الله تزكو الأعمال وتخلص النوايا وحمداً للّه على نعمة ولايتهم.

وآخر دعوانا ان الحمد للّه ربّ العالمين.

جواد علي كسّار

(خالد توفيق)

١٥/ رمضان المبارك / ١٤١٨

الفصل الأوّل

المدخل إلى مسألة المعاد

يمتاز البحث في عقيدة المعاد بالحلاوة والجاذبية ، وينبغي لكل مسلم أن يتعرف على جوانب هذا الاعتقاد.

وبشأن بحثنا هذا فقد اخترنا أن يكون منذ البداية بعيداً عن تعقيدات البحث الفلسفي ومصطلحاته ، وحاولنا أن يأتي بما يُلائم المستوى الثقافي العام في المجتمع. لذلك اعتمدنا في منهج دراسة المسألة على التأمل في آيات القرآن التي تتصل بموضوع المعاد مع الاستفادة من الروايات والأحاديث الواردة عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام) حيثما تكون الحاجة ملحة لذلك؛ وبهذا الشكل تجنبنا البحث في المعاد من زاوية ما تمليه النظرة الفلسفية.

ولكن رغم ذلك، علينا أن نعي جيداً أن البحث في مسألة كالمعاد و« مصير الإنسان بعد الموت » هو أمر يبقى محاطاً بالتعقيد والصعوبة، وقد حاولنا تذليل الصعوبات وتجاوز التعقيدات من خلال دراسة الآيات القرآنية التي تتصل بالموضوع، والمتابعة الدقيقة لكتب التفسير. وكل الذي نأمله أن يوفقنا اللّه (سبحانه) لمواصلة البحث حتى أشواطه الأخيرة.

بُعدان في تكوين الإنسان

ينطوي وجود الإنسان على بُعدين هما : البعد المعنوي (الروح)، والبعد المادي (الجسم).

فالغرائز المادية ترتبط بـ « الجسم » وبالبعد المادي من تركيبة الإنسان؛ فيما

تصدر الميول النفسية عن «الروح». وفي داخل الإنسان ثمة صراع بين البعدين، وهذا الصراع هو من القوة والعنف بحيث يصفه رسول اللّه (صلى اللّه عليه وآله) بـ«الجهاد الأكبر».

وفي سياق التأكيد على البعدين اللذين يتألف منهما وجود الإنسان، جاء في الحديث الشريف «إنّ اللّه تعالى خلق الملائكة وركّب فيهمُ العقل، وخلق البهائم وركّب فيها الشهوة، وخلق بني آدم وركّب فيهم العقل والشهوة، فمن غلب عقله على شهوته فهو أعلى من الملائكة، ومن غلب شهوته على عقله فهو أدنى من البهائم»[1].

والذي يتضح من الحديث الشريف أن الملائكة موجودات نورانية مجرّدة عن الميول النفسية، وهي تحيا بحبّ اللّه (سبحانه). أما الحيوانات فقد خُلِقَت وهي تفتقد إلى العقل والعلم والمعرفة، وهي تسعى في حياتها إلى الأكل والنوم وإشباع شهواتها فقط، حيث لا همّ لها سوى ذلك. أما بالنسبة للإنسان فقد منَّ اللّه (سبحانه) عليه بتكوين خلقي ينطوي على قوة «العقل» وقوة «الشهوة» معاً، حيث يفتح الإنسان عينيه على هذه الدنيا وهو يحمل كلا الاستعدادين.لذلك إذا استطاع الإنسان أن يُغلِّب عقله فسيكون أعلى من الملائكة، أمّا إذا غلبت عليه شهوته فهو أدنى من البهائم.

وبهذا المعنى بالذات يكون الإنسان عرضةً لفعل القوتين (العقل والشهوة) وميداناً لـ«الجهاد الاكبر». فإذا استطاع الإنسان في مسير «الجهاد الاكبر» أن يهيمن على شهواته ويتغلب عليها وينتصر باختياره وإرادته، فسيكون عند اللّه (سبحانه) ذا مقام شامخ رفيع، ويكون مع النبيين رفيقاً، وفي ذلك يقول (تعالى): «ومَنْ يُطعِ اللّه والرسول فأولئك مع الذين أنعمَ اللّه عليهم مِنَ النبيّن والصدّيقين الشهداء والصالحين وحَسُن أولئك رفيقاً»[2].

---

(١) الوسائل، ج١١، ص١٦٤ مع اختلاف يسير في الألفاظ.

(٢) النساء : ٦٩.

ولمثل هذا الإنسان الذي ينتصر على شهواته يأتي الخطاب الإلهي في قوله(تعالى): «يا أيتها النفس المطمئنّة ارجعي الى ربِّك راضيةً مرضيّةً فادخلي في عبادي وادخلي جنتي»[1].

إن الإنسان إذا انتصر في مسيرة «الجهاد الاكبر» فسيتألق ويرتقي في أشواط لقاء اللّه. ومن المؤكد أن أحداً لا يستطيع أن يصف هذا السمو المعنوي والروحي في رحاب اللّه، ولا أن يذوق مُتعته ولذّته الا بأن يوفّق إليه.

يقول (تعالى) :«فلا تعلمُ نفسٌ ما أُخفيَ لهم من قُرّة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون»[2].

أمّا إذا انهزم الإنسان في صراعه الداخلي، وسقط في معركة «الجهاد الأكبر» وأصبح ضحية بعده المادّي وأسيرَ شهواته مثل حبّ الرئاسة والمال والجنس ونظائرها، فسيكون أدنى من الحيوان، يقول (تعالى) : «أولئك كالأنعام بل هم أضلّ»[3].

ويقول أيضاً في وصف هذا الصنف : «إنَّ شرَّ الدوابّ عند اللّه الصُّمُّ البكمُ الذين لا يعقلون»[4] أي إنَّ القوّة الشهوية لدى هؤلاء غلبت القوّة العقلية.

طريق الانتصار في الجهاد الأكبر

إذا أردنا للبُعد المعنوي في وجودنا وشخصيتنا أن ينتصر على البُعد المادّي، وأن يتغلّب الجانب «الملكوتي» على الجانب «الناسوتي»، فينبغي لنا أن نحشد مجموعة من «العوامل» التي تمدّ الجانب الروحي وتدعمه.

وفي هذا السياق ثمة نظريات مُتعدّدة بين علماء الأخلاق والسلوك، حيث يذهب كلّ منهم إلى رأي معيّن في المسألة. بالإضافة إلى علماء الأخلاق والسلوك،

---

(١) لفجر : ٢٦ - ٣٠.

(٢) السجدة : ١٧.

(٣) الأعراف : ١٧٩.

(٤) الانفال : ٢٢ .

هناك آراء الفلاسفة ومواقفهم تجاه القضية، حيث ذهب كلّ من فلاسفة ما قبل الإسلام وما بعده إلى رأي خاص إزاء القضيّة، فيما اشترك علماء النفس في بحث الموضوع من زاوية اختصاصهم العلمي لينتهوا بدورهم إلى مجموعة أخرى من النظريات.

وبشكل عامّ علينا أن نؤكّد أنَّ العلماء اختلفوا فيما بينهم في طبيعة «العوامل» التي تساعد الإنسان على الانتصار في معركته الداخليّة وصراعه مع نفسه، بحيث ذهب مجموعة منهم إلى أنَّ «العقل» قادر على تمكين الإنسان من تحقيق النصر في هذه المعركة؛ وبالتالي اعتبر هؤلاء «العقل» العامل الأساسي في حسم الصراع الداخلي.

بينما ذهب فريق آخر من العلماء إلى أنَّ «العلم» هو العامل الحاسم الذي يدفع الإنسان نحو النصر والغلبة في مسير الجهاد الأكبر. فأفلاطون وتلامذته مثلاً هم من أنصار هذه المدرسة التي تعتقد بأنّه كلّما ازداد «علم» الإنسان، زادت فُرَصُهُ في تحقيق الانتصار في صراعه الداخلي مع نفسه.

أمّا الفئة الثالثة فتذهب إلى أنّ العامل الحاسم في تمكين الإنسان من الانتصار هو «الوجدان الأخلاقي» أو ما يُعبِّر عنه القرآن بـ «النفس اللوّامة». وهؤلاء يرون أن يقظة «الوجدان الأخلاقي» في شخصية الإنسان يفضي إلى قدرة الإنسان للسيطرة على «النفس الأمّارة».

والقسم الرابع من المفكّرين يعتمد على مبدأ «التربية الصحيحة» كعامل مؤثّر وفعّال، لأنَّ الإنسان الذي يلقى تربيةً صحيحة يكون بمقدوره أن يتغلّب على القوى المادية في معركة الجهاد الأكبر.

أمّا الفريق الخامس فيعتقد أنَّ من غير الممكن للإنسان أن ينتصر في معركته مع نفسه إلاّ بـ «القانون» كعاملٍ حاسم ووحيد.

وثمّة فئة سادسة من العلماء تذهب إلى أنَّ «الرقابة الاجتماعية»[1] هي العامل الحاسم الذي بمقدوره أن يحقّق النصر للإنسان.

---

(١) المقصود بـ «الرقابة الاجتماعية» هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

والذي ننتهي إليه من خلال الإشارات السريعة الآنفة، أنَّ البحث في الموضوع واسع، ولكنّا لسنا بصدد الخوض في تفاصيله، وإنّما يعنينا أن نشير إلى أنَّ الإسلام ينظر إلى أهميّة العوامل الستّة الآنفة، ويعتبرها مؤثّرة في السيطرة على نوازع الفرد والمجتمع، بيد أنّهُ لا ينظر إلى أيٍّ منها على أنّه كافٍ وحده في «تهذيب النفس»، حيث نجد أنَّ هذه العوامل تفتقد فاعليتها وأثرها في المراحل الحسّاسة واللحظات العنيفة العاصفة من الصراع الداخلي الذي يعيشه الإنسان ويواجهه في حياته.

لذلك نستطيع أن نقول : إنَّ هذه العوامل قادرة في الظروف العادية على تمكين البُعد المعنوي للإنسان من الغلبة والانتصار، ولكنّها عاجزة في غير ذلك عن الفعل والتأثير.

حالتان غريزيتان

لإعطاء صورة أوضح للبحث، علينا أن نذكّر بأنَّ للغرائز والميول النفسيّة حالتين؛ هما :

أ: الحالة العادية الطبيعية، ومثالها حالات الجوع والعطش الطبيعي التي يمر بها الإنسان ويكون بمقدوره السيطرة عليها.

وكذا يقال بالنسبة للنوازع والميول النفسية الأخرى كحبّ الرئاسة والمال، وحبّ الدنيا، والغريزة الجنسية، إذ الملاحظ أنَّ هذه الميول عندما تكون في حدودها الطبيعية وحالاتها العادية يكون من الممكن ضبطها والسيطرة عليها من خلال «العوامل» الستّة الآنفة.

ب: حالات الأزمة، وذلك حينما تطغى غرائز الإنسان وتتجاوز الحدود الطبيعية. ففي مثل هذه الحالات لا يمكن لأيّ عاملٍ من العوامل الستّة الآنفة أن يضبط الغريزة ويسيطر على طغيانها.

بعد هذه المقدّمة (المنهجية) نعرض في النقاط التالية إشاراتٍ سريعة تكشف عن نظرة الإسلام إلى كلّ عامل من العوامل الآنفة:

أوّلاً : العقل من وجهة نظر الإسلام

نؤكّد مجدّداً أنَّ الإسلام ينظر باهتمام إلى تأثير العوامل المذكورة، حتى انَّ القرآن الكريم يعطي البشارة بالسعادة لعباد اللّه الذين يتحلّون بالتعقّل، حيث يقول سبحانه : « فبشِّرْ عبادِ الذينَ يستمعون القول فيتّبعُونَ أحسَنَهُ أولئكَ الذينَ هداهم اللّه وأولئك هم أُولوا الألباب »[١].

ثانياً : العلم من وجهة نظر الإسلام

يولي الإسلام اهتماماً فائقاً لـ « العلم »، حتى اننا نستطيع أن نقول بأنّنا لا نجد تيّاراً فكريّاً أو اتجاهاً عقائدياً يعتني بالعلم ويحثّ على تحصيله كما يفعل الإسلام الذي يعطيه قيمة أساسية. يقول (تعالى) : « يرفع اللّه الذين آمنوا منكم والذين أُوْتوا العلم درجاتٍ واللّه بما تعملونَ خبير »[٢].

إننا نعرف أن مقياس الإسلام في تفضيل الإنسان لا يقوم على أساس الحسب والنسب، والمقام والمنصب، أو الجاه والثروة والمال وأشباه ذلك. لقد جاء الإسلام ليدوس هذه المعايير الجاهلية ويرميها جانباً. وفي المقابل اعتبر الإسلام، العلم مقياساً للتفوّق والفضيلة، وجعل للعلماء العاملين بعلمهم درجات كبيرة، وأوجب لهم على الناس الاحترام الفائق.

لقد جاء على لسان بعض العلماء الكبار قولهم : « العلم دليل المعرفة »، ومن ذلك يتّضح انَّ للعلم دوراً في توجيه الإنسان وإرشاده.

---

(١) الزمر : ١٧. وعلينا أن ننبّه إلى أنَّ الذي نعنيه بالعقل هو ما أشار إليه الإمام الصادق (عليه السلام) حينما سأله سائل بقوله : قلت له : ما العقل؟ قال (عليه السلام) : « ما عُبِدَ به الرحمن واكتسب به الجنان » قال : قُلت: فما الذي كان في معاوية؟ فقال(عليه السلام) : « تلك النكراء، تلك الشيطنة، وهي شبيهةٌ بالعقل وليست بالعقل ». الكافي، ج ١ ، ص١١ .

(٢) المجادلة : ١١.

ثالثاً : موقف الإسلام من الوجدان الأخلاقي

لقد جاء ذكر «الوجدان الأخلاقي» في القرآن الكريم قريناً لذكر القيامة، حيث ذُكر في مكان واحد، فقد أقسم اللّه (جل جلاله) بـ «النفس اللوّامة» التي هي تعبير مساوق لمصطلح «الوجدان الأخلاقي». يقول (تعالى) في ذلك : «لا أُقسم بيوم القيامة. ولا أُقسم بالنفس اللوّامَةِ»[(١)].

إنَّ استخدام القرآن الكريم لتعبير «النفس اللوّامة» وذكرها مع ذكر «القيامة» يستبطن معاني دقيقة. إذ المعروف أنَّ الإنسان لا ينفعه في يوم القيامة مقامه ولا ثروته، ولا تقبل منه رشوة أو فدية «واتقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يقبل منها شفاعةٌ ولا يُؤخذُ منها عدلٌ ولا هم يُنصرون»[(٢)].

وفي هذا الوقت الذي يواجه الإنسان فيه مصيره، يكون وخز الضمير وضربات «وجدانه الأخلاقي» الذي يصطلح عليه القرآن الكريم بـ «النفس اللوّامة» من الشدّة والعنف بحيث لا يهدأ معه الإنسان ولا يستقرّ، ولا تنفعه الحيلة أو الزور.

من هذه الزاوية بالذات ننظر إلى «الوجدان الأخلاقي» بوصفه حارساً يقظاً وعاملاً مؤثّراً وفاعلاً. فالوجدان الأخلاقي يحذّر الإنسان باستمرار من مغبّة ارتكاب الذنب قبل ارتكابه، وينبّهه إلى العواقب السيّئة والوخيمة التي تترتّب عليه في الدنيا والآخرة. وفي حال ارتكاب الإنسان للمعصية والذنب، يعمل الوجدان الأخلاقي على ردع صاحبه عن الاستمرار في ذلك ويدعوه للأوبة والرجوع. أمّا بعد ارتكاب الذنب فيبدأ الوجدان الأخلاقي بتقريع صاحبه وتبكيته ولومه على ما صدر منه.

لهذه الأسباب يُعبِّر القرآن الكريم عن هذه الحالة بـ «النفس اللوّامة».

على صعيد آخر، نرى أنَّ لـ«الوجدان الأخلاقي» بعداً آخر. فعندما يهمّ الإنسان بفعل الخير، وأثناء فعله له وبعده، نجد الوجدان يشجع الإنسان ويرغبه في

---

(١) القيامة : ١ - ٢.

(٢) البقرة : ٤٨.

ذلك، ودوره من هذه الزاوية أنّه يمهّد لصاحبه الأرضية المناسبة اللائقة لإنجاز الأعمال الصالحة.

من ذلك كلّه تتبيّن أهميّة هذا العامل ودوره؛ وما قَسَمُ القرآن به في قوله (تعالى) : «لا أُقسم بيوم القيمة. ولا أُقسم بالنفس اللوّامَةِ»[1] إلاّ دليل آخر على أهميّة هذا العامل ودوره في مسيرة «الجهاد الأكبر».

رابعاً : العامل التربوي من وجهة نظر الإسلام

يعطي الإسلام العامل التربوي أهميّة كبيرة، بحيث يقول (سبحانه): «يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة»[2].

إنَّ الآية الكريمة تدعو الإنسان إلى أن يسلك سبيل التربية الإلهية ليقي نفسه وأُسرته من نار جهنّم.

وفي مكانٍ آخر يقول (تعالى) : «قل إنَّ الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، ألا ذلك هو الخسران المبين»[3].

تتحدّث الآية بصراحة عن فئةٍ من الناس ينالها الشقاء والخسران في يوم القيامة؛ والسبب في شقاء هذه الطائفة أنّها لم تكن تهتم بتربية نفسها ورعاية أهليها في الحياة الدنيا، ولم تكن تُعنى بإصلاح أُمورهم، بل كانت تربيتها سيّئة.

والآيتان الكريمتان الآنفتان تكشفان عن أهمّية العامل التربوي ودوره من وجهة نظر الإسلام.

خامساً: الإسلام والقانون

لا يخفى على أحد أنّ للإسلام مجموعة من القوانين والحدود والأنظمة

---

(١) القيامة : ١ - ٢.

(٢) التحريم : ٦.

(٣) الزمر : ١٥.

الضابطة. والملاحظ أنَّ هذه القوانين من السعة بحيث تشمل جوانب الحياة المختلفة، وتحيط بالموضوعات الحقوقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والعائلية والعبادية وغير ذلك. والقرآن الكريم يحثّ بشكل مؤكّد على رعاية هذه القوانين والالتزام بها، ويعتبر التعدّي عن حدودها ظلماً. يقول (تعالى) : «ومَن يتعدَّ حدود اللّـه فأولئك هم الظالمون»[1].

ومن المؤكّد أنَّ اللّـه (سبحانه) لا يهدي الظالمين ولا يشملهم برحمته وعنايته وهدايته.

من ذلك نتبيَّن أنَّ الإسلام يهتم بالعامل القانوني ويؤيّد دوره في الهداية ومسيرة «الجهاد الأكبر».

سادساً : الإسلام والرقابة الاجتماعية

إنَّ «الرقابة الاجتماعية» هي اصطلاح مساوق للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وكلّنا يعرف أنَّ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من فروع الدين الحنيف.

يقول تعالى : «كُنتم خير اُمّةٍ أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهونَ عن المنكر وتؤمنون باللّـه»[2].

ومعنى الآية أنَّ المجتمع لا يكون إسلامياً حقّاً إلاّ بتحقّق فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وفي إشارة أخرى لأهمّية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يقول (تعالى) : «والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياءبعضٍ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر»[3].

يتّضح من هذه الإشارة المختصرة دور «الرقابة الاجتماعية» أو «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر».

---

(١) البقرة : ٢٢٩.

(٢) آل عمران : ١١٠.

(٣) التوبة : ٧١.

محدودية العوامل الستّة

نشير أوّلاً إلى ما أكدناه في فقرةٍ سابقة من هذا الفصل، من أنَّ العوامل الستّة؛ أي العقل والعلم والوجدان الأخلاقي والتربية والقانون والرقابة الاجتماعية، قادرة على ضبط «النفس اللوّامة» والسيطرة عليها في الظروف والأوضاع العادية. لذلك أولى الإسلام هذه العوامل اهتماماً بارزاً، حتى بلغ من ذلك أن نهضَ علماء الإسلام بتصنيف مجموعة من الكتب والمؤلّفات المتنوّعة حول دور وأهمية كل عامل من هذه العوامل. وليس ثمّة شك بأن دراسات علماء الإسلام في هذا السياق امتازت بسعة البحث والتحقيق، حتى بلغت في قيمتها وأهمّيتها شأواً كبيراً. ولكن كما سبق ان أكّدنا ذلك مراراً، فإنَّ مجال عمل هذه «العوامل» يقتصر على حالات الإنسان العادية وظروفه الطبيعية، أمّا عندما تشتدّ أزمته الداخلية ويطغى الجانب الغرائزي ذو الميول المادية والحيوانية فإنَّ أيّاً من هذه العوامل لا يستطيع أن يضبط الإنسان بمفرده، بل لا تستطيع العوامل مجتمعة أن تواجه جنود الشيطان وتقف في وجه النفس الأمّارة.

لذلك كلّه نبقى بحاجة إلى عاملٍ آخر يكون بمقدوره مواجهة عواصف النفس الأمّارة والوقوف في وجه طغيانها وعلوّها ونزوعها نحو الشهوات الحيوانية والميول المادية. فالإنسان مثلاً إذا غضب لا يستطيع أحد أن يقف في مواجهته، وإذا جاع يطغى، حتّى أنّهُ يضحي بأطفاله، فهل يا ترى تستطيع العوامل الستّة المذكورة آنفاً أن تحفظ الإنسان عند حدوده وتمنعه من الطغيان فتبقيه على توازنه؟

محدودية العلم

يعوّل البعض على العلم كثيراً، وكأنَّ دنيانا المعاصرة تفتقد العلم!

وإذا كان العلم حائلاً أمام طغيان الإنسان، فلماذا يقذف «المتعلّمون» و«المتمدنون» بحمم صواريخهم على بيوت المدنيين الآمنين؟

بلغت البشرية شأواً كبيراً في التقدّم العلمي حتى أُتيحت للإنسان فرص تفجير

الذرّة، ولكن رغم هذا التقدّم وفي موازاته وجدنا مسخ القيم الإنسانية، حتى كأنّه لا ثمرة لانفلاق الذرّة وتقدّم الإنسان في هذا المضمار؛ إلاّ إلقاء القنابل الذرية على المدنيين الآمنين في هيروشيما وناكازاكي حيث قُتل ما يقارب المائة ألف إنسان!

إننا لا نجد في هذه الإشارة السريعة إلاّ أن نقول للفيلسوف افلاطون (الذي يذهب إلى إمكان سيطرة الإنسان على نوازعه بالعلم) إنّ العلم - ياسيّدي - وإن استطاع أن يفلق الذرّة، إلاّ أنّه لم يستطع بحال أن يُليّن النفس ويضبط الميول الشريرة في الإنسان، ولا أن يمنع طغيانه، بل نستطيع أن نؤكّد بأنّ العلم زاد في طبائعه الوحشية ورسّخ بعض اتجاهاته الدموية.

محدودية التربية والقانون

إنّ «التربية» و«القانون» هما اليوم من العوامل البارزة التي تدخل في تكوين ما يصطلح عليه بالحضارة المعاصرة، حتى بلغ الأمر بالإنسان (المتمدن) ان وضع قوانين لحماية الحيوانات والدفاع عن حقوقها. ولكنّ هذا العالم الذي سنّ قوانين لحماية الحيوانات والدفاع عنها يشهد مفارقات عجيبة على صعيد حقوق الإنسان، فالقنابل والظلم والخراب ينزل يومياً من قبل القوى المستكبرة على رؤوس المسلمين في أفغانستان ولبنان وايران وغيرها، والحملة مستمرّة من قبل المستكبرين ضدّ مستضعفي العالم في كلّ مكان.

ومن المؤكّد انّ عالمنا المعاصر يوجد فيه «القانون» و«التربية» معاً، إلاّ انّ الذي نراه انّ هذين العاملين ليس بمقدورهما الحدّ من الطبائع الوحشية ونوازع النهب. والسرّ في ذلك انّهما مقيّدان بحدودٍ معيّنة، بحيث لا يستطيع تأثيرهما أن يتجاوز دائرة بعينها. فحينما تطغى الغرائز ويتجاوز الإنسان الحدود فإنّ هذين العاملين يفقدان تأثيرهما!

«المعاد» العامل الأساسي في ضبط الإنسان

نجد أنّ عجز العوامل الستّة الآنفة أو محدودية مجال عملها يعود بالدرجة

الأساس إلى طغيان غريزة «حبّ الدنيا» لدى الإنسـان. أي إذا فتّشنا عن سبب فشل العوامل الستّة فلن نجده إلاّ في طغيان غريزة «حبّ الدنيا». فالذنوب جميعاً تستقي جذورها من هذه الغريزة (حبّ الدنيا) وإذا طغت هذه الشهوة لدى الإنسان فسيكون مستعدّاً لارتكاب أي عمل مهما بدا قاسياً.

إنّ العامل الأقوى القادر على ضبط الإنسان والسيطرة عليه، والذي يتفوّق في قدرته على العوامل الستّة المذكورة هو عامل «الاعتقاد بالمبدأ والمعاد».

فيقين الإنسان بعالم البرزخ وبالحساب والكتاب والجنّة والنار، يعدّ العامل الأساس في ضبط الإنسان وهدايته.

الفصل الثاني

أسباب إنكار المعاد

يقول (سبحانه) في القرآن الكريم : «لا أُقسم بيوم القيمة. ولا أُقسمُ بالنفس اللوّامة. أيحسَبُ الإنسانُ أن لَنْ نجمعَ عظامَهُ . بلى قادرين على أن نُسَوِّيَ بنانه . بل يريدُ الإنسانُ ليفجُرَ أمامَهُ . يسأل أيّانَ يومُ القيمة» [1].

إنَّ الإنسان ينكر الحساب والكتاب ويكذّب بيوم القيامة لأنَّهُ يريد أن يفعل ما يشاء دون أن تكون أمامه موانع أو قيود. لذلك جاءت الآيات الأولى من سورة «القيامة» التي افتتحنا بها الفصل، لتشير بشكلٍ عام إلى أنَّ الاعتقاد بالمعاد والحساب والكتاب تجعل الإنسان يُسيطر على غرائزه ويحول دون طغيان نزواته وميوله النفسية.

وكذلك نقرأ في سورة «المطففين» انَّ الإنسان إذا وصل إلى درجة الظن بالمعاد فسيمتلك في نفسه قوّة قادرة على ضبطه. امّا إذا وصل إلى درجة اليقين بالمعاد، فإنَّ يقينه بالآخرة هذا سيتحوّل إلى عامل أساس يضمن له السيطرة على ميوله ونزعاته النفسانية.

يقول تعالى : «ويلٌ للمطففين. الذين إذا اكتالُوا على الناس يستوفون. وإذا كالوهُم أو وزَنوهُم يُخسرون . ألا يظنُّ أولئك أنَّهُم مبعوثون ليومٍ عظيم» [2].

من المؤكّد انَّ «الكاسب» ليس هو المصداق الوحيد للآية الكريمة، بل تشمل الآية أيضاً الموظّف الذي لا يقوم بواجباته والعسكري الذي يخلّ بمسؤولياته، وكل إنسان يتقاضى أجراً على عملٍ معيّن، ثمَّ يتهاون في أداء العمل وإنجازه، فهؤلاء

(١) القيامة : ١ - ٦ .

(٢) المطففين : ١ - ٥ .

جميعاً هم مصاديق لموضوع الحكم الكلّي الذي تتحدّث عنه الآية.

ومن البديهي انَّ الإنسان إذا آمن بالموت، وهو أوّل منازل الآخرة، ووعى جيّداً أهواله وما يعانيه من سكرات الموت وصعوبة الاحتضار، كان ذلك رادعاً له يحول دون طغيانه.

وفيما يلي من سطور نعرض إلى نموذجين لحالة الاحتضار وكيفية قبض الروح، ليكون ذلك مدخلاً لتصوّر صعوبات الموت.

النموذج الأوّل

جاء في كتاب «لقاء اللّه»[١] في حالة مَن أخبر سلمان الفارسي عن تفاصيل موته وكيفية قبض روحه، حيث قال: «يا سلمان: القرض بالمقاريض والنشر بالمناشير، أسهل وأهون عليّ من غصةٍ واحدة من غصص الموت [رغم انّي] كنت من أهل الخير والسعادة».

ثم يضيف في وصف ملك الموت:

«فإذا بشخصٍ عظيم الجثّة مريب المنظر [ملأ] ما بين السماء والأرض، جاء، فأشار إلى «عيني ولساني وسمعي» فعميت وخرست وبكمت...؛ إلى أن قال: فقال ملك الموت: أبشر انّك من أهل الخير. ودنا منّي وجذب روحي، وكانت كلّ جذبة مكان كلّ شدّة تنزل من السماء إلى الأرض. وهكذا كان يجذب حتى بلغ إلى صدري، فإذا [به] جذب جذبة واحدة شديدة بحيث لو وقعت على الجبال لذابت من شدّتها، فأخرج روحي»[٢].

---

(١) رسالة لقاء اللّه، من مؤلّفات العالم الربّاني الميرزا جواد الملكي التبريزي، معلّم الأخلاق، وهو صاحب منهج خاص في التربية والسلوك إلى اللّه. من مؤلّفاته كتاب «أسرار الصلاة» و«السير إلى اللّه» و«المراقبات» وغيرها، وستمرّ ترجمة حياته مفصّلة في الفصل العاشر من الكتاب بإذن اللّه. [المترجم].

(٢) رسالة لقاء اللّه، ص١٠٩ - ١١٠ [المترجم].

النموذج الثاني

روى الشيخ المفيد (رحمه اللّه) رواية عن الإمام الصادق (عليه السلام) في أحوال ملك الموت وكيفية قبض الروح، ننقلها بالمضمون :

« إذا أراد اللّه (عزّوجلّ) قبض « روح الفاجر » أمر ملك الموت أن اذهب بأعوانك إلى عدوّي الذي أنعمت عليه بصنوف نعمي، ودعوته إلى دار السلام فلم يجب دعوتي وكفر نعمتي، وخُذ بروحه الخبيثة وألقها في جهنّم. فيجيء ملك الموت إليه ووجههُ منقبض مهيب مظلم، مثل الليل المظلم، ونفسه مثل لهب النار، وعيناه مثل البرق الخاطف، وصوته مثل الرعد القاصف، رأسه في السماء ورجلاهُ في الهواء، أحدهما بالمشرق والآخر بالمغرب، وبيده « سَفّود »[1] لهُ شعب كثيرة، مع خمسمائة من الملائكة وبيد كلّ واحدٍ منهم سوط مشتعل، وحلس سود، وجمرة من نار جهنّم، ومنهم السقاطيس (أو السقاطيل وهو من خزّان جهنّم) فيدنو منه فيسقيه شربة من شراب جهنّم، فإذا رأى الفاجر ذلك، يحار لبه ويستغيث ويقول : ردّوني إلى الدنيا، فيجاب : كلاّ إنّما هي كلمة هو قائلها. ثم يضربه بالسفّود الذي بيده، ويجذب به روحه من طرف رجليه، حتى إذا بلغ ركبتيه ولم يقدر على الحركة، أمر (ملك الموت) أعوانه أن يضربوه بأسواطهم ويذيقوه سكرات الموت، حتى إذا بلغت روحه إلى حلقومه، أخذوا يضربونه بالأسواط ويتلون قوله (تعالى) : «أخرجوا أنفسَكُم اليوم تجزون عذاب الهُون بما كُنتم تقولون على اللّه غير الحق وكنتم عن آياته تستكبرون »[2].

« فإذا أخرجوا روحه وضعوا بدنه في مطرقة فيكسرونه من أطراف أصابعه إلى حلقتيه، فتخرج منه ريح مُنتنة يتأذّى منها أهل السماوات، فيلعنه اللّه وجميع أهل

---

(١) السفّود بفتح السين وتشديد الفاء : عود من حديد ينظم فيه اللحم ليشوى، والجمع سفافيد. [المترجم].

(٢) الأنعام : ٩٣.

السماوات... »[1].

لماذا نُعرض عن الأحكام الإلهيّة؟

لو قُدِّر للإنسان أن يتأمّل ولو قليلاً بهذه الروايات ونظائرها، فسيعود إلى نفسه، ويحول دون طغيان ميوله النفسانية. ذلك لأننا لو افترضنا مجرّد احتمال وقوع هذه الحوادث لكان ذلك كافياً لردعنا عن اتباع الهوى.

أمام هذه الحقيقة لابدَّ أن نصل إلى السؤال التالي : لماذا اذن يشيع كل هذا الظلم بيننا؛ ولماذا تتمّ مخالفة الأحكام الإلهية والابتعاد عنها؟

الجواب واضح؛ فالسبب في كل ذلك أننا لم نصل بعد إلى درجة « اليقين » بيوم القيامة والجزاء. ذلك انَّ اليقين والعلم شيئان يختلفان عن بعضهما البعض. فالعلم هو المعرفة، أمّا اليقين فهو الوصول إلى درجة الاطمئنان القلبي وتحصيله.

ولكي يتّضح هذا الفارق بشكلٍ أفضل نشير فيما يلي إلى بعض المفاهيم التي ترتبط بالعلم واليقين.

أقسام العلم

يمكن أن نقسّم العلم، من زاوية البحث الذي نحن بصدده، إلى قسمين هما :

أ : العلوم التي ترتبط بالعقل. ومثالها الأفكار العقلية التي تستدعي إقامة البراهين

---

(١) النص نقلناه عن « رسالة لقاء اللّه » ص١١٠ - ١١١، وبالنسبة للصورة المفزعة لملك الموت، جاء في الخبر، إنّ إبراهيم الخليل (عليه السلام) قال لملك الموت : هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض فيها روح الفاجر؟ قال : لا تطيق ذلك. قال: بلى، قال : فأعرض عنّي، فأعرض عنه ثم التفت، فإذا هو برجل أسود، قائم الشعر، مُنتن الريح، أسود الثياب، يخرجُ من فيه ومناخره لهيب النار والدخان، فغشي على إبراهيم، ثم أفاق، فقال : لو لم يلق الفاجر عند موته إلاّ صورة وجهك لكان حسبه. البحار، ج٦، ص١٤٣ [المترجم].

الفلسفية، وكنموذج على هذا النمط من الأفكار يمكن أن نشير إلى البراهين والأدلّة التي سوف نستعين بها لإثبات الاعتقاد بالمعاد.

إنّ العلم بالمعاد والاستدلال العقلي على إثباته وإن كان ضروريّاً، إلاّ انّهُ لا يعدّ فعّالاً في حركة الإنسان ومسيره نحو اللّه، ذلك انّ العلم وحده لا يمكن أن يكون عاملاً حاسماً في السيطرة على الإنسان وضبط نوازعه.

ب: العلوم التي ترتبط بالقلب، ويطلق عليها أيضاً اصطلاح «المعرفة». وهذه الفئة من العلوم هي على عكس القسم الأوّل، إذ انّها لا تُكتسب بالتعلّم، وانّما بالذوق والارتقاء المعنوي، والوسيلة الوحيدة للحصول عليها هو العمل.

وهذا اللون من العلم يعدّ من إشراقات الأنوار الإلهية، وهو الذي يُطلق عليه «اليقين». لذلك يمكن أن نقرّر انّ اليقين حالة تُلمس بالقلب ولا تشاهد بالعين.

اليقين في كلام الإمام زين العابدين

نقرأ في دعاء أبي حمزة الثمالي المروي عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام) : «اللّهمَّ إنّي أسئلُك إيماناً تُباشرُ بهِ قلبي ويقيناً صادقاً حتى أعلم انّه لن يُصيبني إلاّ ما كتبتَ لي، ورضّني من العيش بما قسمتَ لي يا أرحم الراحمين»[1].

يطلب الإمام السجّاد(عليه السلام) في هذا الدعاء، من اللّه (سبحانه) إيماناً ويقيناً قلبيّاً لا عقليّاً، لأنّ تصديق القلب وتيقّنه هو الذي يبعث في الإنسان الحركة، ويكون فاعلاً ومفيداً في التزامه وثباته، لا مجرّد العلم (العقلي) بالمعاد.

الغفلة عن الموت

إنّ غفلة الإنسان عن وحشة الليلة الأولى في القبر، وعن فزع القيامة وأهوال الصف والحساب والمحشر، هي التي تجعله لاهياً منشغلاً عن نفسه ومصيره، وحالما

(١) يلاحظ نص الدعاء في مفاتيح الجنان، أدعية أسحار شهر رمضان.

يتيقظ الإنسان لهذه المخاطر والأهوال وينتبه إلى نفسه، يجد نفسه في القبر!

وقد عبَّر الحديث الشريف عن هذه الحقيقة بالقول: «الناس نيامٌ فإذا ماتُوا انتبهوا»[١].

أمّا القرآن الكريم فقد عبَّر عنها في الآيات الكريمة: «ألهاكم التكاثُرُ. حتى زُرتُم المقابِرَ. كلاّ سوف تعلمون. ثم كلاّ سوف تعلمون. كلاّ لو تعلمون علم اليقين. لترَوُنَّ الجحيم. ثم لترَوُنّها عينَ اليقين. ثم لتُسألُنّ يومئذٍ عن النعيم»[٢].

لو لم يكن الإنسان غافلاً، ولو كانت له مرتبة ضعيفة من اليقين بالمعاد وحوادث ما بعد الموت، من عوالم القبر والبرزخ؛ لما ترك زمام نفسه بيد أهوائه، ولما ترك نفسه تقف ذلك الموقف السيئ (بين يدي اللّه سبحانه) يوم يُسأل عن النعم الإلهية، وأعظمها نعمة ولاية أهل بيت العصمة (عليهم السلام) وعن السلامة والأمن والعقل، ماذا فعل بها!

قصة

يحكى أنَّ قحطاً أصاب مدينة، حتّى وصل أهلها إلى درجة مريعة من الفقر والبؤس والفاقة. وكان من بين سكّان المدينة امرأة علوية (شريفة النسب) لها مجموعة من الأطفال اليتامى. وقد وصلت حالة الجوع بالأطفال في إحدى الليالي مبلغاً عظيماً، حتى اضطرّت أُمّهم أن تذهب إلى رحل حدّاد وتطلب منه العون وطعاماً لأولادها. ولكنَّ الحدّاد طلب من المرأة أن تعطيه نفسها حتى يمارس معها اللّذة الحرام. رفضت المرأة وعادت إلى بيتها وهي متألمة لحال أطفالها، ومن طلب الحدّاد.

في الليلة الثانية وصلت حالة الأطفال إلى مرحلة خطيرة من الجوع، وأصبح الموت يهدّدهم، فذهبت أُمّهم مجدّداً إلى الحدّاد لتطلب منه غذاءً لأطفالها، بيد انه

(١) علم اليقين، الفيض الكاشاني، ج٢، ص٨٥٢ .

(٢) التكاثر : ١ - ٨ .

كرّر عليها طلبه السابق ثمناً للطعام، فرفضت المرأة وعادت إلى بيتها.

في الليلة الثالثة أصبحت حالة الأطفال لا تُطاق، بحيث صاروا على مشارف الموت، فاضطرّت أُمّهم للذهاب إلى الحدّاد الذي جدّد طلبه، فأذعنت المرأة واشترطت عليه أن يتم لقاؤهما في مكانٍ لا ينظر فيه إليهما أحد، فوافق الحدّاد.

طلب الحدّادِ الذي فرح لموافقة المرأة، أن تدخل معه إلى بيته، وما ان دخلت البيت حتى بدأ جسمها يرتجف خوفاً ووجلاً، ثم التفتت إلى الحدّاد قائلةً : لماذا لم تفِ بالشرط؟

سألها الحدّاد بتعجّب : وهل تجدين في البيت أحداً سوانا؟

أجابت المرأة : نعم، إنّه اللّه (جلَّ جلاله) الذي ينظر ويرى. ثمَّ إنَّ هناك إلى جانب كلّ واحدٍ منّا مَلكين مقرّبين موكلين من قِبل اللّه (سبحانه) بإثبات ما نفعله في صحيفة أعمالنا. وذلك قوله (جلَّ وعلا) : «ما يلفظُ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيد»[1].

عندما أتمّت المرأة حديثها انطفأت شهوة الرجل تماماً، وبدأ جسده بالارتعاش، فندم على ما بدر منه، والتجأ إلى اللّه، فتاب وأناب.

في هذه اللحظة، وعندما رأت المرأة الصالحة ما بدر من الرجل، دعت له وقالت: طالما انطفأت شهوتك المحرّمة، أسأل اللّه أن يطفئ عنك لظى النار في الدنيا والآخرة.

تقول الحكاية في عاقبة الرجل الحدّاد، انّه كان يخرج أسياخ الحديد المحمية بالنار بيده دون أن يحترق أو يتأذّى.

إنَّ محل الشاهد في القصّة، هو الإشارة إلى دور المعرفة واليقين بالمبدأ والمعاد. إذ يتّضح بجلاء أنَّ أي عامل ليس بمقدوره أن يسيطر على الإنسان ويهيمن على غرائزه وشهواته وميوله كما يفعل ذلك عامل الإيمان واليقين باللّه واليوم الآخر.

---

(١) ق : ١٨ .

إشارة

نظراً لأهميّة «المعاد» ودوره، نرى الآيات المكيّة غالباً ما تتحدّث عن المعاد ويوم القيامة والجنّة والنار، لأنَّ المرحلة المكية استهدفت تحكيم قواعد الإسلام وترسيخ أُسسه. لقد كانت المسؤولية الكبرى على عاتق رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) في مكّة هي إرساء قواعد الإسلام، لذلك استعان (صلّى اللّه عليه وآله) بالمعاد من أجل تحقيق هذه الغاية، حيث نجد الآيات المكية تتحدّث عن ألوان العذاب في جهنّم ومشاهد القيامة الأخرى وتكشف عمّا يجري للإنسان في الصف والمحشر.

اكتساب حالة اليقين

أشرنا سابقاً إلى أنَّ العلم بالمعاد يُستحصل من خلال مطالعة الكتب الفلسفية والكلامية ودراستها، والاطّلاع على التفاسير والروايات. ولكن مجرّد «العلم» بالمعاد لا يعدّ عاملاً مؤثّراً في سلوك الإنسان، وإنّما الذي يؤثّر هو «التصديق» بالمعاد و«اليقين» باليوم الآخر، وبالجنّة والنار.

بيد أنّ المشكلة - التي سبق أن أشرنا إليها أيضاً - أنَّ حالة التصديق واليقين القلبي لا تُكتسب بالتعلّم والدرس، وإنّما الوسيلة الوحيدة لتحقيقها هي العمل. بمعنى أنَّ «اليقين» رهين بأداء الإنسان لصلاته في أوّل وقتها، مع حضور القلب والخشوع، واكتساب «اليقين» رهين بأداء الصوم الذي له أكبر الأثر في استحصال الحالة، وبالذات أداء «الصيام الخاص» أي الصوم عن كلّ ما يخالف رضا اللّه (سبحانه)، ففي الصيام الخاص تصوم جوارح الإنسان، أُذنه وعينه ولسانه؛ ويصوم قلبه وأخفى نقاط ضميره، وفي الصوم (الخاص) ينقطع الإنسان عن مشاهدة كلّ ما سوى اللّه، بحيث لا يرى غيره (جلّ وعلا) وهذه أعلى مراتب الصيام.

إنَّ صوماً كهذا هو الذي يعقبه «العيد». وحقيقة مثل هذا «العيد» هو وصول الصائم إلى مقام التوحيد في الأفعال، وإلى درجة المعرفة واليقين بالمعاد.

يقول (تعالى) في شأن الصيام : « يا أيها الذينَ آمنوا كُتِبَ عليكمُ الصيام كما كُتِبَ على الذين من قبلكُم لعلّكم تتّقون »[1].

بمعنى أنَّ الإنسان إذا وُفّق للصوم شهراً كاملاً بحيث تصوم جميع جوارحه وأعضائه، ويصوم قلبه وفكره ونيّته أيضاً، فسيحصل على مَلَكة الورع والامتناع عن الأعمال المحرّمة، وسيكون من بركة هذا الصيام و « عيد » الصائم بعده، حصوله على المعرفة ووصوله إلى درجة اليقين بالمعاد.

ومن الأمور التي تعين الإنسان في الوصول إلى درجة اليقين، هي قيامه في الليل وتهجّده ودعاؤه فيه[2]. بالإضافة إلى المواظبة على الأدعية المختلفة كدعاء الافتتاح ودعاء السحر المعروف بدعاء أبي حمزة الثمالي، والمناجاة الخمسة عشر، والزيارة الشعبانية ودعاء كميل والندبة وغيرها.

إنَّ المناجاة والتهجّد والدعاء بين يدي اللّـه (سبحانه) تمنح الإنسان نوراً في قلبه، وتجعله مستبصراً « موقناً ».

لذلك، كلّ رجائي إلى إخوتي، أن يبتعدوا عن الذنوب، ويسعوا لترسيخ حالة « اليقين » في قلوبهم، وأن يستحضروا دائماً الآية الكريمة : « وقل اعملوا فسيرى اللّـه عملَكُم ورسُولُهُ والمؤمنون . وستردُّون إلى عالم الغيبِ والشهادةِ فيُنبّئكُم بما كُنتُم تعملون »[3].

---

(١) البقرة : ١٨٣ .

(٢) في فضيلة قيام الليل والتهجّد فيه يمكن مُراجعة « رسالة لقاء اللّـه » الصفحات : ٧٤ - ٧٧، وكذلك : ٩٠ - ٩٥، ومن الأحاديث الواردة في هذه الرسالة ما روي عن رسول اللّـه (صلّى اللّـه عليه وآله) : « انَّ شرف المؤمن صلاته بالليل ». وما رواه ابن مسعود عنه (صلّى اللّـه عليه وآله): « حسب الرجل من الخيبة أن يبيت ليلةً لا يصلّي فيها ركعتين ولا يذكر اللّـه فيها حتّى يصبح » وكذلك قول الصادق (عليه السلام) : « إنَّ العبد إذا تخلّى بسيّده في جوف الليل المظلم وناجاه، أثبت اللّـه النور في قلبه ». [المترجم]

(٣) التوبة : ١٠٥.

علينا أن نتذكّر دائماً بأننا في محضر اللّه (سبحانه) وبين يدي رسوله (صلّى اللّه عليه وآله) والأئمّة الأطهار (عليهم السلام) ومن بينهم الإمام المهدي (عليه السلام)، لذلك علينا أن نراعي حُرمة حضورنا بين هؤلاء.

ومن أجل رعاية هذه الحرمة، أوصى علماء الأخلاق والسير والسلوك برعاية مجموعة من الأمور، وأمروا بـ «المشارطة» و«المراقبة» و«المحاسبة» و«المعاقبة والمعاتبة». وفي الفقرات التالية، نشير بشكلٍ إجمالي إلى معاني هذه «الحالات» ودلالاتها والمقصود منها:

أوّلاً : المشارطة

ينبغي للمؤمن بعد استيقاظه من نومه، وبعد ادائه للنوافل والفرائض، أن يجلس وحده و«يشارط» نفسه، بأن يذكّرها بالموت وبعقبات حياة ما بعد الموت، ويفكّر بيوم الحسرة والندامة، يوم ينقطع الإنسان بالموت عن عمله ودنياه، ويكون عُرضة لعذابات جهنّم وأهوال نيرانها ومقامعها، وهو المصير الذي يؤول إليه نتيجة أعماله السيّئة ومعاصيه.

وعليه أيضاً أن «يشارط» في هذا المقام جميع أعضاء بدنه، لا سيما عينه وأُذنه ولسانه، وان يتعاهدها بالخير ويحذّرها من المعاصي والذنوب، لكي يضع بذلك قدمه على بداية المسيرة الإلهية التي تقوده أشواطها لتحقيق سعادة الدنيا والنجاة في الآخرة.

ثانياً : المراقبة

إنَّ الركن الثاني من أركان الحركة التي ينتهجها الإنسان المؤمن نحو اللّه، هو «المراقبة». و«المراقبة» تعني انَّ الإنسان ينبغي أن يكون على يقين بانَّ اللّه (سبحانه) يُراقب أعماله وأفعاله وأقواله. «انَّ اللّه كان عليكم رقيباً».

فإذا أحرز الإنسان مثل هذا اليقين، وعرف يقيناً انَّ علم اللّه (سبحانه) يحيط بجميع عالم الوجود، وآمن بأنّه (سبحانه) مطّلع على نوايا الأفئدة وأسرار الضمائر

وما تكنّه وما يخفيه الإنســان ويضمـره في سـرّ السـرّ، فسيُراقب أعمالـه.ويتحكّـم بتصرّفاته.

وبصدد «المراقبة الإلهيّة» يُنقل انَّ أحدهـم سأل وليّـاً مـن أوليـاء اللّـه بقولـه : ماذا أفعل حتى أمتنع عن النظرة المحرّمة؟

فأجاب : «اعلم بأنّه قبـل أن يقـع نظـرك علـي الشـيء المحـرّم، أنَّ هنـاك عينـاً أُخرى تنظر إليك وتُراقبك».

ثالثاً : المحاسبة

إنَّ الذي يريد أن يكون قريباً إلى ربِّه، والـذي يرغـب بفـلاح الدنيـا والآخـرة، عليه أن يُبادر قبل النوم - بل في جميع الأوقات - إلى «محاسبة» نفسه، ومساءلتها عمّا بدر منهُ من أعمال وأقوال، وعليه أن يُراجع أعماله وما قام به يومياً[1].

وقد جاء في ذلك عن الإمام موسى بن جعفر (عليهما السلام) قولـه : «ليـس مِنا مَن لم يُحاسب نفسه في كلّ يوم»[2].

رابعاً : المعاتبة والمعاقبة

المقصود بـ «المعاتبة» أن يقوم الإنسان بعد محاسبة نفسه، وفيما إذا صـدر منـه ذنب، بتذكير النفس وعتابهـا عـن الـذي صـدر منهـا، وتذكيرهـا بـ «المشـارطة» الصباحية، ولومها وتبكيتها، لطغيانها ولتجاوزها للحدود الإلهية واهمالها لعهدها.

والإنسان في «المعاتبة» يسأل نفسه؛ لماذا فضحته أمـام اللّـه ورسـوله والأئمّـة

---

(١) جاء في الحديث النبوي المشـهور : « حاسـبوا أنفسـكم قبـل أن تُحاسَـبوا وَزِنُـوا قبـل أن توزنوا، وتجهّزوا للعرض الأكبر ». [المترجم].

(٢) في مسألة « محاسبة النفس » وشؤون ذلك، يمكن مراجعة رسالة « محاسبة النفس » للعـالم الجليل السيِّد علي بن طاووس، الذي تشتهر كتبه في الدعاء والتربية، ويتميّز بمنهج خاص في المعرفة والسلوك. [المترجم].

(صلوات اللّـه عليهم أجمعين) ولماذا جعلت وجهَةُ مسودّاً أمامهم؟[1]

و« المعاتبة » هي أن يسأل الإنسان نفسه ويقرعها : لماذا جعلت « نكتة »[2]. سوداء تستقرّ في قلبي؟

والإنسان يعاتب نفسه ويقرعها بقوله : اني لا أطيق عذاب جهنّم، والأسوأ، اني لا أتحمّل موقف الخجل أمام ربّ العالمين؛ فلماذا تعرّضيني لكل ذلك؟

وهكذا ينبغي للإنسان المؤمن أن يستمر بـ « المعاتبة » ولوم نفسه وتقريعها حتى تزول آثار المعصية.

أمّا « المعاقبة » فهي مرحلة بعد « المعاتبة ». ويأتي دورها عندما لا تنفع « المعاتبة » ولا تؤثّر في إرجاع النفس وردعها عن الذنب.

وفي « المعاقبة » يُحدِّد الإنسان لنفسه عقوبة على كل ذنب يذنبه. فإذا بدرت منه « الغيبة » يقرِّر فيما بينه وبين نفسه أن يمتنع عن الكلام في أي شيء لعدّة أيّام، إلاّ ما كان منه ضروريّاً. وإذا مالت نفسه للشراهة في الأكل وعبادة الطعام، يقرِّر الصيام عدّة أيّام، وهكذا.

أخيراً، كُلّي أمل أن تقودنا المواظبة على الأعمال ومراعاة شروط « الحالات » الآنفة إلى الخير والنور، وان تُفتح عوالم الملكوت فتفيض بعطاياها على قلوبنا، حتى تُضيء نفوسنا، وتنبض بإشراقات النور الإلهي.

---

(١) تستفيض الأخبار في انّ أعمال الأمّة تعرض على النبي (صلّى اللّـه عليه وآله) في كل اثنين وخميس فيعرفها، وكذلك تُعرض على الأئمّة (عليهم السلام) القائمين مقامه، وهم المعنيون بقوله : « والمؤمنون » في قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى اللّـه عملكُم ورسوله والمؤمنون »، رسالة محاسبة النفس، السيّد ابن طاووس، ص١٧. [المترجم].

(٢) يشير المؤلّف بكلمة « النكتة » إلى المفهوم الذي تتحدّث عنه الروايات على هذا الصعيد، ومنها، كما في الكافي، قول الإمام الصادق (عليه السلام): « إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب انمحت، وإن زاد زادت حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً » الكافي، ج٢، كتاب الإيمان وا لكفر، ص٢٧١. [المترجم].

الفصل الثالث

الموت انتقال من دار إلى دار

لا يعدّ الموت فناءً وعدماً من وجهة نظر القرآن وروايات أهل البيت والفلاسفة الإلهيين، وانّما هو انتقالٌ من نشأة إلى نشأة[1].

فكما انّ الإنسان يفتح عينه على هذه الدنيا من خلال «الولادة»، فكذلك يسمّى حال مغادرته لها بـ «الموت». ومن هذه الزاوية بالذات، ليس ثمّة فرق بين «الولادة» و«الموت»، إذ انّ كليهما انتقال من مرحلة ناقصة إلى مرحلة أكثر كمالاً. وهذا الانتقال والتحوّل (السير التكاملي) يعمّ جميع الموجودات، ويتجلّى فيها جميعاً، بما في ذلك الإنسان[2].

(١) جاء في الحديث الشريف: «ما خُلقتم للفناء، بل خُلقتم للبقاء، وانّما تُنقلون من دار إلى دار» البحار، ج٦، ص٢٤٩. [المترجم].

(٢) يشير الشيخ الرئيس في «الشفاء» إلى حقيقة حركة الانتقال والتحوّل الدائم في حياة الإنسان، حينما يذكر بأننا لا نستطيع رؤية الإنسان أكثر من مرّة واحدة، لانّ الإنسان الذي ننظر إليه في المرّة الثانية، هو غير إنسان النظرة الأولى، حيث يكون قد انتقل إلى مرتبة أخرى.

والشيخ الرئيس المشهور بابن سينا هو من كبار حكماء الإسلام، حفظ القرآن في العاشرة، وبرع منذ صغره بالمنطق والهندسة والنجوم، ثم درس العلوم الطبيعية والطب وعلوم ما بعد الطبيعة. من أشهر مؤلّفاته «الشفاء» في المنطق والطبيعيات والالهيات، و«القانون» في الطب وغيرها.

والذي نستفيده من القرآن الكريم والأحاديث والروايات الشريفة، انَّ الإنسان لا يعدم بالموت، وان الموت لا يعدّ فناءً، بل هو انتقال من عالم إلى عالم ومن نشأةٍ إلى أخرى، وحياة الإنسان تستمرّ بالتكامل من خلال هذا الانتقال؛ بمعنى انَّ الإنسان يبقى على تماميته ولا ينقص منه شيء بالانتقال، بل تنقله حركة الموت إلى مرتبة أعلى من مراتب التكامل والرقي.

الموت ولادة

انَّ مثل الموت للإنسان مثلُ الولادة بالنسبة للطفل. فالدنيا بتمام سعتها وجمالها وحسنها هي بالقياس للآخرة كبطن الأمّ بالنسبة إلى الدنيا. ولكن المشكلة انَّ الطفل لا يعي حقيقة العالم الخارجي الذي يقع خارج عالمه (بطن الأمّ) إلى أن يُولد ويغادر ظلماته الثلاث. وهكذا بالنسبة للإنسان الذي يبقى في الأغلب غريباً على عالم الآخرة، إلى أن تأزف ساعة الرحيل ويكون على مشارف الموت.

يقول (تعالى) في تبيان أفق من آفاق الحياة الأخروية : «وسارِعُوا إلى مغفرةٍ من ربِّكُم وجنّةٍ عَرضُها السموات والأرض أُعدّت للمتّقين»[1].

ولكن هل يصدّق الإنسان فعلاً انَّ الغذاء الذي يتناوله في هذه الدنيا، هو رغم لذّته بمثابة الدم القذر بالقياس إلى طعام المتّقين في الآخرة؟

ليس بوسع الإنسان أن يصدّق ذلك حقّاً، ولكن بمقدوره أن يعود مجدّداً إلى مثال الطفل، فعلى صعيد قضية الأكل نرى الفارق بين غذاء الطفل الذي يعيش في بطن أمّه على الدم، وبين الإنسان الذي يعيش في الدنيا على اللذائذ والطيّبات.

انّه من غير الميسّر للانسان أن يُدرك حقيقة الآخرة والجنّة والنار، ومثله في ذلك مثل الطفل في بطن أمّه عندما نحدّثه عن العالم الخارجي، بما يزخر به من نجوم ومجرّات وشموس وأقمار وجبال وغابات وشلالات تنبض بالحركة وتمنح الحياة.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يصل إليه الإنسان هو تصوّره لملامح عن العالم

---

(١) آل عمران : ١٣٣ .

الآخر؛ ذلك انَّ حقيقة الآخرة شيء عجيب يبعث على الدهشة والذهول، فليس الشمس هناك كشمسنا، وليس الفضاء كفضائنا، وليس الأطعمة والأشربة كالتي نأكلها ونشربها في حياتنا الدنيا. انَّ عالم الآخرة هو عالم «الحَيَوان» وفيه يحيا الإنسان حياة الأبد والخلود.

لذائذ الجنّة

يذكر أحد كبار العلماء عن استاذه، انَّ حواس الإنسان تلتذ جميعاً في الجنّة، عندما يتناول أي لذّة من لذائذها. وتوضيح ذلك : انَّ الإنسان لو تناول جرعة من الماء، فإنَّ هذه الجرعة تبعث اللّذة في جميع حواسّه، حيث تدرك اذنه اللّذة التي تكون من صنف حاستها، كالاستمتاع بأنواع الموسيقى والنغمات الشجية. وتلتذّ العين برؤية الصور الجميلة والألوان الزاهية والأشكال المتنوّعة[1].

وكذا الحال بالنسبة للحواس الأخرى، حيث تستمتع باللذائذ أيضاً.

انّ عالم الآخرة هو عالم «جمع الجموع»[2].

يقول تعالى : «فلا تعلم نفسٌ ما أُخفي لهم من قرّة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون»[3].

---

(١) لمن يعسر عليه هضم بعض المسائل في عوالم الآخرة ونعيمها، عليه أن يعود إلى القاعدة الواردة في الحديث الشريف : «كلّ شيء من الدنيا سماعه أعظم من عيانه، وكلّ شيء من الآخرة عيانه أعظم من سماعه». ويكفي في التشويق إلى لذائذ الجنّة قول المصطفى (صلّى اللّه عليه وآله) : «لو انَّ ثوباً من ثياب أهل الجنّة أُلقي إلى أهل الدنيا لم يحتمله أبصارهم ولماتوا من شهوة النظر إليه». تسلية الفؤاد، السيّد عبداللّه شبّر، ص٢٢٠، وسيعاود المؤلّف الحديث عن لذائذ الجنّة في الفصول القادمة. [المترجم].

(٢) أي انَّ لجميع أجزاء وجوارح الإنسان حكماً واحداً في القيامة. فإذا التذّت جارحة بنعمةٍ معيّنة من نِعَم الآخرة، التذّت معها بقيّة الجوارح.

(٣) السجدة : ١٧، جاء في الخبر عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) في تفسير الآية الكريمة: «وانَّ في الجنّة لنهراً حافتاه الجواري... إلى أن قال (صلّى اللّه عليه وآله): «فيرفع (المؤمن) رأسه فإذا هو بزوجةٍ قد كادت يذهب نورها نور عينه، قال : فتناديه قد

الموت تكامل

يبدأ الإنسان «نطفة» في بطن أمّه، ثم ينتقل إلى مرحلةٍ أكثر رقيّاً فيتحوَّل إلى «علقة»، ومن «العلقة» يتبدّل إلى «مُضغة» من دون أن يفقد أيّ شيء، بل يرتقي إلى مرتبة أكمل. وبعد ذلك يستمرّ تكوين الجنين في بطن الأمّ من خلال طيِّه للمراحل التي تقوده نحو الاكتمال حتى يخرج بـ«الولادة» انساناً كاملاً سويّاً. والإنسان لا يفقد شيئاً بالولادة، وانّما يكون فيها قد قطع شوطاً باتجاه تكامله.

وكذلك يقال بالنسبة للموت، فالإنسان الذي يمضي من هذه النشأة إلى النشأة الأخرى، لا يفقد شيئاً، ولا ينتقَص منه، وانّما يسرع به «الموت» إلى مشارف حياة الخلد والأبدية، وبهذا المعنى يعتبر «الموت» مرحلة على طريق تكامل الإنسان وسيره التصاعدي نحو الخلود.

عالم الخلود

يعيش الجنين في بطن امّه ولَهُ عين وأذن ويد ورجل وما سوى ذلك، إلاّ انّهُ لا يتعامل معها هناك ولا يستفيد منها. والذي نستفيده من هذا المثال، انَّ الجنين المزوَّد بكل تلك الأعضاء والجوارح، مخلوق لغير عالمه، وانَّهُ لن يمكث أبداً في بطن أمّه، وانّما سيغادرها إلى عالم آخر خُلقت من أجله الآذان والأعين والأيدي

آن لنا أن تكون لنا منك دولة، فيقول (المؤمن) لها : ومَن أنت؟ فتقول : أنا ممّن ذكر اللّه في القرآن «لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد» فيجامعها في قوّة مائة شاب ويعانقها سبعين سنة من أعمار الأوّلين... إلى أن قال (صلّى اللّه عليه وآله) : «ثم تشرف عليه أخرى أحسن وجهاً وأطيب ريحاً من الأولى، فتناديه : قد آن لنا أن تكون لنا منك دولة، فيقول لها: ومَن أنتِ؟ فتقول : أنا ممّن ذكر اللّه في القرآن «فلا تعلم ما أُخفي لهم من قرّة أعين جزاءً بما كانوا يعملون». يلاحظ الخبر بطوله في الاختصاص، ص٣٤٥ - ٣٥٦. [المترجم].

والأرجل التي سيستفيد منها جميعاً في حياته الجديدة.

وبعد ذلك نستطيع تطوير المثال لنجد انّ الطفل الذي يستوي عوده بعد الولادة فيبلغ مرحلة النضج والرشد، أُودعت فيه أشياء من المتيقن انّها لم تُخلق لهذا العالم، ومن جُملة ذلك ميله الفطري نحو حياةٍ أبديةٍ خالدة.

من هذه الزاوية بالذات نجد انَّ من يعتقد بأنَّ الموت فناء وعدم، يخاف الموت ويستوحشه، وذلك بعكس من يتطلّع إلى الحياة الخالدة بعد الموت، ويعتبر الموت مجرّد جسر إلى الحياة الأخرى.

ومن بين ما يوجد في الإنسان ممّا لم يخلق لحياته الدنيا، هو تطلّعه الدائم نحو لذّةٍ من دون أن يرافقها ألم، وشراب لا تقارنه غصّة.

والشيء الأكيد انَّ الحياة الدنيا لا تحتمل الجمع بين طرفي الامنية. فالحياة الدنيا تحفل بالتداخلات والاختلافات، ولن يكون بمقدور الإنسان أن يحيا فيها حياةً اجتماعية متكافلة من دون أن يضحي ببعض رغباته ويحول دون الكثير من ميوله.

نرى على سبيل المثال، انَّ الإنسان في سعيه نحو تشكيل الأسرة وانجاب الأطفال يحقّق لنفسه ضرباً من اللّذة والاستقرار، ولكن ثمّة وجه آخر لهذه الحقيقة، يتمثّل بألوان الصعوبات التي يتكبّدها، والمشاكل التي يعاني منها، حتى ذهب علماء النفس إلى انَّ تربية طفل واحد تربية سليمة صحيحة تكلّف الوالدين زهرة شبابهما. إذن ليس في الحياة الدنيا أمن واستقرار مطلقاً، ولا ينعم فيها الإنسان بالصحّة والسلامة الكاملة، فلذّتها قرينة الألم، وهي منقطعة ليست دائمة.

نتبيّن من ذلك انَّ قوى الإنسان وميوله وغرائزه لا تنحصر جميعها ولا تحدّ في هذه الدنيا، وانَّ استعدادات الإنسان لا تتحوّل بتمامها في هذه الدنيا، من مرحلة القوّة إلى مرحلة الفعل؛ وبالتالي نصل إلى حقيقة وجود عالم آخر (بالضرورة)، أبدي وخالد لا تقترن لذّته بالألم ولا شرابه بالغصّة[1].

---

(١) للارتباط بالدنيا انعكاسات خطيرة على حياة الإنسان ومصيره، فقد جاء في الحديث الشريف: « مَن تعلّق قلبه بالدنيا تعلّق منها بثلاث خصال : همّ لا يفنى، وأمل لا يدرك، ورجاء لا ينال ». الخصال، ج١، ص٨٨ . [المترجم].

أي لابدَّ أن يكون ثمّة عالم آخر تكون الحياة فيه كاملة ومطلقة.

أسباب الخوف من الموت

ثمّة ثلاث علل أساسية تكمن وراء خوف الإنسان من الموت، يمكن أن نشير إليها كما يلي:

أ : الجهل

فعندما يجهل الإنسان حقيقة الموت ويعتبره فناءً وعدماً، فسيخافه ويخشاه. امّا عندما يعي حقيقة الموت كما هي، ويصل في ذلك الى درجة اليقين، فانَّ خوفه سيهدأ ويقلّ، وينظر إلى الموت على انّه كمال.

لذلك نجد الإمام أمير المؤمنين عليّاً (عليه السلام) قد أدرك حقيقة الموت بشكلٍ كامل، يقول: «واللّه لابن أبي طالب آنس بالموت من الطفل بثدي أمّه»[(١)].

وعن علاقة المؤمنين المتّقين بالموت يقول (عليه السلام) : «لولا الأجل الذي كتب اللّه عليهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين شوقاً إلى الثواب وخوفاً من العقاب»[(٢)].

ب : الارتباط بالدنيا

وينشأ الخوف من الموت أحياناً من ارتباط الإنسان بالدنيا وتعلّقه بها، بحيث يكون جسده واحتياجاته الماديّة هو غاية همّه ومنتهى جهده.

مثل هذا الإنسان يخشى الموت لأنّهُ مندمج بحياته الدنيا غاطس بملذّات عالم

---

(١) نهج البلاغة، ص٥٧ .

(٢) نهج البلاغة، ص٦١٢. وبالنسبة إلى هذه النقطة بالذات، أي خوف الإنسان من الموت لجهله وسرور المؤمن لمعرفته، جاء في الخبر، انَّ الإمام الحسن، سُئِلَ : ما الموت الذي جهلوه؟ قال (عليه السلام) : «أعظم سرور يرد على المؤمنين إذا نقلوا عن دار النكد إلى نعيم الأبد، وأعظم ثبور يرد على الكافرين إذا نقلوا عن جنّتهم إلى نار لا تبيد ولا تنفد» البحار، ج٦، ص١٥٤. [المترجم].

المادة والطبيعة، فهو غريب على العالم الجديد الذي ينتقل إليه بعد الموت، يجهله ولا يعرفه. لقد جعل الحياة الدنيا منزله الحقيقي، فأخلد إلى الأرض وتطبّع بطباع الدنيا وتعلّق بها أشدّ التعلّق[1].

لذلك تجد مثل هذا الإنسان ينقلب إلى حالةٍ سيّئة عند احتضاره وقرب وفاته، وسيكون حاله كما يحكي عنه القرآن الكريم: «ولو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلَدَ إلى الأرض واتّبعَ هواهُ فمَثَلُه كمثل الكلب»[2]، امّا إذا أحكم الإنسان علاقته وهو في هذه الدنيا، بعالم الآخرة، وأحبَّ لقاء اللّه وملائكته، واشتاق إلى رضوانه، وتمسّك بولاية أهل بيت رسول اللّه (صلوات للّه عليهم أجمعين)، و لم يجعل الدنيا أكبر همّه، فسيغلبه الشوق إلى العالم الآخر، ويتمنّى الانتقال إلى الرضوان ودار السلام ليلقى الأحبة[3].

وعند ذلك لن يخاف الموت، بل سيكون إليه أحلى من العسل[4].

وممّا يُنسب للإمام علي (عليه السلام) في راحة النفس الصابرة بعد الموت:

---

(١) قامَ رجل إلى الإمام الحسن (عليه السلام) فسأله: يا ابن رسول اللّه ما بالنا نكره الموت ولا نحبّه؟ فقال: انّكم أخربتم آخرتكم وعمّرتم دنياكم، فأنتم تكرهون النقلة من العمران إلى الخراب» بحار الأنوار، ج٦، ص١٢٩. وورد في الحديث أيضاً انَّ: «الدنيا جنة الكافر، والقبر سجنه، والنار مأواه» نفس المصدر، ص١٦٩. [المترجم]

(٢) الأعراف: ١٧٦.

(٣) جاء في الحديث الشريف عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): «مَن أحبَّ لقاء اللّه، أحبَّ اللّه لقاءه، ومَن كره لقاء اللّه كره اللّه لقاءه».

(٤) انّما يكون الموت بهذه الصفة للمؤمن لأنّهُ يستريح من الدنيا ويكون على مشارف النعيم الأبدي، لذلك جاء في الخبر: قيل للإمام الصادق(عليه السلام): صف لنا الموت، قال: «للمؤمن كأطيب ريحٍ يشمّه فينعس لطيبه، وينقطع التعب والألم كلّه عنه». وعن الإمام السجّاد عندما سُئل: ما الموت؟ قال (عليه السلام): «للمؤمن كنزع ثياب وسخة قملة، وفك قيود وأغلال ثقيلة، والاستبدال بأفخر الثياب وأطيبها روائح، وأوطأ المراكب، وآنس المنازل» البحار، ج٦، ص١٥٢، ١٥٥. [المترجم].

إنّي أقول لنفسي وهي ضيقة وقد أناخ عليها الدهرُ بالعجبِ
صبراً على شدّة الأيّام إنّ لها عقبى، وما الصبر إلاّ عند ذي الحسبِ
سيفتح اللّـه عن قربٍ بنافعةٍ فيها لمثلك راحات من التعبِ
وقيل في مُنقلب النفس المطمئنة:
للّهِ نفسُ امرئٍ موفقة آوت إلى ربّها فآواها
شرَّفها ربّها وأكرمها ومن مياه اليقين أرواها
سَمَتْ إليه بحسن فكرتها ثم صفا ودّها فأصفاها
تلك التي دعت لحاجتها أجابها مسرعاً ولبّاها[1].

لذلك كلّه كان استاذنا الجليل الإمام الخميني يوصينا دائماً أن نقطع دابر حبّ الدنيا من أنفسنا، وان نبتعد عن حبّ المال والرئاسة واغراءات الدنيا الأخرى، وإلاّ فإذا جاءت ساعتنا ونزل بنا الموت، وقلوبنا مشدودة إلى هـذه الدنيـا، فسيحلّ بنا شديداً صعباً مهولاً.

لقدجاء في الحديث الشريف:«انَّ أخوف ما أخاف عليكم اثنان : اتّباع الهوى وطول الأمل. فأمّا اتّباع الهوى فيصدّ عن الحق، وأمّا طول الأمل فينسي الآخرة».

ج : عدم تهيئة زاد المعاد

السبب الثالث الذي يدفع الإنسان للخوف من الموت، هـو عـدم تهيئتـه لمتـاع الآخرة وزاد المعاد، فيخشى السفر إلى عالم ما بعد الموت، حيث لم يتزوّد بالعمل الصالح الذي يُعوّل عليه في نجاته وخلاصه.

يقول تعالى : «قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتُم أنّكم أولياء للّهِ من دون الناس فتمنّوا الموت إن كُنتم صادقين. ولا يتمنّونَهُ أبداً بما قدَّمتْ أيديهم واللّه عليمٌ بالظالمين»[2].

---

(١) ذكر المؤلّف أبيات من الشعر الفارسي، فلم نترجمها بـل استبدلناها بما يـودي المعنى من الشعر العربي. [المترجم].

(٢) الجمعة : ٦ - ٧.

الفصل الرابع

إثبات عقيدة المعاد

يعتقد كل من يقرّ بوجود اللّه (سبحانه) بالمعاد، إذ لا يمكن - فيما يبدو - ان نجد إنساناً يؤمن بالمبدأ وينكر المعاد.

وبشأن إثبات أصل المعاد فقد جاؤوا بأدلّة كثيرة. ولكن لمّا كان بحثنا يـدور في إطار الرؤية القرآنية، فسنشير إلى أدلّة القرآن في إثبات المسألة فقط.

الفطرة

في طليعة الأدلّة التي نوردها لإثبات يوم الجزاء، هو دليل الفطـرة. وطبيعـة هـذا الدليل تقتضي أن يصل الإنسان بنفسه للاعتقاد بـ «المبدأ» والإيمان بـ «المعـاد» إذا تخلّى عن الاصطلاحات والخرافات وكل ما يعكر صفـو المعرفـة النفسـية الأصيلـة. ومعنى ذلك انَّ الإنسان سيصل إلى حقيقة الاعتقاد باليوم الآخـر، إذا ظلّـت نفسـه نقيّة صافية بعيدة عن التأثيرات الفكرية المكتسبة.

تعني الفطرة الابتداء وتدلّ على ما هو ذاتي، وذلك في مقابل العلم الـذي يعـني المعرفة.

ولتوضيح الفارق بمثال نقول : اننا نعلم بوجود الشخص الـذي يجلـس أمامنـا، وعلمنا بوجوده هو من نوع «العلم بالعرض» لا «العلم بـالذات»، أي ان علمنـا انعكاس لما في ذهننا؛ وما في ذهننا انعكاس للواقع الخارجي الذي أمامنا.

أمّا حينما نحس بالعطش فانَّ الحالة تُعبّر عن نوع من الحصول الذاتي الداخلي. يقول القرآن الكريم حول مسألة «المبدأ» : «فإذا ركبوا في الفلك دعَوا اللّه مخلصين له الدين . فلمّا نجّاهم إلى البرِّ إذا هُم يُشرِكون»[1].

وهذه الآية الكريمة تكشف عن معنى عودة الإنسان إلى فطرته. فإذا ركب البحر وهبّت عاصفة عنيفة، بحيث أخذت الأمواج المتلاطمة تهدّد بابتلاعه وسحبه إلى قعر البحر، والقذف به بين لجحه، فإنَّ الإنسان في مثل هذه الحالة، وحينما يفتقد كل وسائل النجاة، يبدأ بالتعلّق باللّه، ويعود إلى فطرته وما جُبل عليه، إذ يستيقن أنْ لا مُنجي له من المهلكة سوى اللّه.

والإيمان بـ «المبدأ» في هذه الحالة يُشبه الاحساس بالعطش؛ أي انّهُ فطري، ولكن مشكلة الإنسان انّهُ ما ان يصل إلى ساحل الأمن والنجاة حتى ينسلخ من حالته هذه، ويدع فطرته التي آبت في لحظة الاحساس بالخطر، ويكون عرضةً للنسيان، حيث يعود إلى شركه وما كان عليه.

امّا إذا كان الإنسان سليم النفس، فان فطرته ستبقى يقظة دائماً، وسترافقه وتهديه إلى الإيمان بالمبدأ والمعاد، وحينها سيكون مصداقاً لقوله (تعالى) : «لا تُلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذكر اللّه»[2].

انَّ نور الفطرة في إنسان كهذا يبقى مشعّاً دوماً، فيضيء داخله فيرى ربّه بعين البصيرة القلبية المنوّرة بالفطرة؛ يراه حاضراً وموجوداً في كل شيء، بل يراه حضوراً دائماً.

هذه الحالة يُعبِّر عنها الإمام الحسين في دعائه يوم عرفة، بقوله (عليه السلام) : «متى غبتَ حتّى تحتاج إلى دليلٍ يدل عليك، ومتى بَعُدْت حتى تكون الآثار هي التي توصل إليك، عَمِيَتْ عينٌ لا تراك»[3].

---

(١) العنكبوت : ٦٥.

(٢) النور : ٣٧.

(٣) مفاتيح الجنان ص ٢٧٢.

وبهذا يتّضح انَّ الإنسان يعتقد فطريّاً بـ «المبدأ» و«المعاد» بيد انّه من أجل أن يمكث قليلاً في الحياة الدنيا، ويعيش لحياته وملذّاته الخاصّة، نراه يُلوّث فطرته حتى تعمى بصيرته القلبية، فينكر «المعاد» لكي يريح نفسه من تأنيب الضمير وعذاب الوجدان، ويستعذب الدنيا وشهواتها!

هدفية الخلق

يتمثّل الدليل الثاني لإثبات المعاد، بوجود الغاية من خلق الوجود (وبضمنه الإنسان)، ولازم ذلك أن يكون وجود العالم عبثاً من دون المعاد؛ تماماً كما نرى في عالم الأطفال حينما يُبادر الطفل لصرف ساعات طويلة من وقته، يبذل فيها الجهود الكبيرة لبناء بيت صغير من الخشب أو الطين، ثم يقوم في نهاية المطاف، وبعد أن يتمّ تشييد البيت واتمامه؛ يقوم بتخريبه وتهديمه برفسةٍ من رجله، لتضيع بهذه الرفسة جهود يومه عبثاً!

وربّما كانت المقارنة بين المشهدين غير دقيقة، ذلك ان الطفل الذي يرفس برجله البيت الذي صرف في بنائه ساعات طويلة من الجهد والاعتناء، انّما يفعل ذلك بهدف اللعب، وبذلك نجد انَّ عمل الطفل وان كان عبثياً بظاهره إلاّ انّهُ يستهدف تحقيق غاية، وهي اللعب. امّا إذا افترضنا عدم وجود «المعاد» فانَّ الصورة ستبدو أسوأ، إذ سيظهر عالم الوجود وكأنّهُ مخلوق عبثاً وباطلاً من دون أن يكون ثمّة هدف لوجوده، أو غاية يسعى لتحقيقها.

لذلك تفضي الغاية المفترضة لوجود هذا العالم بضرورة المعاد واليوم الآخر لكي تنتفي العبثية ولا يكون الهدف من الخلق عبثاً وباطلاً.

ثم انّ عالم الوجود برمّته يحكي حقيقة أنَّ وراء هذا العالم مدبّراً حكيماً، وهذه الحقيقة شاخصة للجميع، واضحة للعيان. وإلاّ فكيف نصدّق انَّ الإنسان المخلوق من نطفة، المخلوقة بدورها من تراب، يعيش حياته بكل ما يُرافقها من مشقّة

وأذىً وألم، من دون أن تكون لوجوده غاية، ولحياته هدف وعاقبة ينقلب إليها؟ وكيف نتعقّل أنّ كل شيء ينتهي بالموت ومع الموت بحيث تبدو كل أشواط الحياة بدون ممرٍ وغاية؟ وإذا لم يكن ثمّة «معاد وجزاء» فكيف ومَن ينتصف للمظلوم من الظالم؛ وكيف نستطيع أصلاً أن نوجّه فلسفة الخلق والوجود والغاية منهما؟

يعبّر القرآن الكريم عن هذه الحقيقة بقوله (تعالى) : «أَفَحَسِبتُم أنّما خلقناكُم عبثاً وأنّكم إلينا لا تُرجعون»[1].

وكذلك قوله تعالى : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنّ الذين كفروا فويلٌ للذين كفروا من النار»[2].

والآية واضحة في انّ مَن لا يتصوّر انّ للخلق هدفاً وغاية ومآلاً، هو الكافر الذي لا يعتقد بـ «المبدأ»، وإلاّ فلو كان مؤمناً بـ «المبدأ» لاعتقد بالمعاد حتماً وضرورة[3].

ويؤكّد القرآن الكريم في آيات أخرى، انه لو لم يكن مآل الخلق إلى المعاد واليوم الآخر؛ وانّه لو لم يكن مُنتهى كلّ شيء في مسيرة عالم الوجود إلى اللّه (سبحانه)[4]، لـلَزم أن يكون الخلق عبثاً؛ ولـمّا كان العبث والباطل مستحيلي الصدور عن اللّه (سبحانه) لأنّه خالق العقل، ولا يصدر منه (سبحانه) غير المعقول، لذلك وجب ان يكون «المعاد» لكي لا يكون الوجود عبثاً وباطلاً[5].

---

(١) المؤمنون : ١١٥.

(٢) ص : ٢٧ .

(٣) ذلك انّ الأوّل ذاتاً هو الآخر ذاتاً، يقول (تعالى) : «هو الأوّل والآخر»، الحديد : ٣. [المترجم].

(٤) يقول (تعالى) : «إنّ إلى ربّك الرُّجعى» (العلق : ٨) «وانّ إلى ربّك المنتهى» النجم: ٤٢ . [المترجم].

(٥) يقول (تعالى) في نفي العبث عن الخلق : «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين». الدخان : ٣٨ . ويقول (سبحانه) في إثبات الغاية : «وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلاّ بالحقّ»، الحجر : ٨٥ . [المترجم].

العدالة، هي الدليل الثالث من أدلّة إثبات المعاد.

انَّ مقتضى عدل اللّـه (سبحانه) أن يكون للناس يومٌ يجتمعون فيه، فيجزى كلَّ ذي عملٍ بعمله. ويلزم من انكار ذلك تصوّر صدور الظلم منـه (سبحانه)، أي انَّ مَن ينكر المعاد والحساب والجزاء يكون كمن يقول بصدور الظلم عنه (سبحانه).

وبذلك لا يتسق القول بعدم وجود المعاد مع القول بالعدل الإلهي. ثـم انّـه مـع انكار المعاد يبقى الإنسان في حيرة مـن هـذه الأسئلة؛ إذ مَـن يـا تـرى يقتـصّ مـن الحكّام الظلمة الذين يهرقون دماء الأبريـاء بـالألوف، وينتهكـون أعـراض النسـاء، ويهدرون وينهبون ثروات المسلمين وما حباهم اللّـه به من خيرات؟ ومَـن يُذيقهـم وبـال مـا كسبت أيديهـم؟ وهـل يمكـن الاقتصـاص مـن هـؤلاء في الحيـاة الدنيـا وحسب؟ وإذا حُكِمَ على هؤلاء في الدنيا بالاعدام والموت - ولو مئات المـرّات - قصاصاً لما جنت أيديهم، فهل يُكافئ ذلك دماء الأبرياء وظُلاماتهم وآلامهم؟

اذن، لا سبيل في الاقتصاص الحق من الظالمين، والانتصاف للمظلومـين، سـوى وجود «المعاد»[1].

ثم لما كان مقتضـى العـدل الالهـي مجـازاة الإنسـان بدقّـة، خـيراً فعـل أم شـرّاً، فسيكون تحقّق العدل الإلهي غيرَ متيسّر إلاّ بوجود المعاد ويوم الجزاء[2].

يقول تعالى : «يومئذٍ يصدرُ الناس أشتاتاً ليُرَوْا أعمالَهم . فمن يعملْ مثقال ذرّةٍ خيراً يَرَه . ومَن يعمل مثقال ذرّةٍ شرّاً يرَه»[3].

---

(١) ويوم المعاد كما يصفه الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : «وذلـك يـومٌ يجمعُ اللّـه فيـه الأوّلين والآخرين لنقاش الحساب وجزاء الأعمال» نهج البلاغة ، خطبة ١٠٢. [المترجم].

(٢) قد يتصوّر البعض إمكان مجازاة الإنسان خيراً فعل أم شرّاً، في الدنيا، ولكن فضلاً عن عدم تيسّر ذلك، فإنّ الإمام علي (عليه السلام) يقول في الدنيا : «انَّ اللّـه تعالى لم يرضَها ثوابـاً لأوليائه ولا عِقاباً لأعدائه» النهج، الكلمات القصار، ٤١٥. [المترجم]

(٣) الزلزلة : ٦ - ٨ .

وبمقتضى الآيات الكريمة، فإن عدم مجازاة الإنسان يوم القيامة على ذرّة من أعمال الخير أو الشرّ التي يقوم بها سيعدّ مغايراً للعدالة الإلهية.

إذن وجود المعاد ضروري وحتمي، وهو «واجب» على اللّه سبحانه. ومن الواضح انَّ «الوجوب» المعنيّ هنا ليس من سنخ «الواجب» الملقى على عاتق الإنسان، وانّما هو من نوع وجوب النور ولزوم الضياء للشمس. إذ من البديهي انَّ اشراق أنوار الشمس هو جزء ملازم لها ولا ينفك عنها، وإلاّ فإن الشمس التي لا تشرق بالنور والضياء ستفقد خاصّيتها ولا تُعتبر شمساً. وبهذا المعنى، يكون «العدل» و«المعاد» الذي يستتبعه من لوازم وضرورات وجود البارئ.

وإذا أردنا أن ننتقل في معالجة هذا البُعد إلى زاوية أخرى، فسنجد انَّ المجاهد في سبيل اللّه، الذي ترك لذّات الدنيا وشهواتها ليقاتل العدو، لا يمكن أن يستوي - في حساب العدل الإلهي - مع القاعد، بل هو أعلى منه درجة في الدنيا وفي الآخرة. فالمجاهد يعيش في الدنيا وقرينه النور وصفاء القلب، مكلّل بالعطايا والمواهب المعنوية. أمّا في الآخرة، فسينال السعادة الأبدية وينزل في الجنّة برفقة الأنبياء والصديقين والأولياء.

وسؤالي؛ ما هو وجه العدالة في مكافأة من لا يحمل همّ الإيمان، ولا يهتم بصراع الإسلام والكفر، ومجازاته بمجازاة المجاهد؟[1]

لذلك جاء الخطاب الإلهي يميّز بين الاثنين، وهو يزف البشرى لمن يُدافع عن حريم الاسلام ومقدّساته، وينافح عن قيم الإنسانية، ويعيش الحياة جهاداً وحماساً ليصنع مآثر الخُلد، إذ يقول (سبحانه) فيه : «يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضيةً مرضيّةً. فادخلي في عبادي. وادخلي جنّتي»[2].

---

(١) يقول (سبحانه) في الفرق بين الاثنين : «أم حسِبَ الذين اجترحوا السيّئات أن نجعلَهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواءً محياهم ومماتُهم، ساء ما يحكمون» الجاثية : ٢٠. [المترجم].

(٢) الفجر : ٢٧ - ٣٠.

الدليل الرابع - من أدلّة القرآن - لإثبات المعاد، هو قانون التكامل. وقد عبَّر القرآن عن هذا القانون من خلال بيانه لمراحل تكوين الإنسان ونشأته، فأصل الإنسان من تراب، ثم يمرّ بمرحلة النطفة التي تتبدّل إلى علقة، والعلقة تتغيّر إلى مُضغة، إلى أن يتكامل التكوين الإنساني على شكل جنين في رحم الأمّ. وبعد الولادة يتدرّج الإنسان في مراحل النموّ والتكامل فيقطع مراحل الطفولة والرشد والفتوة والكهولة إلى أن يصل إلى الموت.

ومع الموت يتحرّك الإنسان في رحلةٍ تكامليةٍ جديدة لكي لا تبقى أشواط وجوده ناقصة، حتى يصل إلى نقطة الذروة والمنتهى (التي هي الغاية من وجوده). لذلك لا تطوى صفحة الإنسان مع الموت، بل ينتقل من نشأةٍ إلى أخرى ليواصل سيره التكاملي[1].

ويؤكّد القرآن الكريم على هذه الحقيقة في آيات مختلفة، منها قوله (تعالى) : «إنّا للّه وإنّا إليه راجعون»[2]. وقوله تعالى : «وإنَّ إلى ربّك المنتهى»[3].

وكذلك تشير الآية الكريمة من سورة الحج إلى مراحل السير التكاملي التي يطويها الإنسان خلال وجوده، حيث يقول (تعالى) : «يا أيها الناس إنْ كُنتُم في ريبٍ من البعث فإنّا خلقناكم من تُرابٍ ثمَّ من نطفةٍ ثمَّ من عَلَقةٍ ثمَّ من مُضغةٍ مُخلَّقَةٍ وغيرِ مُخلَّقةٍ لنبيّن لكم ونقرُّ في الارحام ما نشاء إلى أجلٍ مسمّىً ثم نخرِجُكم طِفلاً ثمّ لتبلُغُوا أشدّكم ومنكُم من يُتوفّى ومِنكُم مَن يُرَد إلى أرذل العمرِ

---

(١) الموت مرحلة في حياة الإنسان، وإلى هذه الحقيقة يشير الحديث النبوي الشريف : «ما خلقتم للفناء، بل خُلقتم للبقاء، وانّما تنقلون من دارٍ إلى دار» بحار الأنوار، ج٦، ص٢٤٩. [المترجم].

(٢) البقرة : ١٥٦.

(٣) النجم : ٤٢.

لكيلا يَعلَم من بعدِ علمٍ شيئاً وترى الأرضَ هـامدةً فـإذا أنزلنـا عليهـا المـاء اهـتزّت وربَت وأنبتت من كلّ زوجٍ بهيج »[1].

(١) الحج : ٥، وفي نهاية هذا الفصل نشير - لمن يريد المزيد من الاطّلاع حول بحوث المعاد في القرآن - إلى كتاب الشيخ عبداللّه جوادي آملي. إذ ربّما يكون بحثـه أمتـع وأعمـق بحـث قرآني معاصر حول المعاد، فعندما يصل إلى أدلّة المعاد يشـير إلى ثمانيـة براهـين يسـتقيها مـن كتاب اللّـه. فلمزيد من التفصيل يراجع كتابه : « عشر مقالات حول المبدأ والمعاد ».
اما من يبغي التعمّق في بحث المعـاد بحثـاً فكريـاً - كلاميّـاً فنحيلـه مـن كتـب الأقدمـين إلى كتاب: مفاتيح الغيب، ص٥٧٧ - ٦٨١ للفيلسوف الإسلامي محمّد بـن إبراهيـم المشـهور بصدر المتألهين. وفي مجال البحوث الفكرية المعاصرة يمكن أن نحيل القارئ المستزيد إلى:
- الحياة بعد الموت، للعلاّمة محمّد حسين الطباطبائي مؤلّف تفسير الميزان.
- الحياة الأخرى وأصالة الروح للشيخ مرتضى مطهري. [المترجم].

الفصل الخامس

المعاد الجسماني

المقصود بالمعاد الجسماني هو أن يُحشر الإنسان في القيامة بروحه وجسده ونفس خصائص شخصيّته التي كان عليها في الدنيا. وعندما يُنتهى من حسابه يدفع به روحاً وجسداً امّا إلى الجنّة مُنعماً أو إلى النار معذّباً. والذي عليه عقيدتنا انّ الإيمان بالمعاد الجسماني هو من ضرورات الإسلام، تماماً كالصلاة والصيام.

وفلسفة الحديث عن مصطلح «المعاد الجسماني» هو الاختلاف الذي نشأ بين الفلاسفة غير المسلمين في معنى المعاد، وفيما إذا كان روحياً فقط أم جسمياً وروحياً. وفي هذا السياق ذهب بعض الفلاسفة من غير المسلمين للقول بمعاد الروح دون الجسد، أمّا الفلاسفة المسلمون فكلمتهم مجمعة على الاعتقاد بالمعاد الجسماني الذي يعتبرونه من الثوابت من المسلمات والضروريات.

لذلك جاء في «الشفاء» عن الشيخ الرئيس ابن سينا عند بحثه للمعاد قوله؛ اننا حتى لو عجزنا عن اثبات المعاد الجسماني بالأدلّة الكافية، فيكفينا للايمان به ما جاء عن الصادق المصدَّق (صلّى اللّه عليه وآله) حيث نقبله تعبّداً.

امّا الفيلسوف الكبير محمد بن ابراهيم المشهور بصدر المتألهين، فقد جاء بمبدأ «الحركة الجوهرية» ليثبت بها بشكل أساس المعاد الجسماني[1].

---

(١) صدر المتألهين هو محمد بن ابراهيم بن يحيى الشيرازي الفيلسوف الحكيم ومجدّد الفلسفة الإسلامية في القرن الحادي عشر الهجري (توفي سنة : ١٠٥٠هـ).

يعدّ الابداع الأهم في فلسفة صدر المتألهين هو ابتكاره لفرضية « الحركة الجوهرية » فقَبْلَ فيلسوفنا الشيرازي كان أكثر الحكماء يحصرون الحركة في اعراض الأجسام الطبيعية، ولكن

وبهذا يتّضح أنّ اجماع أهل الإسلام، من الشيعة والسنّة، والفقهاء والفلاسفة والمتكلّمين، على انَّ «المعاد الجسماني» هو من أصول الدين، وانَّ الإنسان يحشر في القيامة على هيئته التي كان عليها في الدنيا، فيحاسب ثم يذهب بنفس الهيئة إلى الجنّة أو النار(١).

وللقرآن الكريم منهجه الخاص في الاستدلال على «المعاد الجسماني» وإثباته، وسنشير في الفقرات الآتية إلى مناهج هذه الأدلّة ومضامينها.

لذائذ الجنّة

تنقسم اللذائذ الأخروية في الجنّة إلى قسمين هما:

١ - **اللذائذ الروحية** : ومنها محادثة اللّه (جلَّ وعلا) على نحو ما هو موضح في كتب العقائد، ومرافقة النبي (صلّى اللّه عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام) ونظائر ذلك من الكرامات والرضوان.

٢ - **اللذائذ الجسمية** : ومثالها الأكل والشرب، ومباضعة الحور العين، والسكن في قصور الجنّة والنزول في غرفها، ومشاهدة المناظر الجميلة، وغير ذلك ممّا نص عليه القرآن الكريم والسنّة الشريفة، ممّا يُعدّ الخطاب فيه لغواً وباطلاً من دون وجود «المعاد الجسماني».

مع صدر المتألهين اعتبرت الجواهر متحرّكة أيضاً. فقد أثبت انَّ جواهر الأجسام تتحرّك حركة شديدة وتكاملية من دون أن تخدش الحركة والتغير حقيقة الجسم وجوهره. وقد وصل الفيلسوف الشيرازي من حصيلة أفكاره في « الحركة الجوهرية » إلى ثمار جليلة، منها الاستدلال على « المعاد الجسماني ».

(١) بالنسبة للاستدلالات النظرية الفلسفية على المعاد الجسماني يمكن مراجعة كتاب « المبدأ والمعاد »، وفصل المعاد الجسماني من كتاب « مفاتيح الغيب » لصدر المتألهين الشيرازي. [المترجم].

عذاب جهنّم

ينقسم العذاب الأخروي في جهنّم هو الآخر إلى عذاب روحي، وآخر جسمي يصيب أعضاء الجسم وجوارحه، وتفصيل ذلك كما يلي:

١ – **العذاب الروحي** : ومنه تأنيب الضمير وعذاب الوجدان، والتأسّف وتبكيت النفس ولومها، ونظائر ذلك من أشكال العذاب الروحي.

والقرآن الكريم يذهب أكثر من ذلك، حينما يُخبر انَّ نار جهنّم علاوة على انها تحرق الجسد، فانّها تحيط بالروح وتطّلع على الأفئدة، حيث يقول سبحانه : «نارُ اللّه الموقدة التي تطّلع على الأفئدة انّها عليهم مؤصدةٌ في عَمَدٍ مُمدَّدة»[١].

٢– **العذاب الجسدي** : كاحتراق لحم الإنسان وجلده وعظامه، والشراب من «حميم» وأكل «الزقوم».

يقول تعالى : «انَّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلّما نضجتْ جلودُهُم بدَّلناهم جلوداً غيرها ليذوقُوا العذاب»[٢].

ومن المؤكّد انَّ مقتضى «العذاب الجسمي» هو «المعاد الجسماني» وإلاّ فمن غير ذلك لا يمكن توجيه الخطاب القرآني.

المعاد الجسماني في قصّتين قرآنيتين

تتحدّث الآيات (٢٥٩ - ٢٦٠) من سورة البقرة عن قصّة «عزير»[٣] وخليل اللّه إبراهيم (عليه السلام)، والقصّتان - كما سنرى - تُعالجان ما يمكن أن يكون شبهةً أو استبعاداً للمعاد الجسماني، ثم تثبتان هذا «المعاد» بشكلٍ قاطع.

---

(١) الهمزة : ٥ - ٩.

(٢) النساء : ٥٦.

(٣) تذكر الروايات انّهما كانا أخوين هما «عَزير» و «عُزير» وكلاهما نبيّ.

قصة عُزَيز النبيّ

لقد كان «عزير» من عباد اللّه الصالحين، وكان يتمتّع بمقام النبوّة، فخرج من منزله يوماً، قاصداً إلى سفر بعيد، فمرَّ في طريقه على قرية قد أصابتها حوادث الطبيعة بالهدم والخراب، فتلاشت وذهب أهلها، وأصبحوا عظاماً رميماً، بعد أن تفرّقت أجسادهم وذهبت في التراب وأجواف الحيوانات.

يصوّر القرآن الكريم هذا الجزء من القصّة بقوله (تعالى) : «أو كالذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها»[1].

تأخّر «عزير» في القرية برهة من الزمن وأخذ يفكّر ويتأمّل الوضع المؤسف الذي عليه القرية، ثم انقدح بذهنه هذا السؤال، إذ قال بتعجّب : «أنّى يحيي هذه اللّهُ بعدَ موتها؟»[2].

لقد انتهت به رؤيته للأجساد المتلاشية والعظام البالية، إلى طرح السؤالين التاليين:

السؤال الأوّل : انَّ احياء هذه الأجساد بعد مدّة طويلة من موتها، هو أمر عظيم.

السؤال الثاني : كيف تجتمع هذه الأجساد المتناثرة والعظام البالية، لتعود إلى هيئة الجسد الأولى؟

كان «عزير» يؤمن بالمعاد الجسماني ويعرف انَّ اللّه (سبحانه) قادر على احياء مَن أمات، ولكنّه أراد أن يصل في إيمانه واعتقاده إلى درجة «حق اليقين».

يستكمل السياق القرآني قصّة «عزير» النبي بقوله (تعالى) : «فأماته اللّه مائة عام ثم بعثه». حيث ذكر انّه بينما كان جالساً إلى جنب ماء، وإلى جانبه حماره، فإذا به يموت مع حماره.

وعندما أحياه اللّه «ثم بعثه» سأله : «كم لبثت؟»

---

(١) البقرة : ٢٥٩.

(٢) البقرة : ٢٥٩.

فأجاب : «لبثتُ يوماً أو بعض يومٍ».

فجاءه الجواب : «بل لبثتَ مائة عام».

ثم جاءه الخطاب : «فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس وانظر إلىٰ العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً».

لّما نظر «عزير» إلى حماره كيف يحيا، بعد مائة عام من موته؛ ولّما تأمّل المشهد برمّته، قال، كما يحكي على لسانه القرآن : «أعلمُ انَّ اللّه على كلّ شيء قدير»[1].

ومن المؤكّد انَّ أحداث هذه القصّة القرآنية تثبت المعاد الجسماني بشكلٍ قطعيٍ وواضح.

قصّة إبراهيم

يقول (تعالى) في قصّة مماثلة عن خليله إبراهيم (عليه السلام) : «وإذ قال إبراهيم ربِّ أرني كيف تحيي الموتى، قال : أولَم تؤمن؛ قال : بلى؛ ولكن ليطمئن قلبي»[2].

---

(١) البقرة : ٢٥٩، وقد جاء في بيان العلاّمة المجلسي على قوله : « اعلم انَّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير » أي أُوقن « انَّ اللّه على كلّ شيء قدير»، أي لم أقل ما قلت عن شكٍّ وارتياب. ويحتمل انَّهُ انّما قال ذلك لأنّه ازداد - لّما عاين وشاهد - يقيناً وعلماً، إذ كان قبل ذلك، علمه علم استدلال، فصار علم ضرورة ومعاينة. البحار، ج٧، ص٣٥.

وفي رواية الإمام الصادق (عليه السلام) في قصّة « عزير » انَّ اللّه (سبحانه) أوّل « ما أحيا منه عينه...؛ فجعل ينظر إلى العظام البالية المنفطرة تجتمع إليه، وإلى اللحم الذي قد أكلته السباع يتألّف إلى العظام من هاهنا وهاهنا ويلتزق بها حتى قام، وقام حماره، فقال: « اعلم انَّ اللّه على كلّ شيءٍ قدير ». البحار، ج٧، ص٣٤. [المترجم]

(٢) جاء في رواية عن الإمام الصادق قوله (عليه السلام) : « انَّ إبراهيم (عليه السلام) نظر إلى جيفة على ساحل البحر تأكلها سباع البرّ وسباع البحر، ثم يثب السباع بعضها على

فجاءه الخطاب الإلهي : «قال : فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثـم اجعـل على كلّ جبلٍ منهنّ جزءاً ثم ادعهن يأتينّك سعياً».

فعل إبراهيم (عليه السلام) ما أمره اللّه (سبحانه)، فقطع أربعة مـن الطـير ثـم خلط لحمهنّ، وفرّقه على الجبال، فدعاهن، فأجبنهُ باذن اللّه، فرأى (عليه السـلام) كيف يجتمع ويتألف لحم كل واحدٍ وعظمه، ثم طرنَ إليه، فقال (عليـه السـلام) : «إنَّ اللّه عزيزٌ حكيم»[(١)].

ومن الواضح انَّ هذه القصّة القرآنية، تعطـي نموذجـاً آخـر علـى إحيـاء الموتـى وبعثهم بأجسادهم.

نطق الجوارح في القيامة

عندما يتسلّم المفسدون وذوو الصفات الشيطانية، صحيفـة أعمـالهم السـوداء، وما جنت أيديهم، يحاولون أن ينكروا نسبة أعمالهم إليهم، فيقـول (سـبحانه) عـن هذا المشهد الأخروي : «اليوم نختم على أفواههم وتكلّمُنا أيديهم وتشهدُ أرجُلهم بما كانوا يكسبون»[(٢)].

والذي نستفيده من قوله (تعـالى) : «تكلّمنـا أيديهـم وتشـهد أرجُلهـم» هـو حضور أجسادهم في القيامة، كي يكـون بمقـدور الجـوارح ان تشـهد، لأنّـه ليـس للروح، لو كان المعاد روحياً وحسب، يـد أو رجـل. ومـن البديهـي انَّ لازم هـذا المعنى تحقّق «المعاد الجسماني».

قصّة أبيّ بن كعب

لقد كـان أبـيّ بـن كعـب رجـلاً عنيـداً يحاول أن يسـتهزئ بعقـائد المسـلمين

بعض، فيأكل بعضها بعضاً، فتعجّب إبراهيم، وقال : « ربِّ أرني كيـف تُحيـي الموتـى؟ » البحار، ج٧، ص٣٦. [المترجم]

(١) البقرة : ٢٦٠.

(٢) يس : ٦٥.

ويستخفّ بها، وقد جاء يوماً إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وبيده عظم بالٍ مُتفتّت، ففركه بين يدي رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) ورمى بذرّاته في الهواء، وقال : يا محمّد، أتزعم أنّ اللّه يبعث هذا؟

فقال (صلّى اللّه عليه وآله) : نعم.

فنزل في هذه المناسبة قوله تعالى : «وضربَ لنا مثلاً ونَسِيَ خَلْقَهُ قال : مَن يحيي العظام وهي رميم . قل يُحْييها الذي أنشأها أوّلَ مرَّةٍ وهو بكلِّ خلقٍ عليم»(١).

سورة القيامة والمعاد الجسماني

لقد أقسم اللّه (سبحانه) في سورة القيامة، على جمع عظام الإنسان، بل على جمع «البنان» أي السُلاميات والأطراف رغم صغرها ولطافتها ودقّة خطوطها، وإعادتها إلى هيئتها وصورتها الأولى.

يقول (تعالى) : «بلى قادرينَ على أن نسوّي بنانَهُ»(٢).

والآية دليل مُحكم ومُتقن يعود إلى أصل «المبدأ». وفي معناها نجد انَّ بين البشر من حيث أصل الخلقة، ما يشترك بينهم، وما يفرّق بعضهم عن بعض. فبشأن القواسم المشتركة ، نجد انَّ أربعة مليارات من البشر يشتركون جميعاً بالشكل العام والشمائل. وهذه النقطة بحدّ ذاتها من علائم قدرة اللّه (سبحانه). يقول تعالى : «ومن آياتهِ خلقُ السماوات والأرض واختلاف ألسِنَتكُم وألوانِكُم

---

(١) يس : ٧٧ - ٧٨. تنظر القصّة في : بحار الأنوار، ج٧، ص٢١ - ٢٢. [المترجم]

(٢) جاء في قصّة الآية انّها نزلت في عديّ بن ربيعة، حينما سأل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) عن أمر القيامة فأخبره به، فقال : لو عاينت ذلك اليوم لم اصدّقك؛ أوَيَجْمَعُ اللّه هذه العظام؟! فنزل قوله (تعالى) : « أيحسب الإنسان ألّن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوّي بنانه . بل يريد الإنسان ليفجر أمامه » القيامة : ٢ - ٥. يُراجع : بحار الأنوار، ج٧، ص٢٩ - ٣٠. [المترجم]

انَّ في ذلك لآياتٍ للعالمين »[1].

وثمّة علامة فارقة في كل إنسان، هي بحدّ ذاتها دليل على قدرة اللّـه (سبحانه) وعلى « المبدأ ». إذ نجد انَّ خطوط ابهام كل إنسان تفترق عنها في الإنسان الآخر وتتميَّز، حتى انَّهُ ليس بمقدورنا أن نجد على وجه البسيطة شخصين تتشابه خطوط ابهامهما!

ولهذا المعنى تشير الآية الكريمة في قوله (تعالى) : « بلى قادرين على أن نسوّي بنانه » أي قادرين على إعادة الخطوط المرتسمة على ابهام الإنسان في يوم القيامة، كما كانت صورتها في الدنيا، دون أن يكون هناك أدنى فارق[2].

الأكل والشرب في العالم الأخروي

في خاتمة هذا الفصل، نشير إلى رؤية قرآنية أخرى في إثبات « المعاد الجسماني» حيث يقول تعالى : « فأمّا مَن أُوتي كتابَهُ بيمينهِ فيقول هـاؤُمُ اقرَؤُا كتابيَهْ . إني ظننتُ إنّي مُلاقٍ حسابيهْ . فهوَ في عيشةٍ راضيةٍ في جنّةٍ عاليةٍ قُطوفُها دانيةٌ . كلُوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيّام الخالية »[3].

انَّ مقتضى الخطاب في قوله (تعالى) : « كلوا واشربوا » أن يكون المعني به هو الجسم (الفم واليد) الذي ينبغي أن يكون مزوّداً بالجهاز الهضمي، ومن دون ذلك يتحوّل الخطاب إلى لغو.

إذن يجب أن يكون المعاد معاداً جسمانياً ليتسق مع معنى الآية ومفادها.

أخيراً؛ ثمّة في القرآن آيات أخرى كثيرة تصرّح بـ « المعاد الجسماني » لا مجال لتأويلها لأنّها قطعية الدلالة عليه.

---

(١) الروم : ٢٢.

(٢) تشير الآية الكريمة بدلالة المطابقة على « المعاد الجسماني » وتشير بالدلالة التضمنية على « المبدأ ».

(٣) الحاقة : ١٩ - ٢٤.

الفصل السادس

شبهة الآكل والمأكول

أثار بعضهم هذه الشبهات ازاء المعاد الجسماني، هي أقرب للاستبعادات منها إلى الشبهات[1].

بيد انّا نجد انَّ هذه «الشبهات» لا تصمد أمام أدلّة المعاد الجسماني، وبالتالي ليس لها قيمة علمية. إذ يكفي هنا أن نشير مجدّداً إلى ماذكره «الشيخ الرئيس» ابن سينا في «الشفاء» من انّهُ يكفينا لتصديق المعاد الجسماني والإيمان به، ما أخبر به الصادق المصدّق؛ رسول اللّه(صلّى اللّه عليه وآله)حتى لو لم يثبت لدينا بالبرهان[2].

على انَّ «منطق» الشبهة والاستبعاد في مقابل كلام اللّه (جلَّ جلاله) هو الجهل في مقابل العلم؛ وهو في واقعه عدم معرفة لا شبهة.

تقرير الشبهة

تعدّ شبهة «الآكل والمأكول» ازاء المعاد الجسماني، من الشبهات العريقة،

---

(١) معنى «الاستبعاد» هو الانكار بلا دليل أو شبهة. والملاحظ أنَّ معظم مَن تحدَّث عنهم القرآن الكريم من مُنكري المعاد، هم من هذه الفئة. [المترجم]

(٢) ورغم ذلك فإن لهذا التصديق - ولو كان بهذه الصورة - مبنىً عقلياً، خلاصته؛ انَّ ما أخبر به النبي المتصف بجميع صفات الكمال والجلال، والمعصوم عن الخطأ والكذب، يجب تصديقه. للمزيد يلاحظ : شرح التجريد، للعلاّمة الحلّي، باب المعاد. وكذلك المرحوم الشيخ محمد جواد مغنية في فصل المعاد من كتابه : معالم الفلسفة الإسلامية، ص١٦٥. [المترجم]

حيث تعود في قدمها، ويمتدّ عمرها إلى ما قبل عصر السيّد المسيح (عليه السلام) ثم استمرت من بعده.

ونجد هذه الشبهة في كلمات افلاطون والفلاسفة الذين جاؤوا من بعده؛ ونجدها أيضاً في أقوال ومؤلّفات الفلاسفة والمتكلّمين المسلمين، الذين بلوروها وصاغوها بأشكال مختلفة. ولكن ثمّة من بين هذه التقريرات ما هو أجمع منها جميعاً، إذ هو يضمّ أبرز الأقوال الواردة فيها، ويسبغ عليها لوناً «علمياً».

ومفاد هذا التقرير قولهم : انَّ الدنيا تتغيّر مئات المرّات منذ أن خلق اللّه (سبحانه) آدم (عليه السلام) إلى يوم القيامة. وبمقتضى هذا التغيّر يكون الإنسان جزءاً من هذه الدورة، فيحيا ويعاد وهكذا. أي يموت الإنسان ويتحوّل جسده بالموت إلى تراب، والتراب إلى نبات، والنبات إلى نطفة، ثم يُعاد إنساناً آخر.

وكلّما انتهت أشواط هذه الدورة ووصلت ذروتها عادت من جديد، ومعها يعود الإنسان للتحوّل إلى تراب، ثم نبات، ثم نطفةٍ ثم إنسان وهكذا.

والذي يتغيّر في هذه الدورة هو صورة الإنسان لا مادّته. أي انَّ مادّة الإنسان تبقى ولكنّها تستحيل مرّة إلى نبات وأخرى إلى حيوان وثالثة إلى تراب، قبل أن يعود مجدّداً إلى صوة الإنسان.

وبهذا الشكل ينبثق السؤال الذي يعكس الجزء الأهم من شبهة الآكل والمأكول، ويكون منطوقه بالشكل التالي : مَن الذي يُحشر في يوم القيامة، وأيّ الأجزاء تُبعث؟! فمادّة الإنسان قد استحالت إلى صور مختلفة وتغيّرت عدّة مرّات. ثم ان الإنسان الذي مات قبل ملايين السنين، واستحال جسمه إلى أجسام أخرى، وتغيّر عدّة مرّات إلى صور مختلفة؛ بأيّ الأجساد المتعدّدة تتعلّق روحه الواحدة؟

ثم يُواصل هؤلاء منطقهم فيقولون : إذا أكل الكافر إنساناً مسلماً، واستحال بدن المسلم وتحوّل إلى جزء من بدن الكافر، فماذا يكون مصير مثل هذا الجسد في القيامة؛ وهل يذهب بدن المسلم الذي استحال إلى جسم الكافر، مع الكافر إلى

النار، أم يرد جزء بدن الكافر الذي استحال من بدن المؤمن، مع المؤمن إلى الجنّة[1].

تقرير آخر للشبهة

ثمّة تقرير آخر للشبهة يصدق معه السؤال، من دون اللجوء إلى قضية «الآكل والمأكول» . فالإنسان يتغيّر بنفسه بشكلٍ كُلّي مرّة كل عدّة سنوات من دون أن يأكل أو يُؤكل.

تتغيّر خلايا الجسم بأجمعها كل سبع سنوات، فيكون الإنسان في عمر الرابعة عشرة غيره في عمر السابعة، وعندما يصل إلى سن الحادية والعشرين يكون غير الذي كان في سن السابعة والرابعة عشرة، وهكذا.

وبهذا الشكل يكون جسم الإنسان في معرض التحلّل والتبدّل الدائم، حيث تحلّ الخلايا الجديدة مكان الخلايا القديمة.

والشبهة في هذا السياق تُطرح بالشكل التالي : إذا ارتكب الإنسان في شبابه ذنوباً ومعاصي، ثم تحوَّل في كهولته وشيخوخته إلى الطاعة والعبادة، ثم مات، فبأي جسم تتعلّق روحه؛ بالجسد الذي عصى اللّه فيه، وهو في شبابه، أم في الجسد

(١) بأسلوبه اليسير يلخّص المرحوم مغنية الشبهة بوجهين، فيقول : « وأشكلوا على من قال بإعادة الجسم بعينه (يوم القيامة) بأننا نفرض أن زيداً مات واستحال جسمه إلى تراب، ثم استحال التراب إلى نبات، فاغتذى عمرو بذلك النبات، فيستحيل جسم زيد إلى جسم عمرو، وحينئذٍ يقال : ان أعيد عمرو الآكل لم يكن زيد المأكول معاداً، وعليه تنتفي الإعادة بالنسبة إلى أحدهما لا محالة. وهذه الشبهة تُعرف بشبهة الآكل والمأكول. وقرّرها بعض الفلاسفة بأسلوبٍ آخر، قال : إذا أكل إنسان إنساناً آخر، فإن كان الآكل كافراً، والمأكول مؤمناً لزم تعذيب المؤمن، لأنّه استحال إلى بدن الكافر والكافر معذّب، وإن كان الآكل مؤمناً لزم أن يكون الكافر مُنعماً، لأنّهُ استحال إلى جسم المؤمن، والمؤمن مُنعم ». معالم الفلسفة الإسلامية، ص١٦٦. [المترجم]

الذي أطاع اللّه فيه، وهو في سني زهده وعبادته؟

إذا أجيب بأنَّ الروح تتعلّق بجسم الإنسان وهو شاب، وجب أن يذهب إلى جهنّم، وعندها سيكون السؤال : وماذا عن سنوات عمره الأخرى (أي سنوات الكهولة) التي أمضاها بالزهد والطاعة والعبادة؟

امّا إذا أجيب بأنَّ الروح تتعلّق بجسم الإنسان الذي كان له في سن الكهولة حيث كان مطيعاً عابداً فيذهب بذلك إلى الجنّة، فسيكون السؤال : ما هو مصير معاصيه آيّام شبابه؟!

معالجة الشبهة على أساس منطق العقلاء

يجيب استاذنا الجليل الإمام الخميني على الشبهة وفق ما يسمّى بالمنطق العقلائي السائد عُرفاً، فيقرّر انَّ استحقاق الثواب والعقاب عُرفي نرجع فيه إلى العقلاء. والمقصود من ذلك، انَّ ما يقرّره العقلاء من مواطن العقوبة نأخذ به، وما يقرّرونه من مواطن الثواب نأخذ به أيضاً.

ولتطبيق المعنى على مثال عملي نقول : إذا ارتكب شخص معيّن بحقّك ظلماً ثم هرب، فوجدته بعد عشر سنوات، أفلا تقول انَّ هذا الشخص هو نفسه الذي ظلمني قبل عشر سنوات، وانّه يستحق عقاب ما جنته يداه؟ ثم هل تجد من العقلاء من يعترض عليك في منطقك وسلوكك هذا لمجرّد انَّ خلايا هذا الشخص قد تغيّرت؟

وبهذا الاسلوب نجد انَّ المنطق العقلائي يذعن بأنَّ الشخص الظالم هو هو، وإن تغيّرت خلاياه الجسمية بشكل كامل؛ وأنَّ تغيّر خلاياه لا يعني تغييراً في حقيقته، وبالتالي لا يسقط عنه اللوم والعقاب.

وهكذا نصل إلى نفس النتيجة إذا أردنا أن نقلب المثال. فلنفترض ان رجلاً أسدى إليك معروفاً، وأعانك في معضلةٍ كُنت تعاني منها، ثم افتقدته لتراه بعد

عشرين سنة، فهل تلقاه بعد هذه السنين الطويلة بنظرة اللامبالاة وعدم الاهتمام، وتهمله ولا تشكره لما أسدى إليك من جميل، بحجّة انَّ خلاياه الجسمية تغيّرت بشكل كامل أكثر من مرّة؟ لا نحسب ان عاقلاً يُوافقك على هذا «المنطق»، وانّما يوجب عرف العقلاء غليك، ان تُبادر صاحبك بالتحليل والاحترام لما قدّمه إليك من معروف.

انَّ هذين المثالين العرفيّين في الثواب والعقاب، هما الجواب الشافي لشبهة «الآكل والمأكول»، على أساس ما يقضي به المبنى العقلائي في مقاييسه العرفيّة.

وفي كل الأحوال، علينا أن نجدّد الإشارة إلى انَّ قضية «الآكل والمأكول» نابعة أساساً من الجهل، وهي في حقيقتها ليست شبهة علمية، ولكن مع ذلك، عالجها القرآن الكريم، ووضع الفلاسفة لها الحلول المناسبة.

الأساس الفلسفي لمبنى العقلاء

علينا أن لا نتوهّم انَّ المبنى العقلائي (ذا الأساس العرفي) يفتقد إلى الأسس المحكمة، بل هو يقوم على قواعد فلسفية. وهذه القواعد مستمدة من المقولة الفلسفية المعروفة: «انَّ حقيقة الشيء تتعلّق بصورته لا بمادّته». بمعنى انَّ حقيقة الإنسان بـ «إنّيته» (من الأنا)[1].

ولتوضيح ذلك نقول: انَّ حقيقة الإنسان هي ذلك الشيء الذي يُشار له بالضمائر «أنا» و «أنت» و «هو». ومن البديهي انَّ «أنا» و «أنت» و «هو»

---

(١) يقول صدر المتألهين في ذلك: «انَّ هوية البدن وتشخصه انّما يكونان بنفسه لا بجرمه [أي بصورته لا بمادّته] فزيدٌ مثلاً، زيدٌ بنفسه لا بجسده، ولأجل ذلك يستمرّ وجوده وتشخّصه ما دامت النفس باقية فيه، انّما تشخّص كل انسان انّما يكون بنفسه لا ببدنه، وانَّ البدن المعتبر فيه أمرٌ مبهم، لا تحصّل له إلاّ بنفسه» الأسفار، ج٨، ص١٩٠ فما بعد. [المترجم]

لا تتغيَّر بتقادم الزمان، وان انتهى تقادم الزمن إلى تغيير بعض خلايا جسم الإنسان أو جميعها، لأنَّ مثل هذا التغيير لا يطال «انيّته» ولا يؤثّر في الـ «أنا» و «أنت» و «هو».

وإذا أردنا أن نعود إلى مثال الفقرة السابقة، فسنجد انَّ الإنسان الذي أسدى إلينا معروفاً قبل عشرين سنة هو نفسه، ولو انقطعنا عن رؤيته عشرين عاماً ثم رأيناه بعد ذلك، إذ سنبادره بالقول : «أنت» الذي فعلت كذا وكذا. أي انَّ الشخص الذي أسدى المعروف يبقى «هُوَ، هو» رغم مرور عشرين سنة، وفي المقابل أبقى «أنا، أنا».

بناءً على ذلك، فإنَّ «أنا» و «أنت» و «هو» لا تُعدم ولا تتغيَّر، وانّما الذي يتغيَّر هو «الجسم»، أو بتعبير حافظ الشيرازي «الخرقة»، لأنَّ الجسم ما هو في واقعه سوى لباس. لذلك فانَّ «الجسم الجديد» المتكوّن من الخلايا الجديدة هو بمثابة اللباس الجديد ليس إلاّ(1).

ثم انَّ اللباس كما يحفظ الإنسان من الحر والبرد ويقيه شرورهما وأضرارهما، فكذلك يكون الجسم بالنسبة للإنسان، إذ هو الواسطة التي يستشعر من خلالها الإنسان اللّذة والألم.

وبذلك فإنَّ الإنسان الذي يُعذّب، انّما تلقى روحه الجزاء بواسطة الجسد؛

---

(1) يقول صدر المتألهين في ثبات المقوّمات وتغيّر المشخّصات، وبالتالي بقاء الشخص هو هو بعينه؛ يقول : «ان تشخّص كلّ شيء عبارة عن وجوده الخاص به مجرّداً كان أو جسمانياً. وامّا الاعراض التي تُسمّى بالمشخصات عندهم فهي من لوازم الشخصية لا من مقوّمات الشخص، ويجوز أن يتبدّل كمياته وكيفياته وأوضاعه وأزمنته وأينونه تبدّلاً من صنفٍ إلى صنف، ومن نوعٍ إلى نوع، والشخص هو هو بعينه». مفاتيح الغيب، ص٥٩٦. ولمن يبغي المزيد من الاطّلاع على الموضوع، بإمكانه مراجعة فصل «اثبات الحشر الجسماني وبعث الأبدان» من الكتاب المذكور. [المترجم]

وكذلك تستمتع الروح باللذائذ بواسطة الجسد. لذلك لا يمكن أن نزعم انّ جسد الميّت في القبر يلتذ لرمي الورود عليه، وهو فاقد الروح، لانَّ اللّذة في واقعها ترتبط بالروح، وجسد الميت جسم بلا روح. وعليه، فإنّ الإنسان الحيّ هو الذي يلتذ دون سواه برمي الأزهار والورود عليه.

يتّضح مّما سبق، انَّ جسم الإنسان بالنسبة إلى حقيقة الإنسان، هو بمنزلة اللباس إلى الإنسان. وبذلك فإنَّ الذي يستمتع باللّذة أو يتألّم بالعذاب هو الـ «أنا» أي حقيقة الإنسان. وانَّ الجسم - أيّ جسم كان - هو مجرّد وسيلة لتحقّق اللذة والألم.

انَّ «أنت» و «أنا» أي حقيقة الإنسان لا تستطيع أن تستشعر اللذة والألم من دون الجسم، لانَّ «نت» و«أنا» هي التي تُمثّل «التشخّص الإنساني»، لذلك إذا افتقدنا الجسد، فانَّ «أنت» و«أنا» لا تُحرق، وبالتالي لا تحسّ بعذاب جهنّم.

اذن، المحصّلة الأخيرة التي ينتهي إليها بياننا للأساس الفلسفي لمبنى العقلاء، انَّ «روح» الإنسان هي التي تستشعر وتلقى العقاب أو الثواب، ولكن الوسيلة إلى معاقبة وإثابة روح الإنسان هي «جسده».

معالجة الشبهة من خلال القرآن

لقد عالج الفلاسفة المسلمون والمتكلّمون والمفسّرون، شبهة «الآكل والمأكول» وأجابوا عليها[1]. ولكن أفضل المعالجات نجدها في القرآن الكريم الذي أجابت

(١) «أجاب المتكلّمون عن هذه الشبهة بأنّ للإنسان أجزاءً أصلية، وأخرى عرضية، والتي تستحيل إلى بدنٍ آخر هي الأجزاء العرضية، امّا الأصلية فلا تصير جزءاً من غيرها، بل تبقى على حقيقتها من أوّل العمر إلى آخره. ومن هذا الجواب يتّضح ان معنى الموت عند المتكلّمين هو تفريق أجزاء الجسم، ومعنى الحياة بعد الموت جمع تلك الأجزاء وتأليفها مرّة ثانية». ثم يضيف: «وأجاب الفلاسفة عن شبهة الآكل والمأكول بأنَّ حقيقة الإنسان هي نفسه، لا بدنه. والأكل انّما وقع على البدن لا على النفس التي يكون الإنسان بها

آياته على المسألة من دون أن تطرح أصل الشبهة.

لقد تناول القرآن الكريم هذا الموضوع الدقيق وأشار إليه في نطاق أربعة أبعاد، موزّعة على أربع سور، سنتناولها كما يلي :

أوّلاً : سورة الإسراء

يقول تعالى : «انَّ اللّـه الـذي خلـقَ السـماوات والأرضَ قـادرٌ علـى أن يخلُـقَ مِثلَهُم»[1].

يشير قوله (تعالى) : «انْ يخلُقَ مثلهم» إلى انَّ عـالم الآخـرة مثـل عـالم الدنيـا، ولكن ليس نفسه، لأنَّ العالم الأخـروي لـو كـان نفـس عـالم الدنيـا، لجـاء التعبـير القرآني بصيغة «ان يخلقهم».

ويعبِّر القرآن عن هذه الحقيقة في مكان آخر، حيث يقول (تعالى) : «يومَ تُبدَّلُ الأرضُ غيرَ الأرضِ والسماوات وَبَرَزوا للّه الواحد القهّار»[2].

بمعنى انَّ العالم الأخروي هو غير عالمنا الدنيـوي هـذا، وانَّ المنظومـة الشمسية تدكّ عند قيام القيامة وتبدّل، وتظلم الدنيا وينطفئ نورها. أمّا العالم الأخروي فهـو عالمٌ حـي. والجسـم الأخـروي غـير الجسـم الدنيـوي؛ فالجسـم في الآخـرة يتكلّـم ويشهد على صاحبه؛ يقول تعـالى : «حتـى إذا مـا جاؤُهـا شَـهِدَ عليهِـم سَـمعُهُم وأبصارُهُم وجُلودُهُم بما كانوا يعملون»[3].

فيخاطب الإنسان جلده وجوارحه : «لِمَ شَهِدتُم علينا»[4].

إنساناً» الشيخ محمد جواد مغنية في : معالم الفلسفة الإسلامية، ص١٦٦. ويلاحظ أيضاً: بحار الأنوار، ج٧، ص٣٧. [المترجم]

(١) الاسراء : ٩٩.

(٢) إبراهيم : ٤٨.

(٣) فصّلت : ٢٠.

(٤) فصلت : ٢١.

فتجيب الجوارح والأعضاء: «أنْطَقَنَا اللّه الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ»[1].

وفي ذلك العالم، تتحدّث الأرض وتُخبر عمّا جرى عليها من حوادث عظيمة ومهولة؛ يقول تعالى: «إذا زُلزلت الأرضُ زِلزالها وأخرجَت الأرض أثقالها وقال الإنسانُ مالها يومئذٍ تُحدّث أخبارها»[2].

ثانياً: سورة يس

تتناول سورة «يس» الموضوع نفسه من خلال قوله تعالى: «أوَ لَيسَ الذي خلق السماوات والأرضَ بقادرٍ على أن يخلُقَ مِثلَهُم بلى وهو الخلاّق العليم»[3].

ثالثاً: سورة الواقعة

وهي تشير إلى الفكرة التي نحن بصددها من خلال قوله تعالى: «نحنُ قدَّرنا بينكُمُ الموتَ وما نحنُ بمسبُوقين على أنْ نُبدِّلَ أمثالَكُم وننشِئَكُم فيما لا تعلمونَ»[4].

رابعاً: سورة النساء

وهي تتناول الموضوع من بعدٍ آخر نتلمسه في قوله تعالى: «كلّما نَضجَت جُلُودُهُم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب»[5].

ما تنتهي إليه الآيات الكريمة الآنفة، هو إثبات الحقائق التالية:

---

(١) فصلت: ٢١.

(٢) الزلزلة: ١ - ٤.

(٣) يس: ٨١.

(٤) الواقعة: ٦٠ - ٦١.

(٥) النساء: ٥٦.

أوّلاً : انَّ معاد الإنسان معاد جسماني (وروحي في نفس الآن).

ثانياً : انَّ الجسم الأخروي للإنسان هو غير الجسم الدنيوي[1].

ثالثاً : يلقى الإنسان بواسطة جسمه في الآخرة ألوان العذاب وأهواله، وبه يستشعر اللذائذ والثواب وكلّما نضج الجلد في الآخرة، استُبدل ليتجرّع المجرمون سوء العذاب.

(١) في الواقع انَّ جسم الإنسان في الآخرة، هو هو، وهو غيره في نفس الوقت. وأروع ما يوضح هذه الحقيقة ما جاء عن الإمام الصادق (عليه السلام) عندما سأله ابن أبي العوجاء - وكان مُلحداً - بحضور المنصور العبّاسي، فقال له : ما تقول في هذه الآية : « كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها » هَب هذه الجلود عصت فعذّبت فما ذنب الغير؟ فقال الإمام أبو عبدالله الصادق (عليه السلام) : « ويحك، هي هي، وهي غيرها. قال ابن أبي العوجاء : أعقلني هذا القول، فقال (عليه السلام) له : « أرأيت لو أنَّ رجلاً عَمَد إلى لبنةٍ فكسرها ثم صبّ عليها الماء وجبلها، ثم ردّها إلى هيئتها الأولى، ألم تكن هي هي، وهي غيرها؟ فقال ابن أبي العوجاء : بلى، أمتع اللّه بك » بحار الأنوار، ج٧، ص٣٩. [المترجم]

الفصل السابع

حشر الإنسان بهويته الدنيوية

الذي نستفيده من القرآن الكريم انَّ الإنسان يُحشر في يوم القيامة على شاكلة هويته الدنيوية التي اصطنعها لنفسه. فإذا انتهج الإنسان في الدنيا مسيراً إنسانياً، وسارَ في حركة تكاملية، بحيث اكتشف هويّته الحقّة، وأدرك حقيقته، فانّهُ سيحشر في الآخرة على صورة «الإنسان الكامل».

وتشير الروايات إلى انَّ مثل هذا الإنسان عندما يَرِد المحشر يشعّ نوره، فيضيء كالقمر، ويجذب نظر أهل المحشر إليه[1].

امّا إذا افتقد الإنسان في حياته الدنيا هويّته ومحتواه الإنساني، وانغمر في الشهوات والنوازع الحيوانية، فإنّه سيحشر في القيامة بنفس صورته الحيوانية، فسيكون على هيئة الكلب أو الذئب أو النملة وغير ذلك. ويرد المحشر على هذه الصورة[2].

---

(١) من ذلك قوله أمير المؤمنين (عليه السلام) في صفة هؤلاء : « يخرجون من قبورهم يوم القيامة مشرقة وجوههم، قرّت أعينهم، قد أُعطوا الأمان، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون ». وروي عن النبي (صلّى اللّه عليه وآله) : « ألا ومن أحبَّ عليّاً جاء يوم القيامة ووجههُ كالقمر ليلة البدر ». تسلية الفواد في بيان الموت والمعاد، السيّد عبداللّه شبّر، ص١٦٠ - ١٦١. [المترجم]

(٢) الأحاديث في ذلك كثيرة، منها ما روي عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : « ومَن بغى على فقير وتطاول عليه واستحقره، حشره اللّه يوم القيمة مِثل الذرّة في صورة رجل حتى يدخل النار ». وكذلك ما روي عن الإمام محمد الباقر، في قوله (عليه السلام) :

ومثل هذا الإنسان وان حُشِرَ في عالم «جمع الجمع» على صورة الحيوان، إلاّ انَّ جميع أهل المحشر يعرفونه، ويعلّمون أنّه الشخص الفلاني[1].

وهذا هو المعنى الأوّل لتجسّم الأعمال في الآخرة.

نيّة الإنسان وفعله يصنعان مَلَكاته

يبيّن القرآن الكريم في الكثير من آياته، انَّ أفعال الإنسان ونيّاته تُستَمَدُّ من هويته، وانَّ نفس الأعمال والنيّات تصنع بدورها مَلَكات الإنسان. فالإنسان الذي يتحرّز من الذنوب ويولي الواجبات اهتماماً واضحاً، سيتحلّى تدريجياً بَمَلكة العدالة، وإذا ما حاز الإنسان مَلكة العدالة، فإنّه سيمتنع طبيعياً عن ارتكاب الذنوب وركوب المعاصي، وسيهتم بالواجبات والطاعات أكثر فأكثر.

بناءً على ذلك، فإنّ الفكر (النيّة) والقول والعمل الصالح تمنح الإنسان سلامة النفس؛ وكلّ ذي نفسٍ سليمة تكون أفعاله صالحة.

يقول القرآن الكريم: «ألا بذكر اللّه تطمئنّ القلوب»[2]. أي انَّ الذي يطمع بالنفس المطمئنة التي تذهب عنه الحزن والاضطراب، عليه أن يكون ذاكراً للّه.

وكذلك يقول (سبحانه): «فمَن يُرِدِ اللّهُ أن يهدِيَهُ يشرح صدرهُ للإسلام. ومَن يُرِدْ أن يُضلَّهُ يجعل صدرَهُ ضيِّقاً حَرَجاً كأنّما يصَّعَّدُ في السماء»[3].

انَّ اللّه (سبحانه) إذا أراد بعبدٍ خيراً، وأراد أن يهديه، فإنّه يمهّد له سُبل الهداية

«يحشر المكذّبون بقدرة اللّه تعالى من قبورهم، قد مسخوا قردةً وخنازير» بحار الأنوار، ج٧، ص٢١٢، ٢١٤. [المترجم]

(١) حتى «لو رأيته لقلت فلان» كما يقول الإمام الصادق (عليه السلام). الكافي، ج٣، ص٢٤٤. [المترجم]

(٢) الرعد: ٢٨.

(٣) الأنعام: ١٢٥.

ويوفّر له أرضيتها. والمقصود من ذلك ان اجتناب الذنوب وترك المعاصي والاهتمام بالواجبات توفّر للإنسان الأرضية بحيث ينشرح صدره ويتنوّر قلبه.

امّا إذا لم تشمل الإنسان عناية اللّه وتوفيقه ورعايته، وامتلأت حياته بالغيبة والذنوب واهانة الآخرين وتحقيرهم، و لم يكن همّه إلاّ نقل الأقاويل وزرع بذور الاختلاف بين الناس، فإنَّ نفسه ستتلوّث، وتمتلئ روحه كآبة، وقلبه همّاً وحزناً وغصّةً، وسيشمله الاضطراب ويحيط به القلق.

يقول (تعالى) : « لا يزال بنيانُهم الذي بَنَوْا ريبةً في قُلُوبِهِم إلاّ أن تقطّعَ قُلُوبهُم واللّه عليم حكيم »[1].

فالإنسان الذي يكتسب الملكات الإلهية يكون في الدنيا إنساناً كاملاً، ويكون في الآخرة من ذوي الفلاح. امّا إذا لم تكن مَلكات الإنسان إلهية، فإنّها ستؤثّر على نفسه وهويّته، بحيث تنقلب هويّته وتتغيّر حقيقته، فيُحشر في المحشر في صورة هويّته التي تتغيّر إليها.

يقول تعالى : « ونحشُرُهُم يوم القيامة على وجوهِهِم عُمياً وبُكماً وصُمّاً مأواهمُ جهنّم »[2].

ذلك انّ آذان هؤلاء لم تكن تصغي إلى الحقائق، وكانوا يعملون خلافاً لما يأمر به الحقّ، وقد أعمى العناد والعصبية أبصارهم فأصبحوا عُمياً، حتى مُسِخَت هويّتهم، وتحوّلوا إلى هويّة أخرى، يُحشرون معها عمياً وبُكماً وصُمّاً، قد مُسخوا بصور مختلفة.

---

(١) التوبة : ١١٠ .

(٢) من مصاديق الآية، ما ورد عن النبي (صلّى اللّه عليه وآله) من قوله لأبي ذر : « يا أبا ذرّ، يُؤتى بجاحد حقّ عليّ وولايته يوم القيامة أصمّ وأبكم وأعمى، يتكبكب في ظلمات يوم القيامة... » البحار، ج٧، ص٢١١. والآية : ٩٧ الإسراء. [المترجم]

عاقبة الطغيان على أحكام اللّه

انَّ الذين يقفون في الحياة الدنيا في وجه اللّه، ويطغون ويتمرّدون على أحكام الإسلام، نجدهم في القيامة عاجزين صاغرين أذلّة.

يقول (تعالى) فيهم : «يومَ يُكشَفُ عن ساقٍ ويُدعَونَ إلى السجود فلا يستطيعون. خاشِعةً أبصارهُم تَرهقُهم ذِلّةٌ وقد كانوا يُدعونَ إلى السجود وهم سالمون»(١).

تحيط هؤلاء الذلّة يوم القيمة امام عظمة اللّه وجبروته، ورغم انّهم يريدون السجود للّه، إلاّ انهم لا يستطيعون ذلك، لأنّهم أمروا في الدنيا بالسجود وهم سالمون، فلم يجيبوا و لم يسجدوا.

وبهذا الشكل ترك طغيانهم وعتوّهم في الحياة الدنيا آثاره على هويّتهم، حتّى أضحت هويتهم في القيامة بكيفيّةٍ لا يستطيعون معها السجود.

عاقبة الكذب

يقول تعالى في صنفٍ آخر من الناس : «يومَ يبعثُهُم اللّه جميعاً فيحلفونَ لهُ كما يحلفونَ لكُم ويحسبونَ أنَّهُمْ على شيءٍ ألا إنَّهُم هُمُ الكاذبونَ»(٢).

يتحوّل الكذب بالتكرار إلى مَلكَة لدى الإنسان، والملَكة تُغيِّر هويته، فيحشر الإنسان في الآخرة بهويته (الجديدة) التي تغيَّر إليها. وتصل الحالة بمثل هذا الإنسان، إلى ان يكذب على اللّه (جلّ جلاله) ويقسم على كذبه، ويزعم انّه لا يستحق جهنّم، بل هو من أهل الجنّة!

عميان يوم الحشر

يقول تعالى في طائفة من الناس : «ومَن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة

---

(١) القلم : ٤٢ - ٤٣.

(٢) المجادلة : ١٨ .

أعمى وأضلّ سبيلاً »[1].

تتحدَّث الآية الكريمة عن فئةٍ من الناس، تفتقد المعنويات في دار الدنيا فيؤثّر ذلك على هويّتهم ويترك آثاره السيّئة عليهم. والإنسان الذي يفتقد المعنويات في الدنيا، وتتأثّر هويته بذلك، يحشر في القيامة بحيث يكون من سمات هويّته العُمي والضلالة، والحرمان من مشاهدة جمال الحق.

وفي آية أخرى يقول تعالى : « ومَنْ أعرض عن ذكري فإنَّ لهُ معيشةً ضنكا ونحشُرُهُ يوم القيمة أعمى »[2].

يؤدّي الإعراض عن ذكر اللّه (سبحانه) بالإنسان إلى أن يُصاب بالمين مُهلكين، أوّلهما في الدنيا، وهو : تحوّل معيشته إلى معيشةٍ صعبة وضنكة. وثانيهما في الآخرة، حيث يرد صف المحشر وهو أعمى.

وحينها يقول مثل هذا الإنسان، كما يحكي على لسانه القرآن : « قالَ ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كُنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتُنا فنسيتها . وكذلك اليوم تُنسى »[3].

انَّ الدنيا في الواقع، هي التي تبعث على عمى الإنسان في الآخرة. والدنيا هي التي تغيِّر « الهوية الإنسانية » للإنسان. فجرأة الإنسان على آيات القرآن، ونسيانه للتعاليم الإلهية وغفلته عنها، وعدم التزامه بالأحكام الشرعية، هذه الأسباب هي

---

(١) الاسراء : ٧٢.

(٢) طه : ١٢٤.

(٣) طه : ١٢٥ - ١٢٦، وقد جاء عن ابن عبّاس عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) في معنى الآية، قوله (صلّى اللّه عليه وآله) : « ومَن قرأ القرآن ولم يعمل به حشره اللّه يوم القيامة أعمى، فيقول : ربِّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً؟ فيقال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها، وكذلك اليوم تُنسى، فيؤمر به إلى النار ». البحار، ج٧، ص٢١٥. [المترجم]

التي تُسبِّب عماه في الآخرة.

وأمثال هؤلاء الأشخاص لا يتحلّون في الدنيا بالهوية الإنسانية، وهم يُحشـرون في الآخرة بنفـس هويّتهـم غـير الإنسـانية. لم يكـن هـؤلاء يُشـاهدون آيـات اللّـه، فحُشِروا وهُم عُمي.

حديث عشرة أصناف من أمّتي

ذكر الشيخ الجليل الطبرسي صاحب تفسير «مجمع البيان» عندَ تفسـيره لقولـه تعالى : «يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً» الحديث التالي :

«عن البراء بن عازب، قال : كان معاذ بن جبل جالساً قريباً مـن رسـول اللّـه (صلّى اللّه عليه وآله) في منزل أبي أيّوب الأنصاري، فقـال معـاذ : يارسـول اللّـه، أرأيت قول اللّه تعالى : «يوم يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً» الآيات؟ فقال(صلّـى اللّه عليه وآله) : يا معاذ سألت عن عظيم من الأمر، ثم أرسل عينيه [أي بكى] ثم قال : «تُحشر عشرة أصناف من أمّتي اشتاتاً قد ميّزهم اللّه تعـالى مـن المسـلمين وبدَّل صورهـم، فبعضهـم علـى صـورة القـردة، وبعضهـم علـى صـورة الخنـازير، وبعضهم مُنكّسون، أرجلهم من فوق ووجوههم من تحـت، ثـم يُسـحبون عليهـا، وبعضهم عُمي يترددون، وبعضهـم بكـمٌ لا يعقلـون، وبعضهـم يمضغـون ألسـنتهم يسيل القيح مـن أفواههـم لعابـاً يتقذّرهـم أهـل الجمـع، وبعضهـم مقطّعـة أيديهـم وأرجلهم، وبعضهم مصلبون على جذوع من نار، وبعضهم أشدّ نتناً مـن الجيـف، وبعضهم يلبسون جباناً سابغة من قطران لازقة بجلودهم. فأمّـا الذيـن علـى صـورة القردة فالقتّات من الناس، وامّا الذين على صـورة الخنـازير فـأهل السـحت، وامّـا المنكّسون علـى رؤوسـهم فآكلـة الربـا، والعمـي : الجـائرون في الحكـم، والصـم البكم: المعجبون بأعمـالهم، والذيـن يمضغـون بألسـنتهم فالعلمـاء والقضـاة الذيـن خالفت أعمـالهم أقوالهـم، والمقطّعـة أيديهـم وأرجلهـم : الذيـن يـؤذون الجـيران،

والمصلّبون على حذوع من نارٍ فالسعاة بالناس إلى السلطان، والذين هُم أشدّ نتناً من الجيف فالّذين يتمتّعون بالشهوات واللّذات ويمنعون حقّ اللّه في أموالهم، والذين يلبسون الجباب فأهل التجبّر والخيلاء»[1].

وهكذا يتّضح انَّ كلّ إنسان يُحشر في يوم القيامة ويظهر بنفس الصورة والسيماء التي تقتضيها أعماله في الدنيا، أي تكون صورته في الآخرة مُتناسبة مع صورة عمله في الدنيا[2].

يقول تعالى : «فيومئذٍ لا يُسئَلُ عن ذنبِهِ إنسٌ ولا جانٌّ. يُعرَفُ المجرمونَ بسيماهم فيؤخَذُ بالنواصي والأقدام»[3].

(١) للحديث مصادر كثيرة، منها : مجمع البيان، ج١٠، ص٤٢٣ - ٤٢٤، والبحار، ج٧، ص٨٩. وكذلك جاء ما يشبهه في : جامع الأخبار، فصل : ١٤٠، والدر المنثور، ج٦، ص٣٠٧. [المترجم]

(٢) يقول الفيض الكاشاني في توضيح ذلك : «فانّ تكرّر الأفاعيل يوجب حدوث الملكات، فكلّ مَلَكة تغلب في الدنيا على الإنسان، تتصوّر في الآخرة بصورةٍ تُناسبها : قل كلّ يعمل على شاكلته». علم اليقين في أصول الدين، ج٢، ص٩٠٠. [المترجم]

(٣) الرحمن : ٣٨ - ٤٠.

الفصل الثامن

معنى تجسم الأعمال

ثمّة معنيان لتجسّم الأعمال من وجهة نظر القرآن، المعنى الأوّل، هو الذي سبق أن أشرنا إليه[1].

امّا المعنى الثاني، فهو عبارة عن تجسّم أعمال الإنسان ونيّاتــه وأفكـاره في يـوم القيامة، وحضورها معه بصورها المجسَّمة.

انّ أعمال الإنسان ونيّاته وأفكاره وإن بـدت بصـورة «عرضيـة»، إلاّ انّهـا في الواقع ونفس الأمر ليست كذلك، وانّما لها حقيقة وواقع. أي انَّ أعمـال الإنسـان وان بدت في الظاهر مرتبطة به؛ وانّها تُعـدَم بعـدَ القيـام بهـا، إلاّ انَّ هـذا النظـر لا يعكس إلاّ الصورة الظاهرية للحقيقة. امّا الوجه الآخر لهذه الحقيقة، فيتمثّل بتجسّم أفعال ونيّات الإنسان، وحضورها مـع صورهـا الـتي تناسـبها، معـه وإلى جانبـه في صف المحشر. وبهذا الشكل فإنَّ أفعال ونيّات الإنسان لا تفنى ولا تُعدم بعد قيامـه بها، وانّما تستحيل إلى صور تتجسَّم على هيئتها[2].

---

(١) يقصد المؤلّف الإشارة إلى ما ورد في الفصل السـابق (السـابع) مـن انّ الإنسـان يُحشـر في الآخرة على صورة هويّته الدنيويـة الـتي اكتسـبها مـن خـلال أعمالـه الصالحـة أو الطالحـة. [المترجم]

(٢) جاء في الحديث الشريف : «يُحشر الناس على نيّاتهم». ولتوضيح ما جاء في المتن، نقـرأ في تجسّم الأعمال وتحوّلها إلى صور ترافق الإنسـان في المحشـر، مـا يقولـه الفيـض الكاشـاني (رحمه الله) : «والسرّ في ذلك أنَّ لكل خلق من الأخلاق المذمومة والهيئات الردية المتمكّنة

وجود الجنّة والنار

الذي نستفيده من القرآن الكريم والروايات والأحاديث الإسلامية الشريفة، انَّ «الجنّة» و«النار» كانتا من قبل، وهما الآن موجودتان أيضاً، وممّا يؤكّد ذلك ما نطق به الذكر الحكيم في قوله تعالى : «واتقوا النار التي أُعدّت للكافرين»(1).

وقوله تعالى : «وسارعوا إلى مغفرةٍ من ربّكُم وجنّةٍ عرضُها السماوات والأرضُ أُعدَّتْ للمتّقين»(2).

القيامة ثمرة أعمال الإنسان

لِنِعَمِ الجنّة ولذائذها، وعذاب النار وأهوالها، صلة بأعمال الإنسان وما يقدّمه لنفسه. فأعمال الإنسان، من وجهة نظر القرآن، هي التي تصنع قصوره في الجنّة؛

في النفس صورة نوع من أنواع الحيوانات، وبدنٌ يختص بذلك، كصور أبدان الأسُود ونحوها لخُلق التكبّر والتهوّر - مثلاً - وأبدان الثعالب وأمثالها للخبث والروغان، وأبدان القرد وأشباهها للمحاكاة والسخرية... ». علم اليقين، ج٢، ص٩٠١ - ٩٠٢. [المترجم]

(١) آل عمران : ١٣١.

(٢) آل عمران : ١٣٣. وثمّة آيات أخرى تدلّ على المقصود منها قوله (تعالى) : « وإنَّ جهنّم لمحيطةٌ بالكافرين». وأحاديث كثيرة تدلّ على ذلك منها ما رواه الشيخ الصدوق عن عبد السلام بن صالح الهروي أنّه قال : « قُلت لعلي بن موسى الرضا (عليه السلام) : ياابن رسول اللّه، أخبرني عن الجنّة والنار أهما اليوم مخلوقتان؟ فقال : « نعم. وانّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) دخل الجنّة ورأى النار لما عُرِجَ به إلى السماء. فقلت له : إنَّ أقواماً يقولون : انّهما اليوم مقدّرتان غير مخلوقتين؟ فقال (عليه السلام) : ما أولئك منّا ولا نحن منهم، مَن أنكر خلق الجنّة والنار فقد كذّب النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله) وكذّبنا، وليس من ولايتنا على شيء، وخلّد في النار. قال اللّه (عزوجل) : « هذه جهنّم التي يكذّبُ بها المجرمون . يطوفون بينها وبين حميم ءان » وقال النبي (صلّى اللّه عليه وآله) : لما عرجَ بي إلى السماء أخذ بيدي جبرئيل فأدخلني الجنّة... » التوحيد، ص١١٨. [المترجم]

وهي أيضاً التي تدفع به إلى ألوان عـذاب جهنـم، ومـا فيهـا مـن عقـارب وحيـات وأهوال. فما يرسله من هذه الدنيا، يلقاه أمامه في الآخرة[1].

لذلك ليس ثمّة عجب في قولنا : « انّ القيامة هـي حصيلـة أعمـال الإنسـان ». فقد ورد في الحديث النبوي الشريف : « انّما هي أعمالكم تُردّ إليكم »[2].

امّا القرآن الكريم فقد عبّر عن هذه الحقيقة في آيات كثيرة، منها قوله (تعالى): « كُلُوا واشربُوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيّام الخالية ».

وقوله تعالى : « ذلك بما قَدَّمت أيديكُم ».

تصرّح هاتان الآيتان وغيرهما بوضوح، انَّ أعمال الإنسان في هـذه الدنيـا هـي التي تُحدِّد مصيره في الآخرة وتبعث على تنعّمهِ بلذائذ الجنّة أو نيلـه لعـذاب النـار، وانَّ ما نرسلهُ من هذه الدنيا نجده محضراً أمامنا هناك.

نفقة الجنّة وغرسها

نجد في روايات المعراج، انَّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) لمّا أُسـري بـه إلى السماء، ودخل الجنّة، كان يرى الملائكة تشتغل ببناء القصور لبنة من الذهب ولبنة من الفضّة، وربّما كانت الملائكة تُمسك أحياناً عن العمل.

فسأل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) الملائكة عن سبب اشتغالها بالبناء حيناً، وإمساكها عنه حيناً آخر؟

---

(١) يتحدّث القرآن عن ذلك بوضوح، يقول (تعالى) : « يومَ تَجدُ كلّ نفـسٍ مـا عملـت مـن خيرٍ مُحضراً » آل عمران : ٣٠، وقوله (تعـالى) : « ولا تُجـزونَ إلاّ مـا كُنتُـم تعملـون » يس: ٥٤، وقوله (تعالى) : « كذلك يُريهم اللّه أعمالهم » البقرة : ١٦٧.
وقد جاء في الدعاء المأثور عن الإمام علـي بـن الحسـين السـجّاد (عليـه السـلام) : « وصـارت الأعمال قلائد في الأعناق ». الصحيفة السجّادية، الدعاء ٤٢. [المترجم]

(٢) علم اليقين، ج٢، ص٨٨٤ .

فأجابوه : اننا ننتظر وصول النفقة من أهل الأرض.

فما دام الإنسان المسلم مشغولاً بالعبادة، أو قائماً بخدمة المسلمين، أو مُنفقاً لماله، أو مجاهداً لنفسه مُراقباً لها، أو قائماً بأيّ طاعةٍ أو عبادة، فإنّهُ يُوفّر بذلك الأسباب اللازمة لبناء قصوره في الجنّة وتهيئة نعمِها الأخرى[1].

أمّا حينما يغفل الإنسان عن عمل الخير وينقطع عن الطاعة ويُقصّر في العبادة، فإنّ نفقة الجنّة ومستلزماتها تنقطع تبعاً لذلك، فيتوقّف الملائكة عن العمل.

لذلك من الممكن أن تكون للإنسان جنّة (أي يكون لهُ نصيب من الجنّة) ولكنّها جنّة حالية من الأشجار والأنهار والقصور، وذلك بخلاف شخص آخر دأب من خلال أعماله الصالحة في الدنيا على اعمار جنّته الأخروية وملئها بالقصور والبساتين والحور العين واللذائذ والنعم الأخرى[2].

---

(١) من الأحاديث الدالّة على مراد المؤلّف ، ما جاء عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : «لمّا أُسري بي الى السماء، دخلت الجنة فرأيت فيها ملائكة يبنون لبنة من ذهب ولبنة من فضّة، وربّما أمسكوا. فقلت لهم : ما لكم ربّما بنيتم وربّما أمسكتم؟

فقالوا : حتى تجيئنا النفقة. فقلت لهم : وما نفقتكم؟ فقالوا : قول المؤمن في الدنيا : « سبحان اللّه والحمد للّه ولا إله إلاّ اللّه واللّه أكبر » فإذا قال بنينا، وإذا أمسك أمسكنا ». تفسير القمي، ص٢٠.

وعنه (صلّى اللّه عليه وآله) قال : « ليلة أسري بي مرَّ بي إبراهيم (عليه السلام)، فقال : مُرْ أُمّتك أن يكثروا من غرس الجنّة، فانّ أرضها واسعة وتربتها طيّبة. قلت : وما غرس الجنّة؟ قال : « لا حول ولا قوّة إلاّ باللّه ». تنبيه الخواطر، ص٦٨. وقد توسّع المؤلف - وحسناً فعل - في توسيع النفقة فجعلها شاملةً لكلّ طاعة وفعل خير يقوم به الإنسان، سواءً كان ذِكراً أم عملاً. [المترجم]

(٢) ممّا يؤيّد هذا، ما ورد في الحديث النبوي الشريف من انّ « الجنّة قيعان » لذلك فهي بحاجةٍ إلى غرس من فعال الإنسان وذكره وطاعاته. يلاحظ نص الحديث في : علم اليقين، ج٢، ص٨٨٤. [المترجم]

مرافقة الأعمال للإنسان في الآخرة

يروي المحدّث القمّي (عليه الرحمة) انَّ أحد رؤساء القبائل ورد في جماعةٍ من قومه على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وطَلبَ منه موعظة نافعة تكون مرشداً له في حياته، لا سيما انّه ليس بمقدوره أن يصل إلى رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) دائماً، فوعظه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) بموعظةٍ منها : «وانَّهُ لابدَّ لكَ يا قيس! من قرينٍ يُدْفَنُ معك وهو حي؛ وتُدْفَنُ معهُ وأنت ميّت. فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك»(١).

والرفيق الذي يعنيه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) هو فعل الإنسان وعمله، كما يتّضح من نهاية الخبر، فإذا كان فعل الإنسان صالحاً، فسيكون قرينه في القبر والمحشر والجنّة صالحاً كريماً لا يسلمه. وإن كان فعل الإنسان سيّئاً، فسيكون رفيقه

---

(١) يشير المؤلف بكلامه هذا إلى الواقعة التي رواها الشيخ الصدوق من انَّ قيس بن عاصم المنقري وَفَدَ في جماعة من بني تميم على رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وطلبَ منه الموعظة، فكان ممّا قاله له (صلّى اللّه عليه وآله) : « وانَّهُ لابدَّ لك ياقيس من قرينٍ يُدفن معك وهو حي، وتُدفن معه وأنت ميّت. فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلَمَك، ثم لا يحشر إلاّ معك، ولا تُحشر إلاّ معه، ولا تُسأل إلاّ عنهُ. ولا تجعلهُ إلاّ صالحاً، فانَّهُ إن صلح أنست به، وإن فسدَ لا تستوحش إلاّ منه، وهو فعلك ».

فقال قيس : يا نبي اللّه أُحبّ أن يكون هذا الكلام في أبيات من الشعر نفخر به على من يلينا من العرب وندّخره..؛ فلما أذنَ له رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) بانشاد الشعر، نظم قيس بن عاصم المعنى الوارد في حديث رسول اللّه، بهذه الأبيات :

تخيَّرْ خليطاً من فِعالكَ انّها قرينُ ... الفتى في القبرِ ما كانَ يفعلُ

ولابدَّ بعد الموت من ان تعدّه ... ليومٍ يُنادى المرءُ فيه فيقْبلُ

فإن كُنتَ مشغولاً بشيء فلا تكنْ ... بغيرِ الذي يرضى به اللّه تشْغَلُ

فَلَنْ يصحبَ الإنسان من بعدِ موته ... ومِن قَبلِهِ إلاّ الذي كانَ يعملُ

ألا إنّما الإنسانُ ضيفٌ لأهلهِ ... يُقيم قليلاً بينهُم ثمَّ يَرحلُ

تلاحظ القصّة في : كتاب الخصال، الشيخ الصدوق، ص١١٤. [المترجم]

في القبر وقرينه في عالم الآخرة سيّئاً أيضاً، وسيُلازمه إلى أن ينهب به إلى النار.

انّ مرافقة عمل الإنسان للإنسان - سيئاً كان أم حسناً - هي من الأمور اليقينية التي نستفيدها من حديث رسول اللّه هذا.

تنبيه

إذا كانت أفعالنا وأعمالنا، بل كلّ شيء في هذا العالم، لا تفنى ولا تعدم، وانّما تعود إلينا، فما أحرانا إذن أن لا نبيع آخرتنا بدنيانا، وان لا نضحّي بعالم البقاء من أجل عالم الفناء. انّ الحياة الدنيا مملوءة بالغصص والآلام والمشاقّ والمصاعب، فعلينا إذن أن لا نستبدل نِعَم الجنّة ولذائذها الخالدة الباقية، بثمنٍ بخس من متاع هذه الدنيا، وبالمعاصي والآثام التي نرتكبها.

اننا نجلس في الجنّة ونعيش فيها برفقة رسول اللّه والأئمّة الأطهار (صلوات اللّه عليهم أجمعين)، فعلينا أن لا نضحّي بهذه الرفقة، والأهمّ من ذلك أنّ علينا أن لا نحرم أنفسنا من مشاهدة جمال اللّه سبحانه.

آثار أعمال الإنسان

انّ لأفعالنا وأعمالنا وأقوالنا أثرين؛ الأثر الأوّل ينطبع في النفس؛ بمعنى انّ أعمال الإنسان إذا كانت صالحة، فهي تترك آثارها الحسنة على نفسه. أمّا إذا كانت أعماله سيئة فستسقط نفسه لتصل إلى حضيض الحيوانية.

أمّا الأثر الثاني، فهو رجوع الأعمال في يوم القيامة إلينا. حيث جاء في الحديث الشريف : «انّما هي أعمالكم رُدَّت إليكم».

اذن، الأعمال بعد الموت تتجسّم بصورها الحقيقية وترافق الإنسان وتبقى معه[1].

---

(١) يقول صدر المتألهين في توضيح ذلك : « كلّ مَن شاهد بنور البصيرة باطنَهُ في الدنيا لرآهُ مشحوناً بأصناف السباع وأنواع المؤذيات، مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها، وهي التي لا تزال تفترسه وتنهشه...؛ إلاّ انّ أكثر الناس محجوب

عودة الأعمال للإنسان

إنَّ تجسّم الأعمال في عالم الآخرة، ومُرافقتها للإنسان بعد موته، هي من آثار أفعالنا في هذه الحياة. ويُبيِّن القرآن هذه الحقيقة بقوله تعالى : « يومَ تجدُ كلّ نفسٍ ما عَمِلت من خيرٍ مُحضراً وما عملتْ من سوءٍ تَوَدّ لو انَّ بينها وبيْنَهُ أمداً بعيداً، ويحذّرُكمُ اللّه نفسه واللّه رؤُفٌ بالعباد »[1].

رؤية الأعمال

انَّ إحاطة الذنوب بالإنسان في يوم الحساب، أمر مؤلم وينطوي على فضيحة، بل انَّ تلك اللحظات أكثر ألماً وَمَضَاً في النفوس من وهج نيران جهنّم نفسها[2].

امّا إذا كانت أعمال الإنسان أعمالاً صالحة فانّها تتجسّد بصورٍ جميلة تحيط به من كلِّ طرَف[3]، وعندما ينظر الإنسان إلى ما حوله يأخذه السرور والفرح، بل

العين عن مشاهدتها، فإذا انكشف الغطاء بالموت ووضع في قبره عاينها وهي محدقة عليه، وقد تمثّلت بصورها وأشكالها الموافقة لمعانيها، فيرى بعينه العقارب والحيات قد أحدقت، وانّما هي مَلكاته وصفاته الحاضرة الآن وقد انكشفت له صورها الطبيعية. فإنّ لكل معنىً صورة تُناسبه، ولكل حقيقة مثالاً يحاكيه » ثم يضيف : « وقد مرَّ انَّ هذه الصورة حسّية عينية لا انّها وهمية محضة. وان كان [الإنسان]-سعيداً تمثّل له ما يناسب أخلاقه الحسنة ومَلكاته المرضية ». مفاتيح الغيب، ص٦٣٨. [المترجم]

(١) آل عمران : ٣٠.

(٢) جاء في مضمون الحديث انّه تحصل للإنسان ندامة في الآخرة على ما فرّط، أين منها ضجة النار. وبالنسبة لألم الفضيحة نجد انَّ المؤمن المذنب يطلب من ربّه الستر ويقول : « سيّدي: لتبعثني إلى النار أحبّ إلي من أن تُعيرني ». الاختصاص، عن تسلية الفؤاد، ص٢٢٧. [المترجم]

(٣) ثمّة أحاديث كثيرة في تجسّد الأعمال الصالحة ومرافقتها للإنسان المؤمن، من ذلك مثلاً ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) في حديث طويل قال فيه : « إذا بعث اللّه المؤمن من

تصل به الحالة إلى الدرجة التي يخاطب عندهـا أهـل المحشـر بما يحكيه عنه القرآن الكريم في قوله (تعالى) : «فأمّا مَن أُوتي كتابَهُ بيمينِهِ فيقولُ هاؤُمُ اقرؤُا كِتابيهْ».

ومن الآيات الدالّة على تجسّم الأعمال قولـه (تعـالى) : «يومئـذٍ يصـدرُ النـاسُ أشتاتاً لِيُرَوا أعمالَهم فمَن يعمل مثقالَ ذرّةٍ خيراً يَرَه. وَمَـن يعمـل مِثقـالَ ذرّةٍ شـرّاً يَرَه»[1].

تتحـدّث الآيـة الكريمـة بصراحـة عـن رؤيـة الإنسـان لـ «أعمالـه» لا رؤيتـه لـ «جزاء الأعمال» وإلاّ فلو كان المعنى الثاني هـو المقصـود لجـاء التعبـير القرآنـي بصيغة «ليروا جزاء أعمالهم».

المقصود اذن هو «مشاهدة نفس الأعمال»، أي تجسّم الأعمال بـالمعنى الثـاني الذي نبحثه في هذا الفصل. والذي يؤكّد هذا المعنى هو ما تقرّره الآية بوضوح من انَّ الإنسان إذا عمل ذرّة من عمل الخير أو الشرّ فسيراه مُقدّماً امامه في الآخرة.

كان استاذنا الجليل الإمام الخميني يقرأ هذه الآيات (من سورة الزلزلـة) مـراراً، ويذكر في شرحها مضمون خبرٍ عن الإمام الصادق (عليه السلام) يذكر فيه انَّ آية «ليروا أعمالهم» هي من المحكمـات الـتي ليـس فيهـا أي تقديـر، فـإذا كـان عمـل الإنسان صالحاً فانّهُ يُحشـر في الصـورة الـتي تُناسـب عملـه، فيُبعـث منـوّراً جذّابـاً

قبره خرجَ معهُ مِثال يقدمه امامه، كلّما رأى المؤمن هـولاً مـن أهـوال يـوم القيامـة قـال لـه المثال: لا تفزع ولا تحزن وابشر بالسرور والكرامة من اللّه عزّوجلّ، حتى يقـف بـين يـدي اللّه عزوجل فيحاسبه حساباً يسيراً ويـأمر بـه الى الجنّة والمثال أمامـه، فيقـول لـه المؤمـن : يرحمك اللّه، نعم الخارج، خرجت معي من قبري وما زلت تبشرني بالسرور والكرامـة مـن اللّه حتى رأيت ذلك. فيقول : مَن أنت؟ فيقـول : أنـا السـرور الـذي كنـت أدخلتـه علـى أخيك المؤمن في الدنيا، خلقني اللّه عزوجل منه لابشّرك». وفي تجسّد الصدقة قـال رسـول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : «أرض القيامة نار مـا خـلا ظـلّ المؤمـن فـإنَّ صدقتـه تظلّـه» البحار، ج٧، ص : ١٩٧، ٢٩٢. [المترجم]

(١) الزلزلة : ٥ – ٨ .

مشعّاً، امّا إذا كان عمله سيّئاً، فإنّه يُحشر في الصورة التي تُناسب عمله السيّئ.

وبذلك فانَّ مصير الإنسان في القيامة ومُنقلبه إلى الجنّة أو النار، وفضيحته أمام الأشهاد أو إسدال ستر اللّه عليه، انّما يرتبط بعمل الإنسان نفسه في هذه الدنيا[1].

إحضار أعمال الإنسان

من الآيات الأخرى التي ترتبط بموضوع بحثنا قوله تعالى في سورة الأنبياء: «وإن كان مثقال حبّةٍ من خردلٍ اتينا بها وكفى بنا حاسبين»[2].

الآية صريحة في احضار اللّه (سبحانه) لعمل الإنسان حتى لو بلغ من الصغر حبّة من خردل، وفي الآية ما يشير كذلك إلى دقّة الحساب.

وبذلك يتّضح انَّ ما يعمله الإنسان من خير أو شر وان قلَّ، سيأتي به اللّه ويحضر أمام الإنسان في صفّ المحشر.

وثمّة آيات أخرى كثيرة تؤكّد هذا المعنى، نكتفي منها بقوله (تعالى): «وما تُقدّموا لأنفسكُم من خيرٍ تجدوهُ عندَ اللّه»[3].

وقوله (تعالى): «ونقولُ ذوقُوا عذاب الحريقِ ذلكَ بما قدَّمت أيديكُم وانَّ اللّه

---

(١) الأحاديث التي تؤكّد رؤية العباد لأعمالهم ومرافقتها لهم كثيرة جدّاً، من ذلك مثلاً قول الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام): «أعمال العباد في عاجلهم نصب أعينهم في آجلهم» نهج البلاغة، الحكمة رقم (٦).

وكذلك قوله (عليه السلام): «فان كان للّه وليّاً أتاه أطيب الناس ريحاً وأحبّهم منظراً وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروحٍ وريحان وجنّة نعيم ومقدمك خير مقدم. فيقول له: مَن أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح»، امّا إذا كان من أهل الشرّ فسيأتيه عمله بصورة «أقبح ما خلق اللّه زياً وأنتنه ريحاً، فيقول: ابشر بنزلٍ من حميم وتصلية جحيم». الكافي، ج٣، ص٢٣١. [المترجم]

(٢) الأنبياء: ٤٧.

(٣) البقرة: ١١٠.

ليسَ بظلاّمٍ للعبيد »[1].

وقوله (تعالى) : « واتّقوا يوماً تُرجعونَ فيه إلى اللّه ثم تُوفّى كلّ نفسٍ ما كسبت وهم لا يُظلمونَ »[2].

تنبيه

أجد من المناسب جدّاً أن نفكّر ونتدبّر في آيات اللّه هذه، وان لا نهملها أو نمرّ عليها مرور الكرام. انَّ الدنيا زائلة لا تدوم، ولابدَّ أن يأزف يوم الرحيل. وفي يوم رحيلنا علينا ان نحمل معنا متاعنا؛ وما متاعنا في سفرنا، وما زاد معادنا إلاّ ما نقوم به في حياتنا الدنيا وما أعددناه في سني عمرنا وأيّامه ولحظاته.

يقول تعالى : « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلاّ متاع ».

ويقول تعالى في بيان مشهدٍ من مشاهد أهل النار : « فالّذين كفروا قُطّعت لهم ثيابٌ من نار يُصَبّ من فوقِ رؤُسِهِمُ الحميمُ يُصهرُ بهِ ما في بُطُونهِم والجلُودُ ولهُم مقامعُ من حديدٍ »[3].

---

(١) آل عمران : ١٨٢ - ١٨٣ .

(٢) البقرة : ٢٨١ .

(٣) الحج : ١٩ - ٢١ .

الفصل التاسع

علاقة الجزاء بالعمل

اتّضح من مباحث الفصول السابقة انَّ أعمال الإنسان في الدنيا هي التي تقرِّر مصيره وحياته في الآخرة، وانَّ علاقة الدنيا بالآخرة كعلاقة «الزرع» بـ «الحصاد»، فالإنسان يحصد هناك ما يزرع هنا.

لذلك أصبح من السهل علينا الاجابة على الشبهة التي تُصاغ بهذا السؤال : هل ثمّة تناسب بين أعمال الإنسان والجزاء الإلهي ثواباً كان أم عقاباً؟

وسهولة الجواب تتأتّى ممّا أوضحناه سابقاً من أنَّ عدم رعاية الإنسان لأحكام الشرع الإسلامي كالصلاة والصوم، تصنع فى الإنسان مَلَكة، والملكة تحدِّد بدورها هويّة الإنسان وتصنعها له، والإنسان في الآخرة يظهر ويُحشر بهويته الدنيوية التي أحدثتها ملكته، وتتجسّم أعماله وتكون برفقته.

وبذلك يتّضح انَّ عمل الإنسان وجزاءه ليسا شيئين منفصلين وانّما هما شيء واحد.

وينبغي أيضاً أن لا ننظر إلى علاقة الجزاء بالعمل على شاكلة نظرتنا إلى القانون أو إلى اتفاق ما، بحيث ننتظر أن يكون التناسب بين الذنب والجزاء شرطاً في الموضوع. وانّما الجزاء والعمل يُشبهان في علاقتهما، علاقة العلّة بالمعلول[1].

---

(١) لذلك جاء في الحديث : انَّ أهل النار يخلدون في النار بنيّاتهم، وكذا أهل الجنّة، فقد روي انَّ رجلاً يهوديّاً سأل النبي (صلّى اللّه عليه وآله) بقوله : يا محمّد! ان كان ربك لا يظلم فكيف يُخلّد في النار أبد الآبدين مَن لم يعصه إلاّ أيّاماً معدودة؟ فأجاب (صلّى اللّه عليه وآله) : « يخلّده على نيّته. فمن علم ان نيّته انّه لو بقي في الدنيا إلى انقضائها كان يعصي

تماثل العمل والجزاء

عندما يشرب الإنسان جُرعة من السم الزعاف ويموت على أثرها، فلن يكون ثمّة مجال للاعتراض بأن ليس هناك تناسب بين العلّة والمعلول؛ ولا مجال للسؤال؛ لماذا أدّت لحظة اشتباه واحدة وجرعة قليلة من السم إلى الموت ؛ أو أن يقول قائل انّ الموت الذي هو نتيجة العمل لا يتناسب مع فعل الإنسان الذي قاد إليه.

انّ مثل «العمل» و «الجزاء» كمثل «تناول السم» و «الموت» اثر ذلك. ثمّ،علينا أن نعي أن تجسّم الأعمال أعمق من علاقة العلّة بالمعلول، فتجسّم الأعمال بحث في «العينية»، أي انّ «العمل» و «الجزاء» هما عين بعضهما البعض.

أي : «ان كان خيراً فخيراً، وإن كان شرّاً فشرّاً»[1].

ونستطيع أن نقرّب صورة العلاقة هذه بين «الجزاء» و «العمل» من خلال مثال الوجود الذهني والوجود الخارجي. حيث ستكون الدنيا بمثابة «الوجود الذهني»، فيما تكون الآخرة نظير «الوجود الخارجي».

ومن الواضح انّ هذين الوجودين يعبّران عن حقيقة واحدة، بل هما حقيقة واحدة، والفرق بينهما انّ الوجود الذهني يُعتبر أضعف بقدرٍ معيّن من الوجود الخارجي.

وبهذا البيان يتّضح انتفاء أصل الاشكال الذي يقوم عليه السؤال الذي افتتحنا به الفصل عن التناسب بين العمل والجزاء.

التوبة

من النقاط الأخرى التي ينبغي التذكير بها في بحوث هذا الفصل، هي مسألة

الله، خلّده في ناره على نيّته، ونيّته في ذلك شرّ من عمله». علم اليقين، ج٢، ص١٠٥٥.
[المترجم]

(١) يُراجع : علم اليقين، ج٢، ص٨٨٤ .

التوبة والعفو عن الذنوب. والسرّ في اتصال هذه المسألة بما نحن فيه من بحث في علاقة العمل بالجزاء؛ انَّ الإنسان قد يشتبه عليه الأمر فيسأل : إذا كان العمل والجزاء يصدران ويعبران عن حقيقةٍ واحدة، رغم كونهما - في الظاهر - وجودين مختلفين، فكيف إذاً تُغفر للإنسان ذنوبه بالتوبة، فلا يعدّ بعد التوبة مسؤولاً عن أعماله، حاملاً لتبعاتها؟

الذي نستفيده من الأحاديث والروايات الشريفة انَّ التوبة عن الذنب موجبة للتخلّص من نار جهنّم وأهوال عذاب الآخرة، من لسع الأفاعي والعقارب، والغلّ بالسلاسل والاصفاد، وأكل الزقوم وشرب الحميم وغير ذلك من صنوف العذاب الأخروي. كما تنقذ التوبة صاحبها من عذاب البرزخ أيضاً[1].

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله (تعالى) : «يا عباديَ الذين أسرفُوا على أنفُسهم لا تقنَطوا من رحمة اللّه، انَّ اللّه يغفرُ الذنوب جميعاً»[2].

على الإنسان اذن أن لا يقنط من رحمة اللّه ولا ييأس منها، مهما بلغت وطأة الذنوب، لأنّه (سبحانه) يقول : «ولا تيأسوا من روح اللّه انّهُ لا ييأس من روح اللّه إلاّ القوم الكافرون»[3].

لذلك فإنَّ التائب عن ذنبه، الآيب إلى اللّه (سبحانه) يكون كمن لا ذنب له. فقد جاء في الحديث النبوي الشريف : «التائب من الذنب كمن لا ذنب له»[4].

---

(١) من الأحاديث التي يشير إليها المؤلف ما جاء عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) في قوله: «التائب من الذنب كمن لا ذنب له». وقوله (صلّى اللّه عليه وآله) : «إنّ اللّه يقبل توبة عبده ما لم يُغرغر، توبوا إلى ربّكم قبل أن تموتوا». وكذلك قول أمير المؤمنين (عليه السلام) : «لا شفيع أنجح من التوبة». البحار، ج٦، ص١٩، ٢١. [المترجم]

(٢) الزمر : ٥٣.

(٣) يوسف : ٨٧ .

(٤) الوسائل، ج١١، ص٣٥٨ .

والذي نستخلصه من هذه الإشارات، انَّ اللّه (سبحانه) يغفر للإنسان ذنوبه ومعاصيه على أثر توبته، وقد سبق ان ذكرنا في فصل «تجسّم الأعمال» انَّ ذنوب الإنسان تتجسَّم فترافق الإنسان بعد موته وتُحشر معه، ومن هنا يمكن للمرء أن يسأل : ماذا سيكون مصير الأعمال المتجسّمة بعد التوبة، لا سيما انَّ أعمال الإنسان لا تفنى ولا تُعدم، كما تقدّم؟

وفي الإجابة على هذا السؤال وجهتا نظر، نشير إليهما كما يلي:

الرأي الأوّل : ممّن يذهب إليه من العلماء المعاصرين العلاّمة الشيخ محمد حسين الأصفهاني (رحمه اللّه)، حيث يرى هذا الرجل الربّاني، انَّ ذنوب الإنسان التائب تنفصل عنه بالتوبة، بحيث تبتعد عنه الأعمال السيّئة التي تجسّمت بصور تناسب المعاصي.

وهذا هو ما يودّه الإنسان المذنب في القيامة، حيث يرغب ان تبتعد عنه ذنوبه وأن يكون بينه وبينها أمداً بعيداً، وهذا الذي يمتنع حصوله هناك.

يقول تعالى في ذلك : «يومَ تجدُ كلّ نفسٍ ما عَمِلَتْ من خيرٍ مُحضراً وما عَمِلَتْ من سوءٍ تَوَدّ لو أنَّ بينها وبيْنَهُ أمداً بعيداً»(١).

الذي عليه رأي المحقّق الاصفهاني اذن انَّ التوبة تفصل بين الإنسان وبين أعماله السيّئة وذنوبه، بحيث لا تكون هذه الأعمال والذنوب باعثاً على عذابه.

والاصفهاني (رحمه اللّه) يُفسّر غفران الذنوب أيضاً بهذا الاسلوب.

الرأي الثاني : ويذهب إليه استاذنا الكبير الخميني الذي يرى انَّ التوبة تمحو الذنوب وتفنيها، بحيث تمحى معها صحائف المعاصي السوداء وتُطهّر بماء التوبة. ومعنى هذا الكلام انَّ الصور المجسّمة للذنوب والتي تُحشر في يوم القيامة مع الإنسان وتُرافقه بصورة الكلب والأفعى والعقرب والزقوم والحميم وسلاسل النار وأصفادها، تفنى بالتوبة وتُعدم، وتُطفأ عن التائب نيران جهنّم.

---

(١) آل عمران : ٣٠ .

تمحيص الرأيين

يظهر من البحث والتحقيق انَّ الحق مع الصنف الثاني[1]،لانَّ القرآن الكريم ينص بصراحة على استبدال سيّئات التائب وخطاياه بالحسنات، وانَّ المذنبين وأهل المعاصي ينهبون إلى النار، فيمكثون في ذلّها ونارها لأمدٍ طويل - وبعضهم يخلّد فيها - إلاّ التائبين الذي تُستبدل صحائف أعمالهم السوداء بصحائف جديدة تكون فيها سيّئاتهم قد بُدّلت إلى حسنات.

يقول تعالى : «إلاّ مَن تابَ وآمَن وعَمِلَ صالحاً فأولئك يُبدّلُ اللّه سيّئاتهم حسناتٍ وكانَ اللّه غفوراً رحيماً»[2].

يتّضح ممّا مرّ انَّ التوبة تبدّل عذاب النار إلى الجنّة ونعمها، وتستبدل الغل والاصفاد والسلاسل بالأنهار والأشجار ولذائذ الجنّة الأخرى.

المؤمن لا يرد جهنّم

نقرأ في الروايات انَّ المؤمن لا يرد إلى جهنّم قدر الإمكان، فهو يُبتلى في دار

---

(١) تصرّح الأحاديث الشريفة بأنَّ التوبة تؤول إلى محو ذنوب التائب وابدالها بالحسنات، وانَّ اللّه من لطفه يُنسي الكرام الحافظين ما كانوا قد سجلوه من ذنوب الإنسان، بعد توبته. ومن ذلك ما اشتهر عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) : «العجب ممّن يقنط ومعه المحاة! فقيل له : وما المحاة؟ قال : الاستغفار».
وكذلك ما ورد عن الإمام الصادق (عليه السلام) من انَّ اللّه أوحى إلى نبيّه داوود (عليه السلام) قوله : «يا داوود إنّ عبدي المؤمن إذا أذنب ذنباً ثم رجع وتاب من ذلك الذنب واستحيا منّي عند ذكرهُ، غفرت له، وأنسيته الحفظة، وأبدلته الحسنة».
وفي حديث آخر قال (عليه السلام) في الستر على التائب : «يُنسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، وأوحى إلى جوارحه : اكتمي عليه ذنوبه، وأوحى إلى الأرض : اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب». البحار، ج٦، ص٢٢، ٢٨. [المترجم]

(٢) الفرقان : ٧٠.

الدنيا بالفقر والألم والمرض وضروب المصائب الأخرى التي تحتسب كفارة لـه عـن ذنوبه، أي انَّ المؤمن يطهر من ذنوبه في الدنيا بألوان الابتلاء.

امّـا إذا كـانت ذنوبـه أكـثر مـن ذلـك، بحيـث لا تكفـي في كفّارتهـا بـلاءات الدنيـا ومصائبهـا، فـإنَّ اللّـه سـبحانه يشـدِّد عليـه حـين المـوت لكـي يطهّـره مـن ذنوبه[1].

ولو كانت ذنوبه أكبر من أن تغفر له بشدائد الموت، فإنّـه يبتلـى بعـذاب القـبر والبرزخ حتى يكون ذلك كفّارة لذنوبه فيستحق بعدها الجنّة. وإذا كانت ثمّة بقيّـة من الذنوب، فإنَّ صاحبهـا يُبتلـى بشـدائد يـوم القيامـة في الحشـر وعنـد الحسـاب لتكون كفّارة له.

امّـا إذا لم تسـتنفد كـل هـذه المراحـل ذنـوب المؤمـن و لم تصـل بـه إلى درجـة التطهير، فهو يرد النار، ولكنّه يبقى فيها إلى الحدّ الذي ينقى فيه مـن الذنـوب، ثـم يخرج من النار، ويطهر بماء الكوثر ويُذهب به إلى الجنّة.

جهنم لطفٌ إلهي

يتّضح ممّا مرّ حكمة ما يذهب إليه استاذنا الإمام الخميني في قوله : «ان جهنّـم

---

(١) الأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا، منها : « قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : قال اللّه (تعالى) : ما مِن عبدٍ أُريدُ أن أُدخله الجنّة إلاّ ابتليته في حسده، فإن كـان ذلـك كفّـارة لذنوبه، وإلاّ سلّطت عليه سلطاناً، فإن كان ذلك كفّـارة لذنوبـه، وإلاّ شـددت عليـه عنـد الموت حتى يأتيني ولا ذنب له، ثم أدخله الجنّة ». علم اليقين، ج٢، ص١٠٥٠. وكذلك : بحار الأنوار، ج٦، ص١٧٢.

وفي المعنى نفسه قال الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) : « مـا مـن شيعتنا أحـدٌ يقـارف امـراً نهيناه عنه فيموت حتى يُبتلى ببليةٍ تُمحّص بها ذنوبه؛ إمّـا في مـالٍ أو وَلَـدٍ، وإمّـا في نفسـه، حتى يلقى اللّه محبنا وما له من ذنب. وانّهُ ليبقى عليه شـيءٌ مـن ذنوبـه فيُشـدّد عليـه موتـه فتمحص ذنوبه ». الخصال، ج٢، ص٦٣٧، في حديث الاربعمائة. [المترجم]

واحدة من الألطاف الإلهية الكبرى». فهي تطهّر الإنسان من خبثه وكدورته، وتُذهِب بهويّته التي اكتسبها باقتراف الذنوب وتَحوَّلَ بها إلى صورة الخنزير أو غيره، لتعود به إلى هويته الإنسانية الأصيلة[1].

وعلينا أن نعرف انَّ هذا التطهير يتمّ بالنسبة للإنسان الذي يملك الاستعداد الكافي لذلك. امّا الذي يفتقد أرضية التطهير من الخباثة، فهو في النار مُخلَّد، ومن هذا الصنف مَن تتحدّث عنه الآية الكريمة : «انَّ اللّه لا يغفر انْ يُشرك به ويغفرُ ما دونَ ذلك لمن يشاء»[2].

أثر التوبة في النفوس

أكّدنا مراراً انَّ لأعمال الإنسان وما يقوم به آثاراً متعدّدة، منها:

أوّلاً : تجسّم الأعمال في الآخرة وفقاً لأحد المعنيين اللذين شرحناهما فيما مضى.

ثانياً : الأثر الذي ينطبع على النفس ويبقى فيها، وهذا الأثر هو ما تؤدي إليه أفعالنا وأقوالنا ونيّاتنا من تفتّح الجنبة الإنسانية في شخصيتنا، أو استبدال الصفة الإنسانية بالحيوانية.

ثالثاً : ما نودّ أن نشير إليه الآن، وهو ما تتركهُ أعمالنا ونيّاتنا على قلوبنا من انعكاسات، بحيث يمضي قلبنا مضيئاً في الحياة، أو يكون مظلماً مدلهماً.

ويشير القرآن الكريم إلى هذا الأثر في القلوب، بقوله (تعالى) : «فويلٌ للقاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ من ذكر اللّه أولئك في ضلالٍ مبين»[3].

---

(١) لقد أشير في الفصل السابع إلى حديث رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : «يُحشر عشرة أصناف من أمّتي اشتاتاً.... بعضهم على صورة القردة وبعضهم على صورة الخنازير... » إلى آخر الحديث.

(٢) النساء : ١١٦ .

(٣) الزمر : ٢٢.

انّ ذكر الحق لا يؤثّر في قلوب قست كقلوب هؤلاء، لأنّهم أعرضوا عن أحكام اللّه وأوامره، وأهملوا الصلاة والصيام. امّا تلك الفئة من الناس التي تتعبّد بأحكام اللّه، وتحافظ على الأموال العامّة (أموال بيت المال) وتقوم بخدمة الناس وادخال السرور على قلوبهم، فإنّ قلوبها تُضيء بالنور وتعمر بالصفاء والاستقرار؛ والقلوب المنوّرة هي مساكن نزول رحمة اللّه تعالى.

أثر آخر

ثمّة أثر رابع لأعمالنا ونيّاتنا يرتبط معها بعلاقة تشبه علاقة العلّة بالمعلول. والمقصود من ذلك، انّ ذنب الإنسان يَبتَليه وعائلته أيضاً، وبالتالي فإنّ عاقبة المذنب وعائلته لن تؤول إلى خير؛ أي انّ الذنب لا تنحصر آثاره وعواقبه على الإنسان نفسه وانّما تمتدّ إلى أولاده أيضاً.

لذلك ينظر القرآن الكريم إلى تقوى الوالدين وقولهما قولاً سديداً، بوصفهما عامِلَين مؤثرين على عاقبة الأولاد، التي ستنقلب إلى خير.

يقول (تعالى) في ذلك : «وليخشَ الذين لو تَركُوا من خلْفِهِمْ ذريّةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا اللّه وليقولوا قولاً سديداً»[1].

انّ التقوى وشهادة الحق لمن العوامل التي تبعث على صلاح الأولاد وفلاحهم. وليس لأحدٍ أن يعترض بالقول : إذا أذنب الوالدان فما ذنب الأولاد في تحمّل جريرة ذنوب الوالدين وآثارها؟ وذلك لأنّ هذين الشيئين هما من سنخ العلّة والمعلول، وانّ الوالدين اللّذين يُدخلان النار إلى بيتهما (بارتكابهما الذنوب والمعاصي) عليهما أن يعيا جيّداً انّ نارهما هذه تحرق الأخضر واليابس، وتصيب الجميع بأسها ولهيبها.

ويحذّر القرآن الكريم بدوره من هذا الضرب من ضروب الفتنة في قوله

---

(١) النساء : ٩ .

(تعالى): «واتقوا فتنةً لا تُصيبنَّ الذين ظَلموا منكم خاصّة»(١).

انَّ نزاعاً جزئياً وخصاماً محدوداً في مدينـة أو مكـان عـام ينتهـي بإهانـة مسـلم وانتهاك كرامته، ربّما لا ترتد نتائجه وعواقبه السيئة على الشخص المذنب وحـده، وانّما تصيب ناره الجميع فيحترقون.

وكذا الحال بالنسبة للأعمـال الصالحـة الـتي يقـوم بهـا الوالـدان، إذ انَّ آثارهـا السعيدة لا تقتصر على الأب والأمّ وحسب، وانّمـا تمتـدّ لتشـمل بخيرهـا أولادهـم أيضاً، ممّا يكون سبباً لسعادتهم وخيرهم.

ثمّة أثر رابع لأعمالنا ونيّاتنـا يرتبـط معهـا بعلاقـة تشـبه علاقـة العلّة بـالمعلول. والمقصود من ذلك، انّ ذنب الإنسان يَبتَليه وعائلته أيضاً، وبالتالي فإنَّ عاقبة المذنب وعائلته لن تؤول إلى خير؛ أي انَّ الذنب لا تنحصـر آثـاره وعواقبـه علـى الإنسـان نفسه وانّما تمتدّ إلى أولاده أيضاً.

لذلك ينظر القرآن الكريم إلى تقوى الوالدين وقولهما قـولاً سـديداً، بوصفهمـا عامِلَين مؤثرين على عاقبة الأولاد، التي ستنقلب إلى خير.

يقول (تعالى) في ذلك : «وليخشَ الذين لـو تَركُـوا مـن خلْفِهِـمْ ذريّـةً ضعافـاً خافوا عليهم فليتّقوا اللّه وليقولوا قولاً سديداً».

انَّ التقوى وشهادة الحق لمن العوامل التي تبعث على صلاح الأولاد وفلاحهـم. وليس لأحدٍ أن يعترض بـالقول : إذا أذنـب الوالـدان فمـا ذنـب الأولاد في تحمّـل جريرة ذنوب الوالدين وآثارها؟ وذلـك لأنَّ هذيـن الشـيئين همـا مـن سـنخ العلّـة والمعلـول، وانَّ الوالديـن اللّذيـن يُدخـلان النـار إلى بيتهمـا (بارتكابهمـا الذنـوب والمعاصي) عليهما أن يعيا جيّداً انَّ نارهما هذه تحرق الأخضـر واليـابس، وتصيـب الجميع بيأسها ولهيبها.

ثمّة أثر رابع لأعمالنا ونيّاتنـا يرتبـط معهـا بعلاقـة تشـبه علاقـة العلّة بـالمعلول.

---

(١) الانفال : ٢٥ .

والمقصود من ذلك، انّ ذنب الإنسان يَبتَليه وعائلته أيضاً، وبالتالي فإنَّ عاقبة المذنب وعائلته لن تؤول إلى خير؛ أي انَّ الذنب لا تنحصر آثاره وعواقبه على الإنسان نفسه وانّما تمتدّ إلى أولاده أيضاً.

لذلك ينظر القرآن الكريم إلى تقوى الوالدين وقولهما قولاً سديداً، بوصفهما عامِلَين مؤثرين على عاقبة الأولاد، التي ستنقلب إلى خير.

يقول (تعالى) في ذلك : «وليخشَ الذين لو تَركُوا من خلْفِهِمْ ذريّةً ضعافاً خافوا عليهم فليتّقوا اللّه وليقولوا قولاً سديداً».

انَّ التقوى وشهادة الحق لمن العوامل التي تبعث على صلاح الأولاد وفلاحهم. وليس لأحدٍ أن يعترض بالقول : إذا أذنب الوالدان فما ذنب الأولاد في تحمّل جريرة ذنوب الوالدين وآثارها؟ وذلك لأنَّ هذين الشيئين هما من سنخ العلّة.

الفصل العاشر

منازل الآخرة

للآخرة، في الرؤية المستقاة من القـرآن وروايـات أهـل البيـت (عليهـم السـلام)، منازل مُتعدّدة، أوّلها الاحتضار، وانفصال روح الإنسان عن بدنه بالموت[1]، وآخرهـا ومنتهى سيرها جميعاً، ورود المؤمنين إلى الجنّة ثواباً، وورود المذنبين إلى النار عقاباً.

الاحتضار : المنزل الأوّل

الاحتضار هو المنزل الأوّل من منازل الآخرة الذي يعبّر عنه القرآن بـ«سكرات الموت»[2]، وهذه المرحلة تعتبر لبعض الناس من منازل السـرور والبركـة. فهـؤلاء يحضرهم عند الموت الإمام أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، وأحيانـاً المعصومون الأربعة عشر؛ وحالما يحين أجلهم يأتيهم «ملك الموت» بصورةٍ جميلة، ويتصرّف معهم بأسلوب حَسَـن إلى أن يقبـض أرواحهـم[3]، ثـم تتلقـاهم ملائكـة

---

(١) يقول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « والموت أوّل منزل من منـازل الآخـرة، وآخـر منزل من منازل الدنيا ». مصباح الشريعة، ص٥٨، عن تسلية الفؤاد، ص١٨. [المترجم]

(٢) يشير المؤلف إلى قوله (تعالى) : « وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنـت منـه تحيـد » ق : ١٩. [المترجم]

(٣) يشير المؤلف إلى قول رسول الله (صلّى اللّـه عليـه وآلـه) : « إذا أراد اللّـه تبـارك وتعـالى قبض روح المؤمن قال : يا ملك الموت انطلق أنت وأعوانك إلى عبدي، فطالما نصبَ لنفسه من أجلي فَأْتِني بروحه لأُريحه عندي، فيأتيه ملك الموت بوجهٍ حَسن وثيـابٍ طـاهرة وريـحٍ طيّبة...؛ معه خمسمائة ملك أعوان معهم طنان الريحان والحرير الأبيض والمسك الأذفـر.. »

الرحمة (أي تتلقى أرواحهم) بالسلام والتحيّات، فتعرج بأرواحهم إلى عالم الملكوت، وعندما تصل حدود كلّ سماء من السماوات، فان أهلها وسكّانها يستقبلون روح هذا الإنسان بالفرح ويتلقونها بالسرور، إلى أن تصل الروح إلى عرش الربوبية وتكون في محضر اللّه (سبحانه)، ثم تعود إلى منزلها الأصلي بانتظار قيام الساعة(١) تصف الروايات والأحاديث الشريفة الموت بالنسبة لهؤلاء كحال من يشمّ العطر(٢)، فهؤلاء يبقون منعّمين في الجنّة البرزخية إلى أن تقوم الساعة ويحشر الناس.

وقد أشار القرآن الكريم في آيات كثيرة إلى موت المؤمنين ومُنقلبهم وما يتلقونه من البشرى والسرور، نشير منها إلى ما ورد في الآيات التالية :

يقول تعالى : « انَّ الذينَ قالوا ربّنا اللّه ثُمَّ استقامُوا تتنزَّل عليهم الملائكةُ ألاّ تخافُوا ولا تَحْزَنُوا وابشرُوا بالجنّة التي كُنتُم توعَدون نحنُ أولياؤكم في الحياة الدنيا

الاختصاص، عن تسلية الفؤاد، ص٢٢٢. وكذلك أخرج الفريقان في المعتبر من كتبهم انَّ إبراهيم الخليل (عليه السلام) سأل ملك الموت أن يُريه الصورة التي يقبض فيها روح المؤمن « فإذا هو شابّ، فذكر من حسنه وثيابه وطيب ريحه، فقال (عليه السلام) : يا ملك الموت، لو لم يلقَ المؤمن من البشرى إلاّ حسن صورتك لكان حسبه ». علم اليقين، ج٢، ص٨٤٦. وكذلك : احياء علوم الدين، ج٤، ص٤٦٤. [المترجم]

(١) ثمّة حديث طويل لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) يشير فيه إلى انتقال روح المؤمن إلى السماوات وحضورها بين يدي اللّه (سبحانه) ثم عودتها إلى مكانها. وعند حضور الروح عند بارئها يخاطبها تعالى بقوله، كما في نص الحديث عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): « رحمتي عليك من روح » يُراجع حديث الرسول الأعظم بهذا الشأن في : الاختصاص، وبحار الأنوار، ج٦، ص١٦١، وغيرهما. [المترجم]

(٢) يشير المؤلف إلى الحديث المروي عن الإمام الصادق (عليه السلام) عندما سُئِلَ أن يصف الموت، فقال : « للمؤمن كأطيب ريحٍ، يشمّه فينعس لطيبه، وينقطع التعب والألم كلّه عنه». ولذلك جاء في الحديث عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : « الموت تحفة المؤمن». البحار ج٦، ص١٥٢، وعلم اليقين، ج٢، ص١٠٨٣. [المترجم]

وفي الآخرة »[1].

والآية الكريمة تشير إلى انَّ من ترسّخت حقيقة التوحيد فيه، ووقر الإيمان في قلبه بأعماله الصالحة بحيث وصل إلى درجة الاستقامة، فهو لا يخاف الموت. وهؤلاء هم من يؤدّون الصلاة في أوّل وقتها، ويؤدّون النوافل، ويحفظون ألسنتهم وجوارحهم عن الذنب والمعصية، ويؤدّون الصيام، ويؤتون الزكاة والخمس، ويحجّون البيت الحرام، ويجاهدون في سبيل اللّه.

ويقول تعالى : « ان الذين تتوفّاهمُ الملائكةُ طيّبين يقولون سلامٌ عليكم ادخُلوا الجنّة بما كُنتُم تعملُون »[2].

وإذا كانت الآيتان الكريمتان السابقتان قد تحدّثتا عن حالات احتضار المؤمنين ومآلهم بعد الموت، فانَّ القرآن الكريم يصف حال هؤلاء في صورة ثالثة وجديدة بقوله (تعالى) : « أَلَمْ تَرَ كيفَ ضَرَبَ اللّه مَثلاً كَلِمَةً طيِّبةً كشجرَةٍ طيِّبةٍ أصلُها ثابت وفرعُها في السماء تُؤتي أُكُلَها كلّ حينٍ بإذنِ ربِّها وَيضرِبُ اللّه الأمثالَ للناسِ لعلّهُم يتذكّرون »[3].

تتضمّن هذه الآية الكريمة تشبيه المعقول بالمحسوس، بمعنى انَّ كلمة « لا إله إلاّ اللّه » إذا استحكمت في القلب بواسطة العمل الصالح وترسَّخت فيه، فانّها ستوجب استقرار الإيمان. والإنسان الذي يدخل الإيمان إلى قلبه ويستقرّ فيه، لن يتعامل مع العبادات وصنوف الطاعات والأعمال الحسنة الصالحة تعاملاً زمنيّاً طارئاً، وانّما سيكون بعيداً عن المحرّمات باستمرار، مُنكباً على اداء الواجبات والقيام بالمستحبّات، وسيبذل جهده في إعانة الناس وفي الجهاد. ومثل هذا الشخص سترافقه الخشية الدائمة من ارتكاب الذنوب، والخوف والوجل الدائب من نار جهنّم وعذابها.

---

(١) فصلت : ٣٠ - ٣١ .

(٢) النحل : ٣٢.

(٣) إبراهيم : ٢٤.

وعبادة هذه الفئة من الناس لن تكون عبادة موسمية، كما يحصل للبعض، فهؤلاء كما يأنسون في شهر رمضان المبارك بكتاب اللّه، فيتلونه ويختمونه، فانّهم يتعاملون مع القرآن بنفس الروح بعد انتهاء شهر رمضان، حيث يُواصلون تلاوته والتدبّر في آياته والتعاطي معه بما يُناسبه؛ والسرّ في ذلك انَّ الإيمان عند هؤلاء مستحكِم الجذور، ثابت القواعد، وأغصانه محمَّلة بالثمار القادرة على العطاء في كلّ حين.

قصّة في الاحتضار

أمام الإنسان أشواطاً خطيرة ومراحل مهولة ومنازل عظيمة، والاحتضار أهم المنازل وأكثرها مشقّةً وصعوبة[1]؛ إلاّ لتلك الفئة التي اهتدت لطريق اللّه، واستعدّت للقائه بطيب خاطر؛ فالاحتضار بالنسبة لهؤلاء ليس سهلاً وحسب، وانّما تجدهم على عجلةٍ شوقاً وحبّاً للقاء اللّه سبحانه[2].

ومن هؤلاء العالمُ الربّاني الميرزا جواد الملكي التبريزي (رحمه اللّه)[3]، حيث

---

(١) جاء في الحديث عن النبي (صلّى اللّه عليه وآله) قوله : « لَسكرةٌ من سكرات الموت أشدّ من ثلاثمائة ضربة بالسيف ». وكذلك قول الإمام علي (عليه السلام) : « إنَّ للموت لَغمرات هي أفظعُ من أن يستغرق (بستوصف) بصفة، أو تعتدل على عقول أهل الدنيا ». يلاحظ في الأوّل : علم اليقين، ج٢، ص٨٥١، وفي الثاني : نهج البلاغة ، الخطبة ٢١٩. [المترجم]

(٢) يقول رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) في حال هؤلاء : « مَن أحبَّ لقاء اللّه أحبَّ اللّه لقاءه » . مصباح الشريعة، ص٥٨.

(٣) سبق أن أشرنا اختصاراً إلى مكانة المرحوم الشيخ جواد التبريزي، وانّه رمز كبير في المدرسة التي يعود منهاجها في القول والعمل والسير والسلوك إلى اللّه؛ إلى السيّد الجليل جمال الدين بن طاووس. ومن أبرز مؤلفات المرحوم التبريزي :
كتاب أسرار الصلاة، طُبعَ على الحجر سة ١٣٣٩ هـ- وبالحروف سنة ١٣٨٠ هـ-.

يذكر أحد أصدقائه في كيفية احتضاره انَّ الميرزا جواد التبريزي أرسل إليه يوماً وطلب منه الحضور، ويقول الصديق المذكور: عندما وصلت إلى الميرزا التبريزي وجدته قد استحمَّ، واختضب، ثم تمدّد بملابس نظيفة على فراش المرض بهدوء واستقرار، بانتظار حلول وقت صلاة الظهر. وعندما حلَّ وقت الفريضة، شرَعَ وهو على فراش المرض بالاذان ثم بالإقامة استعداداً لاداء فريضة الظهر. ثم بدأ بالتكبيرات المستحبة التي تسبق تكبيرة الاحرام، ولكنّه حالما لفظ الجملة الشريفة «اللّه أكبر» ليدخل بها إلى الفريضة، أسلم الروح بهدوء واطمئنان، لتعود إلى بارئها، وتلتحق بالملأ الأعلى، وتحلّق عائدة إلى منزلها الأصلي.

احتضار الكفّار

ان الاحتضار بالنسبة للكفّار مؤلم جدّاً، لأنَّ ارتباطهم بالدنيا عميق الجذور، وقد أخذت منهم زخارف الدنيا وشهواتها مأخذاً، بحيث يصعب لنفوسهم وقلوبهم أن تنفصل عنها.

لا يرى الكفّار أثناء احتضارهم «ملك الموت» في صورته الحقيقية الجميلة، لأنَّ المعاصي قد ملكت وجودهم برمّته، وأغرقتهم في بحرها.

وفي هذا السياق تحدّثت الروايات، انَّ إبراهيم الخليل (عليه السلام) قال لملك الموت: «هل تستطيع أن تريني صورتك التي تقبض فيها روح الفاجر؟ قال: لا تطيق ذلك، قال: بلى، قال: فأعرض عنّي؛ فأعرض عنه ثم التفت فإذا هو برجلٍ أسود، قائم الشعر، مُنتن الريح، أسود الثياب، يخرج من فيه ومناخره لهيب النار والدخان، فغشي علي إبراهيم، ثم أفاق، فقال: لو لم يلقَ الفاجر عند موته إلاّ

كتاب السير إلى اللّه، المعروف برسالة لقاء اللّه، ولَه طبعات متعدّدة.

كتاب المراقبات أو أعمال السنة، وهو كتاب كبير النفع جليل الفائدة.

وقد توفي المرحوم في يوم عيد الأضحى سنة ١٣٤٣ هـ- بعد رحلة حافلة بالأخلاق والمعرفة أمضاها بين مدينتي قم (من مدن إيران) والنجف الأشرف (من مدن العراق). [المترجم]

صورة وجهك لكان حسبه»[1].

وقد ورَدَ في كيفية قبض روح الكافر، انَّ ملائكة العذاب تحضر عند رأسه، ومعهم سياط من قلب جهنم، فيضربون بها وجه الكافر ورأسه. ثم يبدأ ملك الموت بقبض روحه وهو على هذه الشدّة والعذاب، فتكون الروح وكأنّها تخرج من كلّ شريان وعضو ومفصل وشعرة. ثم تؤخذ روحه ليعرج بها نحو بارئها لتكون بين يديه، وفي مسير الروح عبر السماوات تتجلّى بصورتها وهويتها الحقيقية، إذ تظهر أحياناً لأهل السماء بصورة الكلب، وأحياناً بصورة الخنزير، وربّما تجلّت بهويّات أخرى. وعندما تكون الروح بين يدي الله (سبحانه) يأتيها الخطاب القاهر بالمهانة والطرد من محضر الله[2].

بعد هذه الرحلة الشاقّة المهينة تعود الروح إلى منزلها الأصلي لتذوق العذاب البرزخي إلى يوم يُبعثون[3].

ويتحدّث القرآن الكريم في مشاهد مختلفة عن قبض أرواح هؤلاء، نشير منها إلى الصور التالية :

يقول (تعالى) : «ولو ترى إذ يتوفّى الذين كفروا الملائكة يضربون وجُوهَهُمْ وأدبارَهُم وذُوقوا عذاب الحريق»[4].

---

(١) نقلنا نص الرواية عن : البحار، ج٦، ص١٤٣، وقد سبقت الإشارة إلى انَّ الحديث ممّا تذكره مصادر الفريقين. يلاحظ مثلاً : احياء علوم الدين، ج٤، ص٤٦٤. [المترجم]

(٢) سبق ان أشار المؤلف (في الفصل الثاني) إلى رواية الشيخ المفيد عن الإمام الصادق (عليه السلام) التي تصف بشكل مفصّل كيفيّة قبض روح الكافر. والذي نجدّد الإشارة إليه، انَّ الخطاب الإلهي في طرد أرواح هؤلاء يأتي صيغة «يقول الله : ردوها عليه (أي روحه)، فمنها خلقتهم وفيها أُعيدهم ومنها أخرجهم تارةً أخرى». [المترجم]

(١) لذلك جاءت الإشارة في الحديث الشريف، إلى انَّ الموت «للكافر كلسع الأفاعي ولدغ العقارب أو أشدّ». البحار، ج٦، ص١٥٢. [المترجم]

(٤) الأنفال : ٥٠.

وكذلك قوله (تعالى) : «ولو ترى إذ الظالمونَ في غَمَراتِ الموتِ والملائكةُ باسطُوا أيديهم أخرجُوا أنفُسَكُم اليومَ تَجزونَ عذاب الهونِ بما كُنتُم تقولون على الله غير الحقّ وكُنتُم عن آياتهِ تستكبرون»[1].

وأيضاً؛ قوله (تعالى) : «وَمَثَلُ كَلِمةٍ خبيثةٍ كشجَرَةٍ خَبيثةٍ اجتُثّت من فوقِ الأرض مالَها مِن قَرارٍ»[2].

تشير هذه الآية الكريمة إلى حقيقة مهمّة على هذا الصعيد، فالذي لا تترسّخ في وجوده كلمة «لا إله إلاّ الله»، أي الذي يفتقد قلبه لحقيقة التوحيد، فسيكون مهزوزاً هشّاً كمن لا قرار له، وسيمضي عن هذه الدنيا فقيراً من زاد الآخرة، مريضاً، وقد نزلت به المصيبة من كلّ جانب.

انّ إنساناً كهذا يمثّله القرآن الكريم بـ «الشجرة الخبيثة» حيثُ نما وجوده وتطاوَل بناء شخصيّته من خلال المعاصي وارتكاب المحرّمات والابتعاد عن الواجبات الإلهية؛ انّهُ موجود مملوء بالشؤم، وإنسان مثل هذا تجد كلامه وفكره ونيّته وعمله تنضح بالشرّ.

رواية أخرى في الاحتضار

جاء في الحديث الشريف : انّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حضر شاباً عند وفاته، فقال : قل «لا إله إلاّ الله».

قال : فاعتقل لسانه مراراً، فقال لامرأةٍ عند رأسه : هل لهذا أُمّ؟

قالت : نعم، أنا أمّه.

قال : أفساخطة أنتِ عليه؟

قالت : نعم، ما كلّمته منذ ست حجج.

قال لها : إرضي عنه.

---

(١) الأنعام : ٩٣ .

(٢) إبراهيم : ٢٦.

قالت : رضي اللـه عنه يا رسول اللـه برضاك عنه.

فقال له رسول اللـه : قل «لا إله إلاّ اللـه».

قال : فقالها، فقال له النبي (صلّى اللـه عليه وآله) : وما ترى؟

قال : أرى رجلاً أسود الوجه، قبيح المنظر، وسخ الثياب، منتن الريح، وقد وليني الساعة وأخذ بكظمي.

فقال له (صلّى اللـه عليه وآله) : قل : يا مَن يقبل اليسير، ويعفو عن الكثير، اقبل منّي اليسير، واعف عنّي الكثير، انّك أنت الغفور الرحيم.

فقالها الشاب، فقال : انظر ماذا ترى؟

قال : أرى رجلاً أبيض اللون، حسن الوجه، طيِّب الريح، حسن الثياب، وقد وليني، وأرى الأسود قد تولّى عنّي.

فقال له : أعدها، فأعادها. فقال له : ما ترى؟

قال : لست أرى الأسود، وأرى الأبيض قد وليني، ثم طفي على تلك الحال»[1].

حضور أمير المؤمنين عند المحتضر

تؤكّد الأحاديث الشريفة، حضور الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عند المحتضر سواء أكان مؤمناً أم كافراً أم منافقاً[2]. ولكن حضوره (عليه السلام)

---

(١) المستدرك، ج١، ص٩٢، وكذلك تلاحظ في الفقيه والبحار. ولكن الذي نُعنى به الآن ان نشير بشكل مؤكّد إلى وصيّة رسول اللـه في قوله (صلّى اللـه عليه وآله) : «ولقّنوا موتاكم لا إله إلاّ اللـه، فانّها أنيس للمؤمن حين يمرق من قبره». البحار، ج٧، ص٢٠٠. [المترجم]

(٢) الروايات مستفيضة في رؤية المحتضر لرسول اللـه (صلّى اللـه عليه وآله) وأهل بيته (عليهم السلام)، من ذلك مثلاً ما في البحار : قال رسول اللـه (صلّى اللـه عليه وآله): والذي نفسي بيده لا تفارق روح جسد صاحبها حتى تأكل من ثمار الجنّة...؛ وحين ترى ملك الموت تراني وترى عليّاً وفاطمة وحسناً وحسيناً (عليهم السلام).

يختلف من فئة إلى أخرى، إذ يحضر أحياناً على سبيل التلطّف والرحمة، في حين يحضر أحياناً في حالة الغضب.

وحضوره (عليه السلام) عند المؤمنين يكون بمثابة العون لهم، ومن باب اللطف بهم، أمّا حضوره عند الكفّار فيكون عن غضب وعدم رضا. وما أسوأ حال من يحضر عند موته أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو عليه ساخط غير راضٍ، إذ يعمد الشيطان في مثل هذه اللحظات الحاسمة والأخيرة من حياة الإنسان، إلى سلب إيمانه منه (كما تؤكّد على ذلك الروايات) فيخرج من الدنيا بلا ايمان[1].

مَلَكة الإيمان عندَ الاحتضار

تؤكّد الروايات الشريفة (ثمّة رواية في كتاب جامع الأخبار بهذا المعنى) انَّ الإنسان إذا لم يتصل في حياته بمنابع الهداية، و لم يكن يرتاد المسجد لكي يُثبّت إيمانه، فانّه سيُصاب في دينه، وسيخرج من هذه الدنيا بلا ايمان.

وهذه الحقيقة هي من أكبر المصائب التي تحل بالإنسان. إذ ما لم يكن القرآن محوراً لحياة الإنسان في الدنيا، وما لم يقتدِ بأئمّة الدين والعلماء العارفين، ويكون للمسجد ومجالات الهداية الأخرى حظ في حياته، فإنَّ مَلَكة الإيمان لن تثبت أو تستقرّ في قلبه.

وفي ذلك أيضاً روي عن الإمام علي (عليه السلام) قال : « تمسّكوا بما أمركم الله به، فما بين أحدكم وبين أن يغتبط ويرى ما يحبّ، إلاّ أن يحضره رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وما عندَ الله خيرٌ وأبقى.. ». بحار الأنوار، ج٦، ص١٩٤، ١٥٣، ومن المفيد مراجعة الأحاديث الواردة في « باب ما يعاين المؤمن والكافر عند الموت » من الكتاب ذاته. [المترجم]

(١) جاء في الحديث الشريف : « انَّ الشيطان ليأتي الرجل من أوليائنا عند موته، يأتيه عن يمينه وعن يساره ليصدّه عمّا هو عليه فيأبى الله له ذلك ». امّا إذا لم يكن من أهل الإيمان والجنّة فانّه يسلب كلمة التوحيد والإيمان : لا إله إلاّ الله محمّد رسول الله. ويمكن مُراجعة نصوص الروايات بهذا الشأن في : البحار، ج٦، ص١٨٨، ١٩٥. وكذلك : ج٧، ص٢٠٦. [المترجم]

ومثل هذا الإنسان الذي لم يكن للقرآن وولاية أهل البيت نصيب في حياته، وكان قلبه خالياً من مَلَكة الإيمان، سيُراوده الشيطان عند مماته وحال احتضاره، ويحاول أن يسلبه ايمانه (أو النصيب الذي لديه منه) بوسائل مختلفة، منها الترغيب والوعود والامنيات ، ومنها التخويف، ومنها الخديعة. وخلاصة القول ان الشيطان وأعوانه يقعدون لمثل هذا الإنسان ويتربّصون به، ليسلبوه الإيمان وهو في اللحظات الأخيرة من عمره، لكي يخرجوه من الدنيا وهو على غير ايمان.

امّا الإنسان الذي يعيش حياته في كنف الرعاية الالهية، وينال لطف الله ورضاه، ويحيا حياته على هدي النبي (صلّى الله عليه وآله) وولاية الإمام علي (عليه السلام) وأهل بيته (عليهم السلام) ، فانّهُ لن يقع بحالٍ من الأحوال ضحية أحابيل الشيطان، بل ستكون أيدي الشيطان مغلولة عنه[1].

---

(١) جاء في الحديث الشريف عن الإمام الصادق، قوله (عليه السلام) : « ما من أحد يحضره الموت إلاّ وَكّل به ابليس من شياطينه من يأمره بالكفر ويشككه في دينه حتى تخرج نفسه، فمن كان مؤمناً لم يقدر عليه ». البحار، ج٦، ص١٩٥.

وثمّة وصيّة رائعة في هذا المجال للامام أبي الحسن علي بن موسى الرضا (عليهما السلام)، حيث قال لأحد أصحابه وهو في لحظات الاحتضار : « فجدّد الإيمان بالله وبالولاية تكن مستريحاً ». البحار، ج٦، ص١٩٥. [المترجم]

الفصل الحادي عشر

معالجة بعض الشبهات

قد يعترض البعض على مسألة حضور الإمام علي (عليه السلام) عند المحتضر، فيقول : كيف يمكن للامام (عليه السلام) أن يحضر عند كلّ محتضر، والناس يموتون في كلّ لحظة بالألوف؛ أي كيف نتصوّر حضوره عند جميع المحتضرين، وهم في أمكنة مختلفة، في وقتٍ واحد؟

انَّ هذا السؤال يرد أيضاً على ملك الموت، وكيف يقبض أرواحاً كثيرة في الوقت نفسه؟

لقد عالجت كُتب الرواية والحديث هذه الأسئلة وأجابت عليها[1].

فقد جاء في الحديث الشريف انَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لمّا أُسري به إلى السماء نظر إلى « ملك الموت » وبين يديه لوح ينظر فيه، وعندما سأله رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عن ذلك، أخبره بأنَّ الدنيا بين يديه كهذا اللوح[2].

---

(١) يلاحظ مثلاً معالجة صاحب البحار في تعليقه حول رؤية المحتضر للنبي (صلّى الله عليه وآله) والأئمّة (عليهم السلام) في : بحار الأنوار، ج٦، ص٢٠٠ فما بعد. [المترجم]

(٢) يُراجع حديث اللوح هذا مع اختلاف يسير بالألفاظ في : البحار، ج٦، ص : ١٤١، ١٤٢. وفي الحديث الأوّل، انَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) دنا من ملك الموت وسأله : يا ملك الموت، أكلّ من مات أو هو ميّت فيما بعد، أنت تقبض روحه؟ قال : نعم، قُلت : وتحضرهم بنفسك؟ قال : نعم، ما الدنيا كلّها عندي فيما سخّرها الله لي ومكّنني منها، إلاّ كدرهم في كفّ الرجل يُقلبه كيف يشاء. وفي خبر آخر عن كيفية قبضه

انّ هذه الرواية ونظائرها (حيث يشبّه بعضها الدنيا بين يدي ملك الموت بالدرهم بين أيدينا نقلّبه كيف نشاء) ممّا يشبّه الدنيا باللوح، تصوّر إحاطة ملك الموت بالدنيا وتسلّطه عليها.

يعبّر عن فلسفة هذا التسلّط والإحاطة والتمكّن بـ«السعة الوجودية». وبذلك فانّ تمتّع ملك الموت والنبي (صلّى الله عليه وآله) والإمام علي (عليه السلام) بـ«السعة الوجودية» يجعل قدراتهم لا تحدّ بحدود خاصّة، ويصبح وجودهم مشرفاً بشكل تام وكامل على جميع عالم الوجود، فيكون بمقدور هؤلاء، بما زوّدوا به من قدرات ولائية من قبل الله (تعالى) أن يحضروا في تمام أرجاء عالم الوجود.

إثبات المدّعى قرآنيّاً وحديثيّاً

يقول تعالى: «وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكُونوا شهداء على الناس ويكونَ الرسولُ عليكم شهيداً»(١).

ان ما نستفيده من الروايات والنصوص المفسِّرة لهذه الآية الكريمة انّ المقصود من «الأمّة الوسط» هم أئمّة الهدى من أهل بيت رسول الله(صلّى الله عليه وآله)، وانّ الله جعلهم شهداء على الناس يوم القيامة، حيث يشهدون للصالح بصلاحه وللفاجر بفجوره، ثم جعل (سبحانه) رسول الله (صلّى الله عليه وآله) شاهداً عليهم.

والذي نستفيده من الآية الكريمة، هو:

أوّلاً: تؤمن الشيعة في تفاسيرها انّ الآية ترتبط في دلالتها بشهادة الأئمّة الطاهرين (عليهم السلام) يوم القيامة.

ثانياً: نستفيد ممّا تقدّم انّ الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يشهد في يوم

الأرواح في ساعة واحدة وبعضها في المشرق وبعضها في المغرب، أجاب ملك الموت: «أدعوها فتجيبني» وفي خبر آخر قال: «إنّ الدنيا بين يديّ كالقصعة بين يدي أحدكم». نفس المصدر، ص: ١٤١ - ١٤٤. [المترجم].

(١) البقرة: ١٤٣.

القيامة إلاّ على أمور كـان حاضرهـا أو ناظرهـا، لأنّ الشـهادة في العرف والعقـل والشرع هي فرع الحضور والرؤية.

اذن، ستكون النتيجة المستفادة من هاتين المقدّمتين، حضور الإمام علـي (عليـه السلام) عند جميع المحتضرين، ليتم القول بشهادته في الآخرة.

وفي آية ثانية، يأتي الخطاب الإلهي لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) في قولـه (تعالى) : «وقُل اعملُوا فسيرى اللـه عَملكُم ورسولُهُ والمؤمنونَ وستُردّون إلى عالم الغيب والشهادة فيُنبّئُكم بما كُنتم تعملون»[1].

وفيما تفيده الآية من رؤية الأعمال من قبل رسول اللـه (صلّى اللـه عليه وآله) والمؤمنين، دلالةٌ قاطعة على تسلّطهم وتمكّنهم من عالم الوجود.

لذا فإنّ تمتّع الإمام علي بـ «السعة الوجودية» يعطيـه قـدرة الإحاطـة الكاملـة بعالم الوجود، وهذه بدورها تؤهّله لرؤية جميع الأعمال.

ومن هذه الجهة بالذات، فانّ توجّهه(عليه السلام) للمحتضر هوعـين حضـوره عنده.

وكذا نقرأ في رواية أخرى، انّ أمير المؤمنـين (عليـه السـلام) خـاطب الحـارث الهمداني بقوله : «وابشّرك يا حارث لتعرفني عند الممات»[2].

وهذا الكلام دال على السعة الوجودية التي يتمتّع بهـا الإمـام (عليـه السـلام)، وهذه السعة الوجودية نلحظها أيضاً في الملائكة الكرام ميكائيل وعزرائيل واسرافيل

---

(١) التوبة : ١٠٥.

(٢) أمالي الشيخ المفيد، ص٤. وفي حديث آخر انّ الحـارث زار الإمـام عليّـاً في ظهـيرة يـوم، فسأله (عليه السلام) عن سرّ هذه الزيارة في هذا الوقت، فقال الحارث : «حبّـك واللـه» فقال له الإمام : «إن كُنت صادقاً لتراني في ثـلاث مواطـن : حيـث تبلـغ نفسـك هـذه ـ وأومأ بيده إلى حُنجرته ـ وعندَ الصراط، وعندَ الحوض». البحار، ج٦، ص١٩٥.
وفي رؤية الإمام علي ثمّة أحاديث كثيرة عن رسول اللـه تنص على ذلك، منها قولـه (صلّى اللـه عليه وآله) لعلي : «ياعلي انّ محبيك يفرحون في ثلاثة مواطن : عند خـروج أنفسـهم وأنت هناك تشهدهم...» نفس المصدر، ص٢٠٠. [المترجم]

وجبرائيل، فيما يؤدّونه من مهامّ ربّانية.

لذلك جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) عندما سأل جبرئيل أن يريه نفسه على صورته، فواعده ذلك بحراء، فطلعَ له جبرئيل (عليه السلام) فسدَّ -كما أخبر (صلّى الله عليه وآله)- الأفق من المشرق إلى المغرب»[1].

الأئمّة واسطة الفيض

تعدّ مسألة واسطة الفيض من البديهيات الثابتة في فلسفة الوجود. ففي الفلسفة غير الإسلامية يُعبّر عن واسطة الفيض بـ «العقول العشرة». امّا في الفلسفة الإسلامية المستمدّة من الرؤية الشيعية، فإنَّ المعصومين الأربعة عشر هم واسطة الفيض بين الحق والخلق. ومعنى ذلك اننا نملك القدرة على الرؤية والسمع والقتال في جبهات القتال من خلال الفيض الذي يكون بواسطة النبي (صلّى الله عليه وآله) وأئمّة الهدى (عليهم السلام)، والذي يصلنا عنهم لحظة بلحظة.

ووساطتهم في الفيض هذه، هي دليل آخر على السعة الوجودية التي يتمتّع بها هؤلاء الهُداة.

نسبة قبض الأرواح إلى الله والملائكة!

من المشكلات التي أثرناها في مطلع هذا الفصل، هي نسبة قبض الأرواح إلى الله تارة، وإلى ملك الموت تارة أخرى، وإلى الملائكة أحياناً.

ففي نسبة قبض الأرواح إلى الله (سبحانه) نقرأ في القرآن قوله تعالى : «اللّه يتوفّى الأنفسَ حينَ مَوتِها»[2].

امّا نسبته إلى ملك الموت، فنجدها في قوله (تعالى) : «قُلْ يَتوفّاكُمْ ملكُ الموتِ

(١) تأريخ القرآن، ص٣٦، نقلاً عن : دلائل النبوّة للبيهقي، ج٢، ص١١٧. [المترجم]

(٢) الزمر : ٤٢.

الذي وُكِّلَ بكُم»[1].

وفي نسبته إلى الرسُل الكرام (الملائكة) يقول (تعالى) : «حتّى إذا جاء أحَدَكُم الموتُ توفَّتهُ رُسُلُنا وهُم لا يفرِّطون»[2].

معالجة الشبهة

لقد دأب الكثيرون على سؤال الأئمّة (عليهم السلام) عن هذه المشكلة، حتى ذهب البعض إلى انَّ الآيات الآنفة تمثّل تناقضاً في القرآن[3].

بيدَ ان الأئمّة عالجوا هذه المشكلة ، ومن ذلك ما جاء عن الإمام الصادق، حينما سُئِلَ (عليه السلام) عن قول الله عزوجلَّ : «الله يتوفّى الأنفس حين موتها» والآيات الأخرى التي ذكرنا بعضها قبل قليل، ثم أضاف السائل : وقد يموت في الساعة الواحدة في جميع الآفاق ما لا يحصيه إلاّ الله عزّوجلّ، فكيف هذا؟ فقال (عليه السلام) : «إنَّ الله تبارك وتعالى جعل لملك الموت أعواناً من الملائكة يقبضون الأرواح، [وذلك] بمنزلة صاحب الشرطة له أعوان من الإنس يبعثهم في حوائجه. فتتوفّاهم الملائكة؛ ويتوفّاهم ملك الموت من الملائكة، مع ما يقبض هو؛ ويتوفّاها الله عزّوجلّ من ملك الموت».

تصحّ إذن نسبة القبض إلى الله،لأنّهُ الذي أمر ملك الموت بذلك، وتصحّ نسبة الاماتة إلى ملك الموت حتى لو قام أعوانه بذلك، لأنّهُ الذي أرسلهم وأمرهم به.

---

(١) السجدة : ١١.

(٢) الأنعام : ٦١.

(٣) لقد جاء البعض إلى الإمام علي (عليه السلام) مُحتجّاً عليه بأنَّ هذه الآيات تمثّل الدليل على تناقض القرآن. وقد تمسّك الزنادقة بها أيضاً أثناء اتساع نشاط حركتهم، فتصدّى لهم الإمام الصادق (عليه السلام) . والملاحظ انَّ الإجابات الواردة عنهم تشترك جميعاً في عناصر موحّدة. وكنموذج، يمكن مراجعة : الاحتجاج، ص١٢٩، والبحار، ج٦، ص١٤٢، والفقيه، ج١، ص١٣٤. وبالنسبة للرواية التي في المتن يلاحظ الفقيه والبحار معاً، وقد أخذنا النص عن البحار، ج٦، ص١٤٤. [المترجم]

نموذج آخر

يمكن من زاوية القواعد العربية، أن يتعلّق الفعل بفاعلٍ قريب؛ ويمكن أحياناً أن يتعلّق بفاعلٍ بعيد، وربّما تعلّق أحياناً بالاثنين معاً.

ونموذج ذلك نجده في قصّة موسى (عليه السلام) والخضر. وذلك حينما عزمَ موسى على أن يتعلّم من الخضر، ممّا آتاه الله من الرشد، رغم انَّ موسى (عليه السلام) من الأنبياء أولي العزم، وبالتالي فانَّ «الخضر» لم يكن أعلم منه.

والذي يعنينا في القصة انَّ موسى والخضر ترافقا في الصحبة التي يتحدّث عنها القرآن مفصّلاً في سورة الكهف[1]؛ فما كان من الخضر، إلاّ أن خرَق السفينة، ثم قتل الغلام، وأخيراً أقام الجدار في القرية التي أبت اطعامهما.

وعندما أراد «الخضر» أن يوضّح لموسى (عليه السلام) أسباب ما فعله، رأيناه ينسب الفعل أحياناً إلى نفسه، رغم انّه لم يفعل ذلك إلاّ عن أمر ربّه «وما فعلته عن أمري».

وفي ذلك يقول القرآن الكريم: «امّا السفينةُ فكانت لمساكينَ يعملونَ في البحرِ فأردتُ أن أُعيبها وكانَ وراءَهُم ملكٌ يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً . وامّا الغلام فكانَ أبواهُ مؤمنين فخشينا أن يُرهقَهُما طغياناً وكفراً فأردنا أن يُبدلَهُما ربّهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً . وامّا الجدار فكان لغُلامين يَتيمَيْنِ في المدينة وكان تحته كنزٌ لهما وكانَ أبوهما صالحاً فأراد ربّك أن يبلغا أشدَّهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربّكَ وما فعلته عن أمري ذلك تأويل ما لم تستطِع عليه صبراً»[2].

---

(١) الكهف : ٦٠ ـ ٨٢ .

(٢) الكهف : ٧٩ ـ ٨٢ .

الفصل الثاني عشر

عالم البرزخ

البرزخُ هو عالم بين «الدنيا» و«الآخرة». والمعنى اللغوي لـ «البرزخ» هو الحدّ بين الشيئين[1]. أمّا المعنى الاصطلاحي فهو حالة ما بين الموت والبعث[2].

فـ «القبر» هو المنزل الأوّل من منازل البرزخ.

البرزخ في آيات القرآن

يقول (تعالى) : «حتى إذا جاء أحدَهُمُ الموتُ قال ربِّ ارجعونِ لعلّي أعمل صالحاً فيما تركْتُ كلاّ انّها كلمةٌ هو قائِلُها ومِن ورائهم برزخٌ إلى يوم يُبعثون»[3].

وفي سورة «يس»، عندما تذكر السورة أحداث مدينة «انطاكيا» وكيف قُتل حبيب النجار من قبل أهلها، نجد انَّ الخطاب الإلهي يأتي إلى هذا الرجل كي يدخل الجنّة، حيث يقول (تعالى) في ذلك : «قيل ادخُل الجنّة قالَ ياليتَ قَومي

(١) يقول الراغب الاصفهاني : «البرزخ، الحاجز والحدّ بين الشيئين، وقيل : أصله برزه، فعرّب، وقيل : البرزخ ما بين الموت إلى القيامة». معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ٤١.

(٢) يقول صاحب «مجمع البحرين» في معنى البرزخ اصطلاحاً «هو ما بين الدنيا والآخرة من وقت الموت إلى البعث، فمن مات فقد دخلَ البرزخ». مجمع البحرين، ج٢، ص٤٣٠. [المترجم]

(٣) المؤمنون : ١٠٠.

يعملونَ بما غَفَر لي ربّي وجعلني من المكرمينَ »[1].

ومن الواضح انَّ « الجنّة » المعنية في الآية الكريمة هي الجنّة البرزخيـة، الـتي يُعبَّر عنها في الحديث النبوي الشريف بـ « روضة من رياض الجنّة »[2].

والذي يشهد على هذا المعنى ويؤكّده قوله (تعالى) في الآيات الكريمة : « فلولا إذا بلغَتِ الحلقوم ... فأمّا إن كان من المقرَّبينَ فروحٌ وريحانٌ وَجنَّتُ نعيم ... وامّا إن كانَ مِن المُكذّبين الضّـالّين فنُزُلٌ مـن حميـم وتَصليـةُ جَحيـمٍ إنَّ هـذا لَهُـوَ حـقّ اليَقين»[3].

ورغم انَّ عذاب البرزخ ينصبّ على الروح، إلاّ انّه لصعوبته ومشـقّته تنعكـس آثاره على الجسم أيضاً.

معالم عالم البرزخ

من الصعب علينا أن ندرك حقيقة عالم البرزخ. وبشكلٍ عام يصعـب علينـا أن ندرك حقائق عالم ما بعد الموت، تماماً كما يصعب على الجنين وهو في بطن أمّه أن يدرك حقيقة الدنيا.

انَّ الطريق الوحيد الذي بين يدينا لتصـوّر عـوالم مـا بعـد المـوت، يتمثّـل فيمـا تعكسه الآيات والروايات من معالِم ذلك العالم.

ولتقريب صورة عالم البرزخ إلى أذهاننا، يُمكن تشبيه «عالم البرزخ» بـ « عالم المنام» وإن كُنّا نقرّ سلفاً ببعد المسافة بين العالمين. أمّا وجه الشَبَه، فهو ما تلتـذّ بـه

---

(١) يس : ٢٦، ٢٧.

(٢) يشير المؤلف إلى الحديث النبوي المشهور : « القبر امّا روضةٌ من رياض الجنّة أو حفرة مـن حفر النيران ». وهذا الحديث ممّا يجمع على روايته الفريقان في أمّهات مصادرهما. يلاحـظ مثلاً : البحار، ج٦، ص٢٠٥، وكذلك : الترمذي، كتاب صفة القيامـة، بـاب ٢٦، ج٤، ص٦٤٠. [المترجم]

(٣) الواقعة : ٨٣ ، ٨٦ ، ٨٨ ، ٩٢، ٩٥.

روح الإنسان أثناء نومه من رؤية المشاهد والمناظر الجميلة. ومن الثابت لنا جميعاً انَّ روح الإنسان هي التي تلتذ بالمنامات الجميلة، وان كانت اللّذة تسري إلى الجسم أيضاً؛ أي انَّ ما يدخل الروح من اللّذة والفرح يكون لجسم النائم نصيب منه. ونفس الكلام يقال بالنسبة للمنامات المؤذية التي تبعث مشاهدها على الخوف والفزع والألم، إذ الثابت أيضاً انَّ الروح هي مركز تلقي هذه المنغصات والشدائد، إلاّ انَّ لجسم النائم نصيباً منها أيضاً. فكثيراً ما يرى النائم في منامه أنّه يُضرب، أو يُلاحق من قبل حيوان وحشي، وعندما يستيقظ من النوم نجد جسمه غارقاً بالعرق، وآثار التعب وعدم الراحة بادية على جسمه، مع انَّ الثابت انَّ الضرب، أو الخوف من مطاردة الحيوان الوحشي، انّما يقع ألمهما على الروح، لا الجسد.

أوّل منازل البرزخ

بعد أن يقبض ملك الموت روح الإنسان ، ويرقى بها نحو السماء، ليضعها في محضر الله (سبحانه) ـ كما سبق ان أشرنا ـ تعود بعد ذلك إلى منزلها الأصلي. وهكذا يكون القبر أوّل منزل من منازل البرزخ، أو ما يصطلح عليه عُرفاً بوحشة الليلة الأولى التي يمضيها الميّت في القبر. والذي تنصّ عليه الروايات دون مجال للتأويل، انَّ القبر امّا أن يكون روضة من رياض الجنّة، أو حفرة من حُفر النيران. ففي الحديث النبوي الشريف : «القبر إمّا حفرة من حفرة النيران أو روضة من رياض الجنّة»[١].

سؤال منكر ونكير

عندما تعود روح الإنسان من عند محضر الله تعالى، يأتي مَلَكان باسم «منكر» و«نكير» فيسألانه عن التوحيد والنبوّة والامامة والعدل[٢].

---

(١) علم اليقين، ج٢، ص٨٧٣ .

(٢) « ألا وانَّ أوّل ما يسألانك، عن ربّك الذي كُنت تعبده، وعن نبيّك الذي أرسل إليك، وعن دينك الذي كنت تدين به، وعن كتابك الذي كُنت تتلوه، وعن إمامك الذي كُنت

ثم انَّ هذين المَلَكين يأتيان الكفّار على صورة مفزعة مُخيفة، حيث جاء في الخبر انّهما : «ملكان فظّان غليظان، أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف»[١].

وقد أخبرت بعض الروايات عن حضور الإمام علي (عليه السلام) في مثل هذا الموطن[٢]، وقد أشرنا للموضوع في الفصل السابق.

ضغطة القبر

تعتبر ضغطة القبر وضمّته من الأمور الثابتة. وأكثر ما يكون عذاب القبر، على ما تنطق به الأحاديث والروايات الشريفة، من النميمة وسوء الخلق والاستخفاف بالبول، أي عدم المبالاة بالطهارة؛ وعدم مراعاة أحكامها[٣].

تتولاّه، ثم عن عمرك فيما أفنيته؟ ومالَكَ من أين اكتسبته وفيما أتلفته؟ فخذ حذرك وانظر لنفسك، واعدّ للجواب قبل الامتحان » هذا ممّا كان يحدّث به الإمام علي بن الحسين السجّاد، في كل جمعة، في مسجد رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بالمدينة. يلاحظ : البحار، ج٦، ص٢٢٣. [المترجم]

(١) يلاحظ نص الحديث عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في : البحار، ج٦، ص٢١٥، ٢١٦. وهذه الصفة للملَكين ممّا يشترك في نقلها الفريقان، حيث تذكر أمّهات المصادر السنّية انَّ الميّت إذا وُضِعَ في قبره « أتاه ملَكان أسودان أزرقان أصواتهما كالرعد القاصف، وأبصارهما كالبرق الخاطف، يخرقان الأرض بأنيابهما » يلاحظ مع اختلاف يسير : الترغيب والترهيب، كتاب البعث، ج٤، ص٣٩٠. وقد ذُكر انَّ اسمي المَلَكين اللّذين ينزلان على الكافر « ناكر ونكير »، وعلى المؤمن «مُبشر وبشير ».

(٢) يشير المؤلف إلى حديث رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في قوله لعلي : « يا عليّ انَّ محبيك يفرحون في ثلاثة مواطن : عند خروج أنفسهم وأنت هناك تشهدهم، وعند المساءلة في القبور وأنت هناك تلقنهم... » البحار، ج٦، ص٢٠٠. [المترجم]

(٣) من ذلك ما جاء عن علي (عليه السلام) : « عذاب القبر يكون من النميمة، والبول، وعزب الرجل عن أهله » أي اعتزاله زوجته. البحار، ج٦، ص٢٢٢. [المترجم]

ولأننا جميعاً مُبتلون بهذه الأمراض ـ أو بقسم منها ـ لذا فلن نكون في أمان من ضغطة القبر[1]. وانّ شدّة الضغطة وضعفها تتناسب مع شدّة الذنوب وضعفها.

قصّة سعد بن معاذ

والذي يؤكّد ضغطة القبر، وعدم النجاة منها إلاّ للقلّة، ما جاء في قصّة موت الصحابي الجليل سعد بن معاذ، حيث نزلت الملائكة لتشييعه حتى امتلأت منهم الأرض. وكان رسول الله (صلّى الله عليه وآله) هو القائم على غسل سعد وتحنيطه وتكفينه، حتى إذا ما وضع في السرير «تبعه رسول الله (صلّى الله عليه وآله) بلا حذاء ولا رداء. ثم كان يمنة السرير مرّةً، ويسرة السرير مرّةً، حتى انتهى به إلى القبر، فنزل رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حتى لحده وسوّى اللبن عليه».

فلمّا رأت أمّ سعد ذلك، قالت : يا سعد هنيئاً لك الجنّة، فقال لها رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «يا أمّ سعدٍ مَه، لا تجزمي على ربّك، فإنّ سعداً قد أصابته ضمّة».

وعندما استغرب الصحابة أن تصيب سعداً ضغطة القبر، مع ما فعل به رسول الله، ورغم مشاركة الملائكة في تشييعه، أجابهم (صلّى الله عليه وآله): «نعم، انّه كان في خلقه مع أهله سوء»[2].

وبشكل عام نستفيد من الروايات انّ ضمّة القبر وضغطته تكون من الشدّة، بحيث يُعصر الإنسان معها عصراً، وتكسر عظامه. وانّ أسوأ مَن يُصاب بعذاب القبر من يُمارس الغيبة والنميمة بين الناس.

---

(١) سُئل الإمام الصادق (عليه السلام) : أيفلت من ضغطة القبر أحدٌ؟ قال : «نعوذُ بالله منها، ما أقلّ من يفلت من ضغطة القبر». الكافي، ج٣، ص٢٣٦. [المترجم]

(٢) قصّة سعد تذكرها مصادر كثيرة، منها : امالي الصدوق، ص٢٣١، والبحار، ج٦، ص٢٢٠. [المترجم]

الثواب والعذاب البرزخي

يتّضح ممّا مرَّ، انَّ الإنسان إذا أجاب على أسئلة «منكـر ونكـير» فسيكون في «جنّةٍ برزخية» إلى يوم يُبعثون[1]. امّا الذي يُغلق فمه عن الكلام، ولا يستطيع أن يُجيب ـ من كثرة ذنوبه ومعاصيه ـ على أسئلة المَلكين، أو يكون ممّن سُلب الإيمان وكلمة التوحيد «لا إله إلاّ الله»، فسيضرب ضربة يمتلئ قبره على أثرها ناراً، ثم يفتح له باب إلى جهنّم، فيبقى في «عذاب برزخي» إلى يوم يبعثون[2].

مدّة البرزخ

لا يتأذّى المؤمن من المكوث في القبر، وتبدو له مدّة البرزخ قصيرة جدّاً. ولكن غير المؤمن يتأذّى من المكوث في القبر، ويحسّ بأنَّ فترة البرزخ طويلة جدّاً، لما يُلاقيه من عذاب وآلام وأذى.

نستفيد هذا المعنى بشكل جلي من رواية عن المسيح عيسى بن مريم (عليه السلام) عندما أحيا باذن الله شابّاً كان قد دفن توّاً، بحيث لم يجف لبن قبره بعد. عندما قام الشاب من قبره كانت آثار التعب بادية على محياه، حتى كأنّه مغمور بالتراب لسنوات عدّة.

سأله (عليه السلام) عن زمان موته فذكر الشاب انه توفي منذ بضعة آلاف سنة. ثم سأله عمّا جرى له بعد الموت، فذكر الشاب انَّ منكراً ونكيراً جاءاه وسألاه، ولمّا لم يدرِ ما يجيب، ضرباه بسفّود فالتهب قبره ناراً و لم يزل يحترق حتى

---

(١) جاء في الخبر انَّ المؤمن عندما يجيب على أسئلة المَلكين، عندها «فيرى مقعده من الجنّة، ويفسح له عن قبره، ثم يقولان له : نم نومةً ليس فيها حلم في أطيب ما يكون النائم». البحار، ج٦، ص٢٢٢.

(٢) عندما يعجز عن الجواب، فإنّ الملكين «فيضربانه ضربةً من عذاب الله يذعر لها كلّ شيء [إلاّ الثقلين]...؛ ثم يفتحان له باباً إلى النار، وينزلان إليه من الحميم من جهنّم» نفس المصدر، ص٢٢٣، وكذا : أمالي الصدوق، ص٢٣٩ . [المترجم]

اللحظة.

ثم عاد (عليه السلام) لقبر عجوز كان قد مضى على موته سنوات متمادية، بحيث لم تبقَ علامة تدلّ على قبره، فأحياه باذن اللـه. عندما برز الرجل العجوز من قبره كانت آثار النشاط والحيوية بادية عليه؛ وبدا شابّاً بهيّـاً. سـأله السيّد المسيح عن زمان موته، فقال العجوز انّي مت للتو، وعندما أهيل عليّ التراب جاءني منكر ونكير وسألاني، فأجبت. فتراءى لي بستان من بساتين الجنّة؛ حتى أمرت باحيائي.

تقريب طول مدّة البرزخ وقصرها إلى الذهن

يمكن تقريب نسبية مدّة البرزخ؛ أي طولها للبعض (من الأموات) وقصرها للبعض الآخر، إلى الذهن بالتشبيه، حيث نلاحظ في حياتنا العمليـة انَّ فـترة المرض تطول بالنسبة للمريض، حتى ليحسّ من وقع آلام المرض وشدائده ان قد مـرَّ عليـه دهر طويل وهو على هذه الحال، بحيث تعادل الساعة عنده أيّاماً كثيرة.

ونلمس عكس هذه الحالة أثناء الفرح والسرور، حيث يحسّ صاحبها انّهـا تمـرّ سريعاً، حتّى ليحسب الأيّام والأسابيع لحظات وساعات[1].

وهذا المعنى نجده واضحاً في المثل العربي المعروف : «سنة الفراق سَـنة، وسَنة الوصال سِنة».

وممّا يقرّب الصورة أيضاً، المنامات التي يراها الإنسـان، فقـد يرقـد الإنسـان في فراشه وينام برهةً قصيرة، إلاّ انّه يجـد نفسـه خلالهـا قـد قـام بزيـارة مكـة والمدينـة والشام وكربلاء والنجف الأشرف.

دور الصبر في عالم البرزخ

إنَّ للصـبر دوره الكبـير في الدفـاع عـن الإنسـان ضـدّ مؤذيـات عـالم الـبرزخ وأهواله. وقبل أن نذكر دور الصـبر، نذكـر بمـا تُشـير إليـه الروايـات مـن حضـور

---

(١) يقول المثل العربي : «أيام السرور قصار، وأيام الهموم طوال». [المترجم]

أعمال الإنسان معه بعد الموت ـ كالصلاة والصوم والخمس والصبر وما أسداه للناس من خدمات ومعروف، ومنافحتها عنه، ودفع ما قد يصيبه من الأذى.

ونجد في الروايات انَّ الصبر ينحي جانباً عندما ينزل «مُنكر ونكير» ويقول للصلاة وأعمال الإنسان الأخرى «دونكُما صاحِبكما»، أي بادروا لإنقاذه مّما يتعرّض له وتخليصه من مشقّة المساءلة على يدي «مُنكر ونكير» وإذا عجزتم، فأنا له.

والصبر هُنا معنىً عام له مصاديق كثيرة منها: الصبر على الفقر، وتحمّل سوء أخلاق الزوج أو الزوجة، وتحمّل الصديق أو الرفيق السيّئ الخلق؛ ومنها أيضاً الصبر على الطاعة والعبادة، والصبر عن المعصية.

امّا الصبر الذي نعنيه، والذي يُنافح عن صاحبه في البرزخ، فهو الصبر عن المعصية. والله (سبحانه) يخاطب أمثال هؤلاء الصابرين بقوله: «أولئك عَليهِمْ صَلواتٌ من ربِّهِمْ وَرحمةٌ وأولئكَ هم المهتدون».

ومعنى «الصبر عن المعصية» انَّ الإنسان يمتنع عن ارتكاب المعصية عندما تتوافّر مقدّماتها، وتتهيّأ أسبابها بين يديه، وتكون نفسه توّاقة لارتكاب المعصية، فيصبِّر، ويمنع نفسه عن الذنب، ويلوذ بالله ويلجأ إليه(1).

---

(١) ثمّة أحاديث كثيرة تؤكّد المعنى الوارد في المتن، من ذلك ما روي عن الإمام الباقر في قوله (عليه السلام): «إذا مات العبد المؤمن دخل معه في قبره ستّة صور، فيهنّ صورة أحسنهنّ وجهاً وأبهاهن هيئة وأطيبهن ريحاً... إلى أن قال: فتقول التي عن يمين العبد: أنا الصلاة، وتقول التي عن يساره: أنا الزكاة وتقول التي بين يديه: أنا الصيام، وتقول التي خلفه: أنا الحج والعمرة، وتقول التي عند رجليه: أنا برّ مَن وصلت من اخوانك. [امّا الأخيرة] فتقول: أنا الولاية لآل محمّد صلوات الله عليهم أجمعين». المحاسن، ص٢٨٨، والبحار، ج٦، ص٢٣٤.

اما الرواية التي ذكرها المؤلف في المتن، فهي ما روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) انّه قال: «إذا دخل المؤمن قبره كانت الصلاة عن يمينه والزكاة عن يساره، والبرّ مُطلّ عليه.

آثار محبّة أهل البيت

من الأمور الأخرى التي تُنجي الإنسان من عذاب القبر وآلام البرزخ، هي محبّة أهل البيت (عليهم السلام) وولايتهم، وهي أهمّها[1].

فمن ذلك ما جاء عن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا (عليه السلام) حيث قال: «مَن زارني على بعد داري أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتى أخلصه من أهوالها: إذا تطايرت الكتب يميناً وشمالاً، وعند الصراط، وعند الميزان»[2].

وكذلك قال (عليه السلام): «فمن زارني في غربتي وجبت له زيارتي يوم القيامة»[3].

وكذلك ينقل المحدّث الشيخ عباس القمي في كتابه «مفاتيح الجنان» انّه كان لأحد العلماء الصلحاء جار، نشأ معه منذ الصغر، بيدَ انّه انحرف وصارَ عشّاراً، فلمّا مات ودفن في محلٍّ قريب إلى المكان الذي يسكن فيه الرجل الصالح، رآه في المنام على غير الصورة التي كان يتوقعها، إذ يحدّث الرجل الصالح بقوله؛ اني رأيته «بعد موته بأقل من شهر في المنام في زيٍّ حسن، وعليه نضرة النعيم» فتقدّم إليه وقال له: «انّي عالم بمبدئك ومُنتهاك وباطنك وظاهرك، ولم تكن ممّن يُحتمل في

قال: فيتنحّى الصبر ناحية، فإذا دخل عليه الملكان اللّذان يليان مساءلته، قال الصبر للصلاة والزكاة: دونكما صاحبكم، فان عجزتم عنه فأنا دونه». ثواب الأعمال، ص٨٧. [المترجم]

(١) ثمّة أحاديث كثيرة تؤكّد على حبّ أهل البيت وولايتهم، أبرزها في المقام قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله): «حبّي وحبّ أهل بيتي نافعٌ في سبعة مواطن (أهوالهنّ عظيمة): عند الوفاة، وفي القبر، وعند النشور، وعند الكتاب، وعندَ الحساب، وعندَ الصراط». الخصال، ج٢، ص٣٦٠. [المترجم]

(٢) مفاتيح الجنان، ص٤٩٦.

(٣) مفاتيح الجنان، ص٤٩٦.

حقّه حسن الباطن، و لم يكن عملك مُقتضياً إلاّ للعذاب والنكال، فبِمَ نلت هذا المقام؟ قال : نعم، الأمر كما قلت، كُنت مقيماً في أشدّ العذاب من يوم وفاتي إلى أمس، وقد توفيت فيه زوجة الاستاذ أشرف الحدّاد، ودفنت في هذا المكان» وأشار إلى مكانٍ على بُعدِ مائة ذراع. ثم قال : «وفي ليلة دفنها زارها الإمام الحسين (عليه السلام) ثلاث مرّات، وفي المرّة الثالثة أمر برفع العذاب عن هذه المقبرة، فصرت في نعمةٍ وسعة، وخفض عيشٍ ودعة».

عندها جاء الرجل الصالح، إلى سوق الحدّادين، وسأل عن زوج المتوفّاة، ثم سأله عن شأن زوجته وما كانت تقوم به من أعمال، بعد أن ذكر له القصّة، فقال الحدّاد : كانت زوجتي مواظبة على زيارة عاشوراء[1].

عالم البرزخ وحقّ الناس

من الأمور المهولة في عالم البرزخ، والتي تودي إلى أن يعذّب صاحبها أشدّ العذاب، هو «حق الناس». وهذا الكلام لا يعني انّ الإنسان لا يُحاسب أو يعذّب على ذنوبه الأخرى، وانّما يعني انّ لـ «حق الناس» مكانة خاصة تتميَّز على غيرها من الذنوب والمعاصي.

وللتدليل على عظيم ما يستوجبه حق الناس من الأذى للميت، يروي المحدّث النوري في كتاب «دار السلام» انّ أحد العلماء رأى والده في المنام، وقد كان واحداً من كبار العلماء المعروفين في زمانه، فسأله عن حاله وما آل إليه، فقال : كُنت في ضيق، امّا الآن فقد فرّج عنّي ما كان بي من الضيق والشدّة فتعجبت من ذلك، وقلت : أنت كنتَ في ضيق؟ قال : نعم، كان عليّ دين للحاج رضا، وقد ساء حالي بسبب دينه هذا.

يقول ابن هذا العالم : فزاد تعجّبي، واستيقظت من النوم فزعاً. ثم كتبت رسالة إلى أخي، وأخبرته بالقصّة، وطلبت منه أن يتصل بالشخص المعني ويسأله عن دينه.

(١) مفاتيح الجنان، ص٤٦٣.

فكتب إليّ أخي : انّي فتّشت في دفتر ديون الوالد، فلم أجد اسم هذا الرجل بين الدائنين.

يقول : فكتبت إليه ثانية : اسأل الرجل نفسه. فجاءني الجواب من أخي: لقد سألته، فقال : نعم كان لي على والدكم مبلغ من المال (ذكره) وقد سألتك بعد وفاته : هل وجدت اسمي في دفتره، فقلت : لا. فقلت في نفسي : السكوت أفضل، لأنّي لو أخبرت بذلك، فلا مجال عندي لإثباته . وتألّمت لأني أقرضته دون حجّة تُثبت ذلك، اعتماداً على انّه سيدوّنه في دفتره الخاص، ولكن تبيّن انّه تساهل في ذلك، فيئست من المبلغ. وعندما أراد أخي أن يدفع إليه المبلغ، قال الحاج رضا: قد سامحته لأنّه أخبركم بذلك »[1].

سمعة الناس وكراماتهم

من الأمور المهمّة الموجبة لعذاب البرزخ، انتهاك حرمات الناس والإساءة إليهم بالغيبة أو المهانة والتعرّض لهم بالكلام الجارح والبذيء.

ويذكر في هذا السياق، انَّ أحد الصالحين رأى في المنام أحد كبار العلماء، فسأله عن حاله، فقال : اني في راحة وأحسن حال؛ لولا انَّ هناك عقرباً عند رجلي تلسعني بين حين وآخر.

وعندما سأله عن السبب، أجاب : آهٍ آهٍ من جراحات اللسان[2]!

حذار إذن من جراحات اللسان! لأنَّ اساءةً إلى شخص، أو توهيناً لكرامة مسلم، أو انتقاصاً من شخصية إنسان معيّن، أو كسر قلب بريء، تقود جميعها إلى

---

(١) نقلنا القصّة بتصرّف من كتاب « منازل الآخرة » للمحدِّث الشيخ عباس القمّي (رحمه الله)، وهو من ألمع تلاميذ المحدِّث النوري صاحب الموسوعة الحديثية المعروفة « المستدرك»، وكتاب « دار السلام » الذي أخذ عنه المؤلف.

(٢) لذلك جاء في الحديث الشريف عن ابن عبّاس : « عذاب القبر ثلاثة أثلاث : ثلث للغيبة، وثلث للنميمة، وثلث للبول » البحار، ج٦، ص٢٤٥. [المترجم]

أن تلازمنا في قبورنا على شكل عقارب أو أفاعٍ فتؤذينا إلى يوم القيامة.

لذلك تجد الإمام الصادق (عليه السلام) شفيقاً بنا وبحالنا في القبر، إذ يقول مخاطباً أهل الولاية من شيعة النبي (صلّى الله عليه وآله) وأهل بيته : «امّا في القيامة فكلّكم في الجنّة بشفاعة النبي المطاع أو وصيّ النبي». بيدَ انّه يستدرك ويقول : «ولكنّي والله أتخوّف عليكم في البرزخ».

وعندما يسأله الراوي ، وهو عمر بن يزيد : وما البرزخ؟

يقول (عليه السلام) : «القبر منذ حين موته إلى يوم القيامة»[1].

الفصل الثالث عشر

نفخ الصور

جاء في القرآن الكريم انَّ «اسرافيل» ينفخ في «الصور» فيموت كلّ الأحياء. وبعد فترة غير معلومة، يُنفخُ في «الصور» مرّة أخرى فيُبعثُ جميع الأحياء من موتتهم ليساقوا إلى المحشر صفوفاً.

يقول تعالى: «ونُفِخَ في الصّورِ فَصَعِقَ مَن في السماوات ومَن في الأرضِ إلاّ مَن شاء الله ثمَّ نُفِخَ فيه أُخرى فإذا هُم قيامٌ يُنظرُون»[1].

ونظير هذه الآية كثير في القرآن الكريم[2]. ويعبّر في سورة يس عن النفخ في الصور بـ «الصيحة الواحدة»[3].

معنى النفخ في الصور

الذي يستفاد من ظاهر الآيات والروايات انَّ «اسرافيل» وهو الموكل بالنفخ في «الصور» يؤمر من قبل الله (سبحانه) فينفخ في «الصور» نفخة أولى يموت على أثرها مَن في السماوات والأرض، ثم ينفخ مرّةً أخرى، فيبعث جميع الأحياء.

---

(١) الزمر : ٦٨ .

(٢) منها : الكهف : ٩٩، وطه : ١٠٢، والمؤمنون : ١٠١، والنمل : ٨٧ ، و ق : ٢٠، والمدّثر : ٨. [المترجم]

(٣) قوله تعالى : «ما ينظرون إلاّ صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون» يس : ٤٩. [المترجم]

ولكن ربّما كانت هناك كناية في تعبير «النفخ في الصور»، إذ قد يكون المعنى المقصود من النفخ هو الايقاظ وتهيئة الناس واعدادهم إلى أحداث يوم القيامة، لأنَّ العادة جرت على الاستفادة من «البوق» أو «الطبل» لتحقيق هذه الغاية.

وربّما كان المقصود من «النفخ في الصور» هو خطاب يُوجّهه «اسرافيل» باذن الله تعالى إلى الخلائق أجمع ان «موتوا» فيموت مَن في السماوات والأرض، ثم يوجّه لهم الخطاب في المرّة الثانية أن «قوموا من موتتكم» فيقوم مَن في السماوات والأرض.

ووفق المعنى الأخير، يكون المراد من «النفخ في الصور» هو القول المتضمّن لتنفيذ الأمر الإلهي[1].

كيفية النفخ في الصور

الذي نستفيده من الروايات الواردة عن أهل البيت (عليه السلام) انَّ النفخ في الصور هو من المسلّمات الثابتة في الإسلام. فعن تفسير علي بن إبراهيم (عليه الرحمة) ينقل العلاّمة المجلسي حديثاً عن الإمام علي بن الحسين زين العابدين، انَّ أحدهم سأله : فأخبرني يا ابن رسول الله كيف يُنفخ فيه؟ (أي في الصور).

فقال (عليه السلام) : امّا النفخة الأولى ، فإنّ الله يأمر «إسرافيل» فيهبط إلى الدنيا ومعه صور، وللصور رأس واحد وطَرفان...؛ قال : فإذا رأت الملائكة اسرافيل وقد هبطَ إلى الدنيا ومعه الصور، قالوا : قد اذن الله في موت أهل الأرض، وفي موت أهل السماء...؛ قال : فينفخ فيه نفخة فيخرج الصوت من الطرف الذي يلي الأرض، فلا يبقى في الأرض ذو روح إلاّ صعق ومات. ويخرج الصوت من الطرف الذي يلي السماوات، فلا يبقى في السماوات ذو روحٍ إلاّ صعق ومات، إلاّ إسرافيل.

---

(١) يشار في الاصطلاح الفلسفي الى الاحياء (وهو المرحلة الثانية من النفخ) بـ «كُن الرحمانية».

ثم قال (عليه السلام) : «فيقول الله لإسرافيل : يـا إسـرافيل مـت؛ فيمـوت إسرافيل. فيمكثون في ذلك ما شاء اللـه».

وفي هذه الأثناء، يأتي النداء من اللـه سبحانه : «لمن الملك اليوم»[1]؟

يقول الإمام السجّاد : فلا يجيبه مجيب، فعند ذلـك ينـادي الجبـار جـلّ جلالـه، مجيباً لنفسه : «لِلّه الواحد القهّار»[2].

ثم قال (عليه السلام) : «فنفخ الجبار نفخة في الصور[3]، فيخرج الصوت من أحد الطرفين الذي يلي السماوات، فلا يبقى في السماوات أحد إلاّ حيّ وقام كمـا كانَ، ويعود حَمَلة العرش، ويحضر الجنّة والنار، ويحشر الخلائق للحساب.

يقول الراوي : فرأيت علي بن الحسين (صلوات اللـه عليهما) يبكي عند ذلـك بكاءً شديداً»[4].

إحياء الموتى

سبق ان ذكرنا انَّ الخلائق يُحيون من موتهم بعد النفخة الثانية في «الصـور»؛ وربّما تشير الآية في قوله (تعالى) : «قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين وأحييتنـا اثنتـين»[5] إلى الموتتين والحياتين التي يمرّ بها الإنسان. فالموتة الأولى، هي التي تتمّ في الحيـاة الدنيـا، عندما يقبض الإنسان، ويُذهـب بـه إلى القـبر والـبرزخ. والاحيـاء الأوّل، في القـبر وعالم البرزخ، عندما يحيا الإنسان لسؤال القبر ومنكر ونكـير. امّـا الاماتـة الثانيـة،

---

(١) غافر : ١٦.

(٢) غافر : ١٦.

(٣) ينهب المؤلف في المتن، إلى ان اللـه (جل وعلا) يحيي إسرافيل، ويـأمره بـالنفخ ثانيـةً كـي يقوم الأموات، ولكن رواية علي بن إبراهيم التي يعتمد عليها في المـتن ـ كمـا راجعناهـا في أكثر من مصدر ـ تنص على : «فنخ الجبّار نفخة في الصـور» لذلـك أثبتنـا نـصّ الروايـة. [المترجم]

(٤) البحار، ج٦، ص٣٢٤ ـ ٣٢٥.

(٥) غافر : ١١.

فهي عند النفخة الأولى في «الصور»، وامّا الاحياء الثاني، فمع النفخة الثانية، حيث يقوم الجميع للحساب.

والذي نستفيده من ظاهر القرآن، انَّ عالم الوجود يحيا، بعد النفخة الثانية، وحينها ينقلب الجميع إلى الله الواحد القهّار.

يقول تعالى : «ألا إلى الله تصير الأمور»(١).

المحشر!

يقول القرآن الكريم : «يومَ يُنفخ في الصور فتأتون أفواجاً»(٢).

وفي مكان آخر يقول : «يومئذٍ يصدرُ الناس أشتاتاً ليُرَوا أعمالَهُم»(٣).

وذلك اليوم، يومٌ عسير على غير المؤمنين، حيث يقول (تعالى) : «فإذا نُقِرَ في الناقور فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ على الكافرينَ غيرُ يسير»(٤).

ويقول (تعالى) : «يا أيّها الناسُ اتقُوا ربَّكُم انَّ زَلزَلَةَ الساعةِ شيء عظيم»(٥).

وثمّة آية أخرى تصف أهوال ذلك اليوم؛ حيث يقول تعالى : «يومَ تَرونَها تذهَلُ كلّ مُرضعةٍ عمّا أرضعت وتضَعُ كلّ ذاتِ حَملٍ حَملَها وترى الناسَ سُكارى وَما هُم بسكارى ولكنَّ عذابَ الله شديد»(٦).

ويصرّح القرآن بعد ذلك، ان يوم المحشر مقداره خمسون ألف سنّة، حيث يقول تعالى: « تعرُجُ الملائكةُ والروحُ إليهِ في يومٍ كانَ مقدارُهُ خمسينَ ألفَ سنةٍ»(٧).

---

(١) الشورى : ٥٣.

(٢) النبأ : ١٨ .

(٣) الزلزلة : ٦ .

(٤) المدثر : ٨ ـ ١٠، ولكن القرآن يصرّح انَّ أهل الإيمان في أمان من فزع ذلك اليوم، حيث يقول تعالى : « من جاء بالحسنة فلَهُ خيرٌ منها وهم من فزع يومئذٍ آمنون ».

(٥) الحج : ١ .

(٦) الحج : ٢ .

(٧) المعارج : ٤.

ولكن سبق ان ذكرنا في الحديث عن مدّة البرزخ، انَّ الاحساس بالزمن أمر نسبي، وكذا الحال بالنسبة لزمن المحشر، فالمؤمن لا يحسّ بطول زمن المحشر، وفي ذلك روى أبو سعيد الخدري، انّهُ قيل لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) : يارسول الله ما أطول هذا اليوم؟ فقال : والذي نفس محمّد بيده، إنّه ليخفّف على المؤمن، حتى يكون أخفّ عليه من صلاةٍ مكتوبةٍ يصلّيها في الدنيا »[1].

مواقف القيامة

الذي نستفيده من القرآن الكريم والروايات، انَّ للقيامة مواقف كثيرة. فالقرآن يتحدّث عن خمسين موقفاً طول كلّ واحد منها ألف سنة. بمعنى انَّ الإنسان يمكث فيها للحساب في خمسين مكاناً[2].

أمّا بعض الروايات فتتحدّث عن سبعين موقفاً، وربّما يكون حاصل الجمع بين القسمين، انَّ المواقف على نوعين، نوع قبل الحساب، ونوع آخر أثناء الحساب والمساءلة.

وفي هذا السياق نقرأ في الروايات والأحاديث الشريفة، ان لا أحد يجوز على الصراط، إلاّ مَن كانت معه براءة بولاية علي (عليه السلام)، أي حتى يسأل عن الولاية والصلاة وحق الناس[3].

---

(١) مجمع البيان، في ذيل الآية الآنفة (المعارج : ٤).

(٢) جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : « الظالم لنفسه يُحبس في يوم مقداره خمسون ألف سنة، حتى يدخل الحزن في جوفه ». البحار، ج٧، ص١٩٩. [المترجم]

(٣) ذلك إشارة إلى قول النبي الأقدس (صلّى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) : « يا علي إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط، فلا يجوز على الصراط إلاّ من كانت معه براءة بولايتك » . علم اليقين، ج٢، ص٩٧٤، نقلاً عن معاني الأخبار، ص٣٢. [المترجم]

خشية أولياء اللـه من هذه المواقف

بعد استشهاد الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) ذهب عدي بـن حـاتم إلى معاوية في الشام، فسأله الأخير عن أولاده، فأجاب عدي : قتلـوا يـوم صفّـين بـين يدي علي بن أبي طالب (عليه السلام).

فقال معاوية: ما أنصفك ابن أبي طالب إذ قدَّم بنيك وأخّر بنيه.

فقال عديّ : بل أنا ما أنصفت عليّاً إذ قُتِلَ وبقيت.

ثم التفت معاوية إلى عدي وقال : صف لي عليّاً.

فقال عدي : إن رأيت أن تعفيني.

فقال معاوية : لا أعفيك.

فكان ممّا قاله عدي في أمير المؤمنـين (عليـه السـلام) : « كـانَ فينـا كـأحدنـا، يجيبنا إذا سألناه، ويدنينا إذا أتيناه، ونحن مع تقريبه لنا وقربه منّا لا نكلّمه لهيبته ».

ثم أضاف عديّ :

« فأقسم لقد رأيته ليلة وقـد مَثَـلَ في محرابـه، وأرخـى الليـل سـرباله، وغـارت نجومه، ودموعه تتحادر علـى لحيتـه، وهـو يتملمـل تململ السـليم، ويبكـي بكـاء الحزين، فكأنّي الآن أسمعه وهو يقول : يا دنيا إليَّ تعرّضـتِ، أم إليَّ أقبلـتِ، غـرّي غيري، لا حانَ حينك، قد طلقتكِ ثلاثاً لا رجعة لي فيك، فعيشك حقير، وخطرك يسير، آهٍ من قلّة الزاد، وبُعد السفر، ووحشة الطريق ».

وهُنا سأل معاوية عديّاً؛ فكيف صبرك عليه؟

فأجـاب : كصـبر مـن ذُبـحَ ولدهـا في حجرهـا، فهـي لا ترقـأ دمعتهـا ولا تسكن[1].

المواقف والعقبات الصعبة

ثمّة أقوال مختلفة حيال المواقف والعقبـات ومـا يجـري فيهـا مـن أسـئلة. ثـم انَّ

(١) الكنى والألقاب : ج٢، ص١٠٣. [المترجم]

الروايات والأحاديث لم تتحدَّث عن المواقف بأجمعها[1].

ولكن رغم ذلك، نتعرّف ممّا بين أيدينا على ثلاثة مواقف (عقبات) خطيرة جدّاً، إذا نجا منها الإنسان، يكون قد نجا من المواقف والعقبات الأخرى، وهذه المواقف والعقبات هي :

أوّلاً : موقف أهل البيت

وفي هذا الموقف ـ وهو أصعبها جميعاً ـ يسأل الإنسان عن محبّة أهل البيت وولايتهم (عليهم السلام)، فإذا أجاب فهو، وإلاّ سقط في الامتحان[2].

وفي محبّة أهل البيت (عليهم السلام) جاء في الأثر النبوي الشريف : «لا تزول قدم عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع : عن عمره فيم أفناه؟ وشبابه فيمَ أبلاه؟ وعن مالَه من أين اكتسبه وفيمَ أنفقه؟ وعن حبّنا أهل البيت»[3].

وقد أورد «الزمخشري» و«الفخر الرازي» ـ وهما من كبار علماء السنّة ـ في ظلال تفسيرهما لآية «المودّة»[4] في سورة الشورى، جملة مهمّة من الأحاديث في حبّ أهل البيت، منها : «ألا ومَن مات على بغض آل محمّد (ص) مات كافراً»[5].

والحديث الشريف : «ألا ومَن مات على بغض آل محمّد (ص) لا يُشمّ فيه

---

(١) وانّما تحدّثت عن بعضها، وفي وصفها قال علي (عليه السلام) : «فإنّ أمامكم عقبةً كؤوداً ومنازل مخوفة مهولة لابدّ من الورود عليها والوقوف عندها»، نهج البلاغة، ولكنّا أخذنا النصّ عن : منازل الآخرة، ص١٤. [المترجم]

(٢) مرَّ الحديث عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في قوله لعلي (عليه السلام) : «يا علي إذا كان يوم القيامة أقعد أنا وأنت وجبرئيل على الصراط، فلا يجوز على الصراط إلاّ مَن كانت معه براءة بولايتك». علم اليقين، ج٢، ص٩٧٤.

(٣) الخصال، الشيخ الصدوق، ص٢٠٠.

(٤) يشير المؤلف إلى الآية الكريمة : «قُل لا أسئلكم عليه أجراً إلاّ المودّة في القربى» الشورى : ٢٣. [المترجم]

(٥) التفسير الكبير، الفخر الرازي، ج٢٧، ص١٦٦.

رائحة الجنّة»[1].

وكذلك الحديث الشريف: «ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد (ص) مات شهيداً. ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد (ص) مات تائباً (مغفوراً له). ألا ومَن مات على حبّ آل محمّد (ص) بشّره ملك الموت بالجنّة»[2].

ثانياً: موقف الصلاة

ويُسأل في هذا الموقف عن الصلاة[3]، كما يشير إلى ذلك الحديث الشريف: «أوّل ما يحاسب به العبد الصلاة، إن قبلت قبل ما سواها (وإن ردّت رُدّ ما سواها)»[4].

ولذلك جاء في الخبر انَّ الإمام الصادق (عليه السلام) عندما قاربته الوفاة، طلب وهو في لحظات عمره الأخيرة، أن يجمع عنده جميع من بينه وبينهم قرابة، فعندما اجتمعوا لديه، قال (عليه السلام): «لا ينال شفاعتي من استخفّ بصلاته، ولا يرد الحوض لا والله»[5].

ثالثاً: موقف حقّ الناس

الموقف الثالث، والذي ربّما كان أشكل من الموقفين السابقين، هو السؤال عن «حقّ الناس». وقد ذكر العلاّمة المجلسي (في الجزء الثامن من البحار) في تفسير

---

(١) نفس المصدر، ص١٦٦ أيضاً.

(٢) التفسير الكبير، ج٢٧، ص١٦٦.

(٣) جاء في الحديث الشريف عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في حديث طويل عن القيامة، قوله: «ثم يوضع عليها صراط أدقّ من حدّ السيف عليه ثلاث قناطر، امّا واحدة فعليها الأمانة والرحم، وامّا الأخرى فعليها الصلاة...» البحار، ج٧، ص١٢٥. [المترجم]

(٤) بحار الأنوار، ج٨٣، ص٢٥.

(٥) بحار الأنوار، ج٨٤، ص٢٤١، حديث ٢٧.

قوله (تعالى) : «انَّ ربّك لبالمرصاد» انَّ المرصاد بمعنى جسر الصراط، وعندها ينتهي الخلق إلى ربّ العالمين الذي يُباشرهم بالحساب[1]، حيث يقول (عزّوجلّ) : «وعزّتي وجلالي لا يجوزني ظلم ظالم».

انّ الله (سبحانه) - كما ذكرنا قبل قليل - هو الذي يُباشر الخلق بالحساب، في حين ان الملائكة هم الذين يتولّون ذلك في المواقف والعقبات الأخرى.

ومن ذلك تتبيّن صعوبة هذه العقبة، حتى ورد انَّ أربعين صلاةً مقبولة تُؤخذ من الإنسان، في مقابل كلّ درهم عليه من حقّ الناس!

---

(١) يقول العلاّمة المجلسي في بيانه الذي يشير إليه المؤلف : «أقول : قد مرَّ برواية الصدوق؛ في باب انَّهُ يؤتى بجهنّم في القيامة، قوله (عليه السلام) : كان المُنتهى إلى ربّ العالمين. أي إلى عدله ومجازاته عن مظالم العباد». البحار، ج٨ ، ص٦٥. [المترجم]

الفصل الرابع عشر

الكوثر

في بحث المعاد يُعتبر «حوض الكوثر» من الأمور الثابتة التي يتّفق عليها الشيعة والسنّة معاً[1].

وسورة الكوثر ترتبط بحسب الظاهر بـ «حوض الكوثر»، وإن كانت تُؤوّل بالدلالة على فاطمة الزهراء (صلوات الله عليها) بضعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله)، وقد ذُكر للسورة معانٍ أخرى أيضاً.

حديث الثقلين

من الثابت ـ بحسب السنّة القطعية ـ انَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) حدَّث أصحابه بحديث الثقلين في مواقع حسّاسة ومهمّة، كان من بينها أثناء رحلته (صلوات الله عليه) إلى الرفيق الأعلى. وفي هذا السياق يذكر المرحوم مير حامد صاحب موسوعة «العبقات»، والذي له على المسلمين حقّ كبير بما أسداه من خدمات علمية؛ انَّ حديث الثقلين نُقِلَ عن طرق الشيعة والسنّة بـ (٥٠٢) سند[2].

---

(١) وما أروع قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في ذلك: «مَن لم يؤمن بحوضي فلا أورده الله حوضي». الأمالي، ص٧، وعلم اليقين، ج٢، ص٩٨٤. [المترجم]

(٢) يشير المؤلف إلى السيّد حامد حسين اللكهنوي صاحب موسوعة «عبقات الأنوار» التي تعدّ من أكبر الموسوعات في موضوعها، حيث اختص صاحبها بمنهج خاص في البحث

وفي نص الحديث نقرأ انَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) قال : «انّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض»[1].

والذي يفهم من قوله (صلّى الله عليه وآله) «حتى يرِدا عليَّ الحوض» انَّ في المحشر نهراً باسم «الكوثر». وهذا المعنى تنصّ عليه الأحاديث المروية عن أئمّة الهدى (عليهم السلام)[2]. و«الكوثر» صيغة مُبالغة بمعنى «الخير الكثير»[3]، والمقصود انَّ الحوض كبير وذو بركة[4].

ولهذا السبب بالذات يطلق على فاطمة الزهراء بضعة رسول الله (صلّى الله عليه وآله) اسم الكوثر، لأنَّ فيها الخير الكثير والبركة الواسعة.

والذي يتّضح من حديث الثقلين، انَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يرد حوض الكوثر قبل الجميع، ثم يَرِد عليه كتاب الله وعترته أهل بيته كما هو واضح من قوله : «حتّى يردا عليّ الحوض».

وعلى نحو التفصيل نجد انّ الروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام)

والاستدلال يقوم على الاستيعاب والتتبع الهائل وإعادة الأسئلة إلى جذورها. وقد وُلِد صاحب العبقات سنة ١٢٤٦ هـ وتوفي بلكهنو من بلاد الهند في ١٨صفر سنة ١٣٠٦ هـ بعد أن ترك ما يقرب من مائتي مجلّد. يُلاحظ في شأنه وترجمته، ما كتبه السيّد المحقّق علي الحسيني الميلاني في مقدّمة المجلّد الأوّل من خلاصة عبقات الأنوار الصادر عن مؤسسة البعثة، ١٤٠٥ هـ . [المترجم]

(١) ذكر صاحب الغدير أسانيد كثيرة للحديث يمكن مُراجعتها في موسوعة الغدير (١١مجلّداً).

(٢) جاء في الحديث الشريف عن ابن عبّاس، انّه قال : « لما نزَلَ على رسول الله (صلّى الله عليه وآله) « إنّا أعطيناك الكوثر » قالَ لهُ علي بن أبي طالب : ما هو الكوثر يا رسول الله؟ قال : نهر أكرمني الله به ». أمالي الطوسي، ص٤٣. [المترجم]

(٣) وفسّر ابن عبّاس (الكوثر) بـ : « الخير الكثير ». الدر المنثور، ج٦، ص٤٠٢. [المترجم]

(٤) من الأحاديث الدالّة على سعته، ما جاء في الخبر : « ان حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء...، وأكوابه عدد نجوم السماء ». المسند، ج٥، ص٢٧٥. وكذلك : الترمذي، ج٤، ص٦٢٩. [المترجم]

تُشير إلى انَّ الخلق يُبعثون صفوفاً مختلفة وزرافات زرافات إلى المحشر، بعد النفخ في الصور للمرّة الثانية.

يقول تعالى : «يومَ ندعُو كُلَّ أناسٍ بإمامِهم».

ففي ذلك اليوم يأتي الإمام أمير المؤمنين علي (عليه السلام) بيده لواء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) المعروف بـ «لواء الحمد» وتحت اللواء الأبرار من شيعة علي والمتمسّكين بولايته، فيردون على رسول الله يتقدّمهم علي[1].

ومن الثابت أيضاً، انَّ رسول الله (صلّى الله عليه وآله) يقف مع علي بن أبي طالب والأئمّة (عليهم السلام) ومَن والاهم وتبعهم باحسان، على مكانٍ مرتفع بَاسم «الأعراف» يتسلّط من يقف عليه على عرصة المحشر، وينظر إلى الخلق[2].

وتؤكّد الروايات أيضاً، انَّ شيعة علي (عليه السلام) ومَن والاه واتبعه باحسان، يُسقون بيده الكريمة من ماء الكوثر، فَيُنزَعُ ما في صدورهم من غل[3] أي تنزع آخر رواسب الصفات غير الالهية) ويرتوون[4].

---

(١) الروايات الدالّة على حمل علي (عليه السلام) للواء رسول الله (صلّى الله عليه وآله) في الآخرة، كثيرة، منها ما جاء عن ابن عباس، قال : قال رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : إذا كان يوم القيامة أتاني جبرئيل وبيده لواء الحمد وهو سبعون شقّة؛ الشقة منه أوسع من الشمس والقمر، فيدفعه إليَّ فآخذه وأدفعه إلى علي بن أبي طالب. وقد تكرَّر منه القول لعلي أنّك : «صاحب لوائي في الآخرة، كما انّك صاحب لوائي في الدنيا». البحار، ج٨، ص٢، ٦. [المترجم]

(٢) الأعراف : جمع عَرفة، وتقال للمكان المرتفع.

(٣) يقول القرآن الكريم : «ونزعنا ما في صدورهم من غلٍّ تجري من تحتِهم الأنهار» الأعراف : ٤٣.

(٤) جاء في الحديث الشريف قول رسول الله (صلّى الله عليه وآله) لعلي (عليه السلام) : «وأنت صاحب حوضي». وقال (صلّى الله عليه وآله) في حديث آخر بحق علي : «فإنّه صاحب حوضي، يذود عنه أعداءه، يسقي أولياءه». وقال علي (عليه السلام) : «والذي

انَّ مكان هؤلاء في علٍّ، تصدر منهم رائحة كريمة تُعطّر أجواء المحشر وتملأ فضاءه، ولا يصيبهم تعب أو نصب أو ظمأ أو مخمصة أو جوع، حيث يمرّ عليهم زمن القيامة (خمسون ألف عام) وكأنّه لحظة واحدة.

قسيم الجنّة والنار

يذكر «صعصعة بن صوحان» انّه أقبل إلى الإمام علي (عليه السلام) في أواخر لحظات حياته، وطلب منه النصيحة. فذكر الإمام لصعصعة انَّ رأس رسول الله (صلّى الله عليه وآله) كان في حجره وهو في آخر لحظات عمره الشريف، وكانت يده في يدي، فحدَّثني بهذا الحديث. (يقول صعصعة : أخذ الإمام علي يدي في هذه اللحظة، وأخذ يحدّثني الحديث).

يقول علي بن أبي طالب، فيما يحدّث فيه عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «فأُقبلُ، وأنا يومئذٍ مُتزرٌ بريطة من نور، عليَّ تاج الملك، واكليل الكرامة، وعلي بن أبي طالب أمامي، وبيده لوائي... إلى أن قال : حتى أعلو الدرجة [ويعني بها درجات الوسيلة، وهي درجة رسول الله في الجنّة]، وعلي أسفل منّي بدرجة..؛ إلى أن قال : فبينا أنا كذلك إذ مَلكان قد أقبلا إليَّ : أمّا أحدهما فرضوان خازن الجنّة، وأمّا الآخر فمالك خازن النار» ثم قال (صلّى الله عليه وآله) : «فيقول المَلك : أنا رضوان خازن الجنّة، وهذه مفاتيح الجنّة بعث بها إليك ربّ العزّة، فخذها يا أحمد. فأقول : قد قبلتُ ذلك من ربّي، فَلهُ الحمد على ما فضَّلني به، [ثم] أدفعها إلى أخي علي بن أبي طالب».

ثم يأتيه المَلك الآخر، فيقول له (صلّى الله عليه وآله) : «أنا مالك خازن النار، وهذه مقاليد النار بَعث بها إليك ربّ العزّة، فخذها يا أحمد. فأقول : قد قبلت ذلك من ربّي، فلَهُ الحمدُ على ما فضّلني به، [ثم] أدفعها إلى أخي علي بن

فلق الحبّة وبرأ النسمة لأقمعنَّ بيديَّ هاتين عن الحوض أعداءنا، إذا وردته أحباؤنا».
البحار، ج٨ ، ص١٩، ٢٥. [المترجم]

أبي طالب».

ثم قال (صلّى الله عليه وآله) : «فيقبل عليّ، ومفاتيح الجنّة ومفاتيح النار [معه]..؛ فيقول لها عليّ : قرّي يا جهنّم، خذي هذا عدوّي واتركي هذا وليّي».

ثم قال : «فَلَجَهنّم يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعلي من غلام أحدكم لصاحبه...؛ وللجنّة يومئذٍ أشدّ مطاوعة لعليٍّ، فيما يأمرها به، من جميع الخلائق»[1].

ولذلك جاء في الخبر انَّ عليّاً (عليه السلام) هو «قسيم الجنّة والنار»[2].

ويتّضح من الرواية انَّ أصحاب علي والتابعين له باحسان والمتمسّكين بولايته والمتواجدين إلى جانبه على الحوض، لن يكون لهم حساب، ولن يتعرّضوا لأهوال الصراط والميزان وعقابهما، وانّما ينتقلون من هذه النشأة إلى العالم الآخر من دون أن يمرّوا بذلك (كناية على اليسر) ليروا أنفسهم مع إمامهم.

عليّ ساقي الكوثر

تتحدّث بعض الأخبار عن انَّ بعض الأموات يُسقون أثناء موتهم من يد علي (عليه السلام) ماء الكوثر، وهؤلاء هم خلّص الرجال من أهل الولاية. وربّما كان

---

(١) روى الخبر كاملاً ـ وهو أطول مما اقتطف المؤلف منه في المتن ـ الشيخ الصدوق، باسناده عن أبي سعيد الخدري، في معاني الأخبار، باب معنى الوسيلة، ص١١٦، وكذلك يلاحظ في تفسير القمي، ص٦٤٤، وبالنسبة لنا فقد اعتمدنا في نقل النص على : علم اليقين، ج٢، ص٩٨٨ ـ ٩٩٠ . [المترجم]

(٢) تتّفق روايات الشيعة والسنّة على انَّ عليّاً (عليه السلام) هو قسيم الجنّة والنار، فمن ذلك ما يروى بإسنادهم عن عبدالله بن عمر قال : «قال رسول الله (ص) لعلي بن أبي طالب: إذا كان يوم القيامة يؤتى بك يا عليّ على نجيب من نور، على رأسك تاج قد أضاء نوره وكادَ يخطف أبصار أهل الموقف، فيأتي النداء من عند الله ـ جلّ جلاله ـ أين خليفة محمّد رسول الله؟ فيقول علي : ها أنا ذا. فينادي المنادي : يا عليّ أدخل مَن أحبّك الجنّة، ومَن عاداك النار، وأنت قسيم الجنّة والنار». عن : علم اليقين، ج٢، ص٩٩٢، والملاحظ انَّ مؤلفه يروي في كتابه عن الشيعة والسنّة معاً. [المترجم]

قول علي بن الحسين الأكبر (عليه السلام) نـاظراً لهـذا المعنـى عندمـا خـاطب أبـاه الحسين (عليه السلام) ـ وهو في الرمق الأخير من حياته ـ بقوله : «هذا جدّي قـد سقاني بكأسه شربة لا أظمأ بعدها، وهو يقول إنّ لك كأساً مذخورة».

وثمّة طائفة أخرى من الناس، تطلب عند موتها الماء، فيأتيها الشيطان بإنـاءٍ فيـه ماء بارد، وعندما يَسلُب منهم الإيمان، يسكب الماء أمام أعينهم إلى الأرض.

انّ مواقف المحشر صعبة وعقباته مهولة، بيدَ انّهـا يسـيرة سـهلة لأهـل الولايـة والتابعين لعلي (عليه السلام) باحسان، فشيعة علي ومواليه يسقون الكوثر من يديه فلا يظمأون بعد ذلك أبداً[1]. ولكنّها ليست كذلـك بالنسبة للكـافرين والظـالمين والمنافقين.

ولكـن علينـا أن نعـي جيّـداً، أنّ شـيعة علـي الذيـن تقصدهـم الروايـات، هـم السائرون على منهاجه حقّاً في الحياة الدنيا.

يوم يدعى كلّ أُناس بإمامهم[2]

تحشر كل طائفة في يوم القيامة مع إمامها الذي ائتمّت به في الحياة الدنيا[3].

فبعد النفخة الثانية في «الصور» ينطلق كل واحد مـن جدثـه ليلحـق بإمامـه، فترى الفاسق يقود الفاسقين، والكافر يسوق الكفار، والظلمة مـع فرعـون، وكـلٌّ

---

(١) جاء في الحديث عن رسول اللـه، قوله (صلّى اللـه عليه وآله) : «مَن أراد أن يتخلّص مـن هول القيامة، فليتولّ وليّي، وليتّبع وصيّي وخليفتي مـن بعـدي عليّ بـن أبي طـالب، فإنّهُ صاحب حوضي، يذود عنه أعداءه، يسقي أولياءه، فمن لم يُسـق منـه لم يـزل عطشـاناً ولم يُروَ أبداً، ومَن سُقي منه شربة لم يشقَ ولم يظمـأ أبـداً». بحار الأنـوار، ج٨ ، ص : ١٨. [المترجم]

(٢) يشير العنوان إلى قوله تعالى : «يوم ندعو كلّ اناسٍ بامامهم» الإسراء : ٧١. [المترجم]

(٣) عن النبي (صلى اللّه عليه وآله) قال: «فيه [القيامة] يدعى كل أناس بإمام زمانهم، وكتاب ربّهم وسنة نبيه». عيون أخبار الرضا، ج ٢ ، ص ٣٣ ، وكذلك البحار، ج ٨ ، ص ٨ . [المترجم]

هناك يلتحق بطائفته وينجذب إلى فئته[1].

امّا مَن كان يتولّى عليّاً (عليه السلام) ويسير في الحياة الدنيا على نهجه، فسيلتحق به هناك ويكون تحت رايته ولوائه.

وفيما يتعلّق بأصحاب الذنوب من الشيعة ومَن لم تشبه صفاته في الحياة الدنيا صفات امامه، فلن يرد الحوض معَ الإمام، وانّما يُساق إلى الحساب.

امّا مَن كان من هؤلاء أهلاً للشفاعة، فيشفع له أهل البيت (عليهم السلام) ويدخل الجنّة بشفاعتهم. وإن لم يستوجب الشفاعة يُذهب به إلى النار، فيمكث بها إلى أن يتطهّر، ثم تناله الشفاعة. (أي انّه لا يخلد في النار).

لذلك، إذا أراد الإنسان أن يُحشر تحت لواء الحمد، خلف علي بن أبي طالب (عليه السلام) ويدخل الجنّة مباشرة دون حساب، فعليه أن يتهذّب في حياته الدنيا بالخُلق الصالح، وأن يبتعد عن كل الصفات المذمومة، ويتعبَّد بأحكام الله، ويتأدّب بآداب الشرع المقدّس، وعليه أن ينقّي قلبه ويطهّره من الغلّ، لكي لا يحتاج بعد ذلك إلى نار جهنّم ليتطهّر بها من ذنوبه.

لذلك لا يكفي الإنسان أن يقول اني من شيعة علي (عليه السلام) وهو يرتكب المعاصي والذنوب في الحياة. فإذا مضى إنسان كهذا على ذنوبه، فلن يستحق إلاّ النار، وقد يمكث بها آلاف السنوات قبل أن يتطهّر ويُذهب به إلى الجنّة.

إذاً، علينا جميعاً أن نتأسى في حياتنا بنهج أهل البيت (عليهم السلام) لكي تكون خُطانا تبعاً لهم في الدنيا والآخرة. فالذي يسلك طريقهم ومنهجهم في الحياة الدنيا، لابدَّ أن يكون تبعاً لهم في الآخرة، فيأمن بهم أهوال يوم القيامة ونارها

---

(١) وفي ذلك يقول الإمام الصادق (عليه السلام) : « اما انّه سيدعى كلّ اناسٍ بامامهم، أصحاب الشمس بالشمس؛ وأصحاب القمر بالقمر؛ وأصحاب النار بالنار، وأصحاب الحجارة بالحجارة ». تفسير العياشي، ج٢، ص٣٠٣، وكذلك : البحار، ج٨ ، ص١٢. [المترجم]

وحزَنها، وظلمات المحشر وعذابه.

امّا إذا انحرفنا عن مسيرهم في الحياة الدنيا، وابتعدنا عن منهجهم؛ فماذا ننتظر سوى ان نلقى مصائب القبر وعذاب البرزخ وأهوال القيامة، وان لا نكون في أمانٍ من فزع تلك المشاهد؟

حبّ أهل البيت

وخير ما نختم به هذا الفصل رواية ننقلها عن روضة الكافي، حيث يحدّث الحكم بن عتيبة فيقول : «بينا أنا مع أبي جعفر (عليه السلام) والبيت غاصّ بأهله إذ أقبل شيخٌ يتوكّأ على عنزةٍ له[1]. حتى وقف على باب البيت، فقال : السلام عليك يا ابن رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم سكت، فقال أبو جعفر عليه السلام : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته، ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال : السلام عليكم، ثم سكت حتى أجابه القوم جميعاً وردّوا عليه السلام، ثم أقبل بوجهه على أبي جعفر عليه السلام، ثم قال: يا ابن رسول الله أدنني منك جعلني الله فداك، فوالله اني لأُحبّكم وأُحبّ مَن يحبّكم، ووالله ما أحبّكم وأحبّ مَن يحبّكم لطمع في دنيا، و[الله] اني لأبغض عدوّكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لِوتَر كانَ بيني وبينه، والله إنّي لأحلّ حلالكم وأحرّم حرامكم وأنتظر أمركم فهل ترجو لي جعلني الله فداك؟ فقال أبو جعفر عليه السلام : إليّ إليَّ حتى أقعده إلى جنبه ثم قال : أيّها الشيخ إنَّ أبي علي بن الحسين عليهما السلام، أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه، فقال له أبي عليه السلام : ان تَمُت تَرِد على رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين، ويثلج قلبك ويبرد فؤادك وتقرّ عينك وتُستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسك ههنا ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ وإن تعش ترى ما يقرّ الله به عينك وتكون معنا في السنام الأعلى، قال الشيخ : وكيف قلت يا أبا جعفر؟ فأعاد عليه الكلام، فقال الشيخ : الله أكبر يا أبا جعفر

---

(١) العنزة : عصا في رأسها حديد.

ان أنا متّ أرِدُ على رسول الله صلّى الله عليه وآله وعلى علي والحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام، وتقرّ عيني ويثلج قلبي ويبرد فؤادي واستقبل بالروح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسي إلى ههنا، وان أعِش أرى ما يقرّ الله به عيني فأكون معكم في السنام الأعلى؟!! ثم أقبل الشيخ ينتحب، ينشج هاهاها حتى لصق بالأرض، وأقبل أهل البيت ينتحبون وينشجون لما يرون من حال الشيخ، وأقبل أبو جعفر عليه السلام يمسح بأصبعه الدموع من حماليق عينيه وينفضها، ثم رفع الشيخ رأسه فقال لأبي جعفر عليه السلام : يا ابن رسول الله ناولني يدك جعلني الله فداك، فناوله يده فقبّلها ووضعها على عينيه وخدّه، ثم حَسَرَ عن بطنه وصدره فوضع يده على بطنه وصدره، ثم قام فقال : السلام عليكم. وأقبل أبو جعفر عليه السلام ينظر في قفاه وهو مدبر، ثم أقبل بوجهه على القوم فقال : مَن أحبّ أن ينظر إلى رجل من أهل الجنّة فلينظر إلى هذا »[1].

علينا جميعاً أن نكون من محبّي علي وأهل بيت علي (عليهم السلام)، وينبغي لحبّنا أن لا يكون حبّاً خطابياً، أي ينبغي للحب أن لا يبقى في دائرة الكلام والألفاظ، وانّما يتجسّد عملاً واتباعاً لمنهج هؤلاء الهداة وتطبيقاً لتعليماتهم السامية.

انَّ حبّ علي وأهل بيته معناه أن نجتنب المعاصي ونبتعد عن الذنوب، فنمتنع عن الغيبة والنميمة وإثارة الشائعات والتعرّض لكرامات الناس.

وحبّ علي وأهل بيته معناه الأخوّة والانسجام الحقيقيّان بين أتباعه، ونزع الغلّ حتى تسود المحبّة ويعمّ الصفاء.

وحبّ أهل البيت معناه تحريم حرام الله وتحليل حلاله. وإذا ما بدَرَ منّا ذنب أو معصية فعلينا أن نتبادرها بالتوبة الفورية التي تغسل الذنوب وتطهِّر الإنسان من تبعاتها.

انَّ حبّ علي على هذه الشاكلة هو الذي يجعل صاحبه في القيامة سائراً خلف علي أمير المؤمنين وهو يحمل لواء الحمد، لواء رسول الله، فيُكتب من الناجين ويُحشر في أصحاب الفلاح.

---

(١) الروضة من الكافي (ج٨) ، ص٧٦ ـ ٧٧ . [المترجم]

الفصل الخامس عشر

الحساب والكتاب

تُؤكّد آيات القرآن الكريم بشكل جليّ وواضح، على انّ في القيامة حساباً وكتاباً، أو ما يُطلق عليه عند المتكلّمين بـ «تطاير الكتب». انّ الإنسان يجد في القيامة أمامه «صحيفة أعماله» وهي تعرفه وتلتحم به كما يعرف الطير عشّه ويأنس به.

ولأنّ بحثنا قرآني (ولا يتحرّك في نطاق علم الكلام) فسنبقى في إضار دلالات آيات القرآن الكريم. وعلينا أن ندرك جيّداً، اننا إذا أردنا أن ندخل الموضوع من خلال التفصيلات الروائية، وما يُتيحه لنا علم الكلام والفلسفة والعرفان، فلن نصل في العجالة التي نحن فيها إلى نتائج واضحة، وربّما خرجنا عن الموضوع الأصلي من دون أن نصل إلى نتائج متكاملة إلاّ بعد مُضي وقتٍ طويل من البحث والدراسة.

لذلك سنبقى في إطار البحث القرآني حول المعاد، دون أن نهمل بعض الإشارات الروائية، أو تلك اللمحات ذات الطابع البرهاني والفلسفي.

الكتاب أو صحيفة الأعمال

ثمّة في القرآن الكريم تأكيد خاص على صحيفة الأعمال أو الكتاب. ولذلك نجد أنفسنا بحاجة إلى أن نبقى في أجواء الآيات التي تتحدّث عن الموضوع، لنعرف بشكل دقيق وواضح، المقصود من صحيفة الأعمال.

نجد في القرآن الكريم تأكيداً، على انّ أصحاب الأعمال الصالحة يُعْطَونَ

كُتُبهم بيمينهم. امّا أصحاب الذنوب والمعاصي من المجرمين والمنافقين ونظائرهم فيعطونَ كُتُبهم بشمالهم أو من وراء ظهورهم.

يقول (تعالى) فيمن يُعطى كتابه بيمينه : «فأمّا مَنْ أوتيَ كتابَهُ بيمينِهِ فيقولُ هاؤُمُ اقرؤُا كِتابيهْ»(١).

ثم يتحدّثِ القرآن الكريم عن سبب اهتمام مثل هذا الإنسان بصحيفة أعماله، فيقول في الآية التي تلي الآية الآنفة : «انّي ظننتُ انّي مُلاقٍ حِسابِيَهْ»(٢).

ثم ينعطف الخطاب القرآني، في الآيات التي تلي هذه الآية، لتبيان حال هؤلاء، فيقول في وصفهم : «فهوَ في عيشةٍ راضيةٍ في جنّةٍ عاليةٍ قُطوفُها دانيةٌ كُلُوا واشرَبُوا هنيئاً بما أسلفتُم في الأيّام الخالية»(٣).

ومن الواضح انَّ هذه الثمرة هي نتيجة عمل الإنسان وما أسلفَ في الأيّام الخالية.

امّا من يُعطى كتابه بشماله، فيتحدَّث عنهم القرآن، ويصف حالهم بقوله : «وامّا مَن أوتيَ كِتابَهُ بشمالِهِ فيقولُ ياليتني لم أوتِ كتابِيَهْ وَلم أدرِ ما حسابِيَهْ. ياليتَها كانتِ القاضيةَ ما أغنى عَنّي ماليه هَلَكَ عَنّي سُلطانِيَهْ»(٤).

سورة الانشقاق

يتجدّد المعنى القرآني الآنف في سورة الانشقاق، حيث يقول تعالى : «فأمّا مَن أوتيَ كِتابهُ بيَمينِهِ فسوفَ يُحاسَبُ حساباً يسيراً وَيَنقلِبُ إلى أهلِهِ مسروراً»(٥).

ثمّ تتحدّث الآيات عمَّن يُؤتى كتابه وراء ظهره : «وامّا مَن أوتيَ كِتابَهُ وراءَ ظَهرِهِ فسوفَ يَدعُو ثبوراً وَيصلى سعيراً انّهُ كان في أهلِهِ مسروراً»(٦).

---

(١) الحاقة : ١٩ .

(٢) الحاقة : ٢٠.

(٣) الحاقة : ٢١ ـ ٢٤.

(٤) الحاقة : ٢٥ ـ ٢٩.

(٥) الانشقاق : ٧ .

(٦) الانشقاق : ١٠ ـ ١٢ .

ثم تأتي آية أخرى تتحدّث عن أعمال الفئة التي تستوجب ان تؤتى كتابها وراء ظهرها، حيث يقول تعالى : «يا أيّها الذينَ أوتُوا الكتاب آمنُوا بما نَزَّلنا مُصدِّقاً لما معكُم من قبل انْ نطمسَ وجُوهاً فنردَّها على أدبارها ونَلعَنَهُم كما لعَنّا أصحاب السبتِ»[1].

والذي نستفيده من الآية، انَّ مَنْ يشهد بغير الحق والمنافق والمرائي، يحشرون يوم القيامة مطموسة وجوههم مردودة على أدبارها. وأمثال هؤلاء يُعطونَ كتابهم من وراء ظهورهم.

إتمام الحجّة

ثمّة آية أخرى في سورة الإسراء، تهزّ الإنسان من أعماقه، وكثيراً ما كان يستشهد بها استاذنا الجليل الإمام الخميني، ويردّدها في دروسه.

ويشار أيضاً إلى انَّ علماء الأصول يستدلّون بالآية على انَّ اللّه (سبحانه) لا يجازي ولا يعاقب دون حجّة، وانَّ الحجّة على الإنسان تستكمل في هذه الدنيا، والإنسان في الآخرة لا يُجازى بالجنّة أو النار إلاّ بعدَ اتمام الحجّة عليه.

والآية التي نعنيها، هي قوله تعالى : «وَكُلَّ إنسانٍ ألزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ ونُخرِجُ لهُ يومَ القيمةِ كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كِتابَكَ كَفى بنَفسِكَ اليومَ عليكَ حسيباً. مَنِ اهتدى فإنّما يَهْتدي لنفسهِ ومَنْ ضلَّ فإنّما يَضِلّ عليها وَلا تَزِرُ وازرةٌ وِزْرَ أخرى وَما كُنّا مُعذّبينَ حتى نَبعثَ رسُولاً»[2].

معنى الكتاب أو صحيفة العمل

ما هو الكتاب أو صحيفة العمل؟ فهل هُما صفحة قلب الإنسان؟ انَّ بعض الآيات تُشير إلى هذا المعنى. وعليه تكون «هوية الإنسان» هي كتابه وصحيفة

---

(١) النساء : ٤٧.

(٢) الاسراء : ١٣ ـ ١٥ .

عمله.

أو يكون المراد بـ «صحيفة العمل» أعمال الإنسان التي تحيط به، وتأخذ بأطرافه كما تدلّ على هذا المعنى بعض الآيات الكريمة؟

وربّما كان المقصود من «صحيفة العمل» نسخة من أصل عمل الإنسان، وخُلاصة لحسابه. يقول القرآن الكريم : «ما يَلفظُ من قولٍ إلاّ لديه رقيبٌ عتيدٌ»[1].

ووفق الوجه الثالث، يكون المقصود من «صحيفة الأعمال» هي خلاصة ما يكتبه المَلكان الموكّلان بالإنسان، ممّا يفعله من السيّئات والحسنات، تُعرض عليه يوم القيامة، ويُحاسب بها.

وما دامت الآيات الكريمة تدلّ على المعاني الثلاثة، فسيكون المقصود من «صحيفة الأعمال» ما يلي :

أوّلاً : صفحة نفس الإنسان

وفقاً للمعنى الأوّل، تكون صحيفة عمل الإنسان هي صفحة نفسه، أي هويّته وما تطويه سريرته.

يقول تعالى : «هُنالكَ تبلُو كلّ نفسٍ ما أسلَفتْ»[2].

وثمّة ما يشير إلى ذلك في قوله تعالى من سورة المطففين : «يومَ يقومُ الناس لرَبِّ العالمين . كلاّ إنَّ كتاب الفجّارِ لفي سجّين»[3].

انَّ «كلاّ» هنا تحقيقية، والمعنى : كونوا على يقين انَّ كتاب (صحيفة عمل) الفجّار في سجّين؛ أي في جهنّم، ولا يستقيم المعنى، إلاّ إذا كانت صحائف أعمال

---

(١) رقيبٌ وعتيد مَلَكان يُرافقان الإنسان دائماً، أحدهما على اليسار والآخر على اليمين.
يقول تعالى : «إذ يتلقى المُتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد» (ق : ١٧).

(٢) يونس : ٣٠.

(٣) المطففين : ٧ .

هؤلاء هي قلوبهم نفسها؛ أي هي صحائف قلوبهم وسرائر أنفسهم، التي يرمى بها في النار برميهم فيها.

ومع هذا المعنى، يكون من الواضح انَّ صحيفة عمل الإنسان هي هويّته. وهناك آية أخرى، تؤكّد هذا المعنى، حيث يقول تعالى : «يُعرف المجرمونَ بسيماهُم فيُؤخذُ بالنّواصي والاقدامِ»[1]. أي انَّ الأفراد يعرفون في القيامة من سيماهم، حيث يميَّز أصحاب النار من غيرهم.

ثانياً : الأعمال المتجسّمة

يقول تعالى : «كلاّ انَّ كتابَ الأبرارِ لفي عِلّيينَ وَما أدراك ما عليّونَ كتابٌ مرقوم يشهدُهُ المقرَّبونَ»[2].

ووفق هذه الآية، فإنّ الجنّة هي ثمرة الأعمال الصالحة التي قام بها الإنسان، وشَهِدَ له بها الكرام الكاتبون، وانَّ أعماله الصالحة هذه هي نفسها التي أدّت إلى أن تكون صحيفة أعماله بيضاء.

وفي سورة الكهف، ثمّة ما يشير أيضاً إلى انَّ «صحيفة الأعمال» هي الأعمال المتجسّدة، أي أعمال الإنسان التي تحضر بصورها المجسّمة، حيث يقول (تعالى) : «وَوُضِعَ الكتابُ فترى المجرمينَ مُشفقينَ ممّا فيه ويقولونَ يا وَيلتنا ما لِهذا الكتابِ لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها وَوَجدُوا ما عَمِلوا حاضراً ولا يظلِمُ ربّكَ أحَداً»[3].

والذي يؤيّد هذا المعنى ويؤكّده، انَّ الملائكة الكرام الموكّلين بالإنسان، يحصون عليه في الدنيا حتى صوت (الصفير) الذي يصدر منه، وهما لا يغفلان عمّا يقوم به

---

(١) الرحمن : ٤١.

(٢) المطففين : ٣ .

(٣) و (٢) الكهف : ٤٩ .

(٣) آل عمران : ٣٠ .

من أوّل حياته إلى نهايتها.

وهناك آية ثالثة تؤكّد هذا المعنى، حيث يقـول تعـالى : «وَوَجَـدُوا مـا عَمِلُـوا حاضِراً»(٢).

بمعنى انَّ الإنسان يلقى في الآخرة أمامه ما أرسله من هذه الدنيا وما قامَ به مـن أعمال، بحيث تحيط به أعماله وتأخذ بأطرافه. (انّما هي أعمالكم ردّت إليكم).

لقد حذّر اللّه (سبحانه) عبـاده وخوّفهـم مـن مُنقلـب السـوء في ذلـك اليـوم، وجاءت الآيات الكريمة لتؤكّد للإنسان انَّ أعمالَهُ تحيط بهِ يومَ القيامة، فإن كان ما فعلهُ خـيراً فسيجده محضـراً أمامـه «يـومَ تجـدُ كـلّ نفـسٍ مـا عملـت مـن خـيرٍ مُحضراً»(٣).

امّا إذا كان أعمال الإنسان سيئة، فسيودُّ لو انَّ بينـهُ وبينهـا أمـداً بعيـداً «ومـا عملتْ من سوءٍ تودُّ لو انَّ بينها وبينَه أمداً بعيداً»(١).

ثالثاً : خلاصة الحساب

المعنى الثالث لصحيفة الأعمال، هي خلاصة الحساب.

يقول تعالى : «وترى كُلَّ أمّةٍ جاثيةً كُلّ أمّةٍ تُدعى إلى كتابها اليوم تُجزَوْنَ مـا كُنْتُم تَعملُون»(٢).

بيدَ انّا نجد في ذلك الموقف الرهيب، أمّةً من الناس لا تجثـو مـع الأمـم الجاثيـة، وهؤلاء هم أهل الولاية الحقّة من أتباع [النبي] ووصيّه من بعده أمير المؤمنـين ومـن أتباع أهل بيته. فأصحاب الولاية السائرون على نهجِ محمّد وأهل بيته، لا يجثون في الدنيا ولا في الآخرة(٣).

---

(١) آل عمران : ٣٠ .

(٢) الجاثية : ٢٧ .

(٣) قال الإمام علي (عليه السلام) في صفة هؤلاء : «أهل ولايتنا يخرج [يخرجون] من قبورهم يوم القيامة مشرقة وجوههم، قرّت أعينهم، قد أُعطوا الأمان، يخاف الناس ولا يخافون، ويحزن الناس ولا يحزنون». البحار، ج٧، ص٢٠٥. [المترجم]

الفصل السادس عشر

الميزان

تفيد آيات القرآن الكريم انَّ هناكَ «ميزاناً» توزن به الأعمال في يـوم القيامـة، فمن ترجح كفّة أعماله الصالحة يكون من أهل الجنّة؛ امّا مَـنْ ترجّـح كفّـة أعمالـه (واعتقاداته) السيّئة وغير الصالحة فيُذهب به إلى جهنّم.

يقول تعالى في كتابه الكريم : «والوزنُ يُومئذٍ الحقّ فَمَن ثَقُلَتْ مَوازينُهُ فأولئكَ هُم المفلحون . ومَن خَفّتْ موازينُهُ فأولئك الذينَ خَسِروا أنفُسَهُمْ» [1].

وعن الموازيـن القسـط، يقـول (تعـالى) في سـورة الأنبيـاء : «وَنَضَـعُ المَوازيـنَ القسط ليوم القيمةِ فلا تُظلَمُ نفسٌ شيئاً وإن كان مثقال حبّةٍ مـن خَـردَلٍ اتينـا بهـا وكفى بنا حاسبينَ» [2].

ونظير هاتين الآيتين، كثير في القرآن الكريم؛ فمن ذلك قوله تعالى : «فأمّا مَن ثَقُلت مَوازينُهُ فهُوَ في عيشةٍ راضيةٍ وامّا مَن خَفّتْ موازينُهُ فأمّـه هاويـةٌ ومـا أدراك ماهية نارٌ حامية» [3].

التناسب بين الميزان والموزون

انَّ ميزان كل شيء هو المعيار الذي يُعرف به قدر ذلك الشيء، ولا يكـون إلاّ

(١) الأعراف : ٨ ـ ٩ .

(٢) الأنبياء : ٤٧.

(٣) القارعة : ٥ ـ ١١.

من جنسه ومّما يُناسبه، فالحنطة والشعير وما ماثلهما من الاثقال والاجرام يوزن بالقبان والميزان العادي ذي الكفّتين، امّا الذهب مثلاً فلا يوزن بالقبّان العادي، وانّما يستخدم فيه معيار صغير جدّاً هو القيراط. أمّا بالنسبة للأقمشة فبالامتار، ويعرف اعوجاج الجدران واستواؤها بالشاقول، فيما يكون ميزان الفلسفة المنطق، وهكذا.

تناسب الموزون مع نفسه

المقدّمة الثانية الجديرة بالاهتمام لدرك المعنى الدقيق لميزان الأعمال، هي تناسب الموزون مع نفسه، بحيث يتسق الموضوع مع ما يدلّ عليه. فإذا قُلنا : انَّ الحنطة والشعير ثقيلان فالمعني بالثقل نفس الحنطة والشعير. امّا إذا قلنا : هذا القماش ثقيل، فلا ينصرف المعنى إلى ثقل القماش بالوزن، وانّما إلى صفته وجودته. كذلك الحال، عندما نقول انَّ قطعة الماس هذه ثقيلة، فلا نعني وزنها الذي قد لا يتجاوز عدّة غرامات، وانّما قيمتها وثمنها.

ونقول أحياناً في وصف الناس، انَّ فلاناً ذو وَزن ، والمقصود من ذلك الإشارة إلى أخلاقه وروحه العالية، ومنطقه السليم، وما يتّسم به سلوكه من رفعة وانسانية. وبعكسه عندما نقول : لا نقيم لفلان وزناً[1].

ويتّضح مّما مرّ انَّ ثقل أي شيء يتناسب مع نفس الشيء، وانَّ اطلاق وصف الخفة أو الثقل بالنسبة للأشياء، يُراد منه « الكميّة » أحياناً و« الكيفية » في أحيان أخرى.

---

(١) ورد هذا الاستعمال في قوله تعالى : « فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً » في إشارة منه تعالى إلى من كفر بربّه وآياته فحبطت أعماله كما يشير لذلك صدر الآية (الكهف : ١٠٥).

وكذا يقول الشاعر:

قد كنت قبل لقائكم ذا قوّة ... عندي لكلّ مخاصم ميزانهُ

معنى ميزان الأعمال

ليس المقصود من ميزان الأعمال في القيامة المعنى الاصطلاحي الذي يتبادر إلى الذهن عند سماع الكلمة؛ وبالتالي لأينظر إلى ثقل الأعمال ووزنها من زاوية الكمية، وانّما للميزان في الآخرة مصاديق مختلفة نشير منها إلى أربعة :

أوّلاً : هويّة الإنسان

انَّ هويّة الإنسان هي ميزان أعماله[1]. وهذه الهوية تستوجب بذاتها أن يكون الإنسان ذا وَزن أو بلا وزن في الآخرة. فلو ورد الإنسان المحشر ونوره يسعى بين يديه، وهو تحت لواء الإمام علي عليه السلام وقد أخذت الملائكة بأطرافه اعزازاً لَهُ وإكراماً، فانَّ «ميزانه» في هذه الحال «أعماله» [2] وهويّته (وسيماه) التي تدلّ على انَّهُ من أهل الجنّة.

امّا إذا ورد الإنسان المحشر وهو على صورة عقرب، تحيط به الاصفاد والأغلال والسلاسل، فإنَّ صورته هذه وهويته (وسيماه) هي نفسها ميزان أعماله.

ومع هذا المعنى يكون ثقل ميزان الإنسان في الآخرة هو كرامته وعزّته ومكانته (هويته). امّا خفّة الميزان، فيعبِّر عن ذلّ الإنسان وافتقاده للحيثية الكريمة.

ثانياً : تجسّم الأعمال

المصداق الثاني لميزان الأعمال، هو تجسّم الأعمال بالمعنى الثاني[3]. أي انَّ

---

(١) جاء في الحديث الشريف : «مَن كان ظاهره أرجح من باطنه خفّفَ ميزانه» الامالي : ٤٩٢. [المترجم]

(٢) يقول صدر المتألهين : «ميزان الأعمال، وهو كل أثر أو فعل يوجب الاطمئنان في نفس فاعله، ويقتضي له الثبات والاستقرار، ويزيل عنه الاضطراب والتزلزل» مفاتيح الغيب: ٦٥١. [المترجم]

(٣) يشير المؤلف إلى المعنى الذي تناوله في الفصل الثامن.

أعمال الإنسان في القيامة هي ميزانه. ذلك انَّ الأعمال تستبطن بذاتها أوزانها، وتستودع في نفسها ثقلها وخفّتها.

فالدرّ ثقيل بذاته، أمّا الصخر والخرز فهما خفيفان بذاتهما ولو كانت احرامها ثقيلة!

بناءً على هذا المعنى، يرد المؤمنون المحشر يوم القيامة، تحيط بهم صور جميلة وجذّابة، وهي الصور المتجسّمة لأعمالهم الصالحة في الحياة الدنيا، وهذه الصور تدلّ بنفسها على انَّ أصحابها من أهل الجنّة، وهي بذاتها ستكون ميزاناً يُعرف به الصالح من الطالح[1].

امّا الفجّار فيردون المحشر، وتُحيط بهم صور موحشة مؤذية، تُثير النُفرة في نفوس أهل المحشر، إذ فيها ما يظهر بصورة الدم والقذارة، وفيها ما يظهر على صورة العقارب والحيات والوحوش؛ فيما هي جميعاً تجسيد لأعمالهم السيّئة في الحياة الدنيا.

وفي حال هؤلاء تكون هذه الصور المتجسّمة هي ميزان الأعمال[2].

ثالثاً : صحائف الأعمال

انَّ صحائف أعمال الإنسان، هي الميزان الثالث لأعماله. ففي يوم القيامة يُعطى الإنسان بيديه خُلاصة لما عمله. وهذه الصحائف هي أفضل ميزان.

والذي عليه صريح القرآن، انَّ الإنسان إذا أوتي كتابه (صحائف أعماله) بيمينه فهو من أهل الجنّة، امّا إذا أوتي كتابه بشماله (أو من وراء ظهره) فهو من

(١) لذلك ذهب ابن عباس (رضي الله عنه) إلى انَّ أعمال المؤمن تتصوّر بصور حسنة، وأعمال الكافر تتصوّر بصور قبيحة، فتوزن بتلك الصور، وهذا معنى ميزان الأعمال. يلاحظ : مجمع البيان في ظلال آيات الميزان. [المترجم]

(٢) أجمل ما يدل على هذا المعنى ويقرّبه قول صدر المتألهين : « الأعمال زي أهل الموقف، فيُعرف المجرمون بسيماهم كما يُعرف الاجناد هنا بزيّهم » مفاتيح الغيب : ص٥٤.

أهل النار.

ووفق هذا المعنى، يكون المقصود من ثقل ميزان الإنسان، هو ثقل «صحائف أعماله» امّا خفّة ميزانه، فدلالة على خفّة «صحائف أعماله»[1].

وهذا المعنى يتصل ويتشابك مع «صحائف الأعمال» أي انَّ الذي أوتي كتابه بيمينه، فهو ممّن ثقلت موازينه وكثُرت حسناته، أمّا مَن يُعطاه بشماله فهو ممّن خَفّت موازينه وقلّت حسناته[2].

رابعاً : الإمام علي

الميزان الرابع للإنسان والذي تؤكّد عليه الروايات كثيراً، هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام).

وممّا يدلّ على ذلك ما جاء في زيارته (عليه السلام) : «السلام عليك يا ميزان الأعمال»[3].

وجاء في روايات أخرى ، ما يدل على انّ الأنبياء والأوصياء هم «الميزان»، ومن ذلك : «انّ الموازين القسط هُم الأنبياء والأوصياء»[4].

وفي رواية أخرى، عن هشام بن سالم، قال : سألت أبا عبداللّه (الصادق)

---

(١) وهذا هو منهب المفسّرين، حيث يستدلّون بما جاء عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) عندما سُئل عمّا يوزن يوم القيامة، فقال : الصحف. يلاحظ : مجمع البيان والتفسير الكبير في ظلال آيات الميزان. [المترجم]

(٢) يقول الإمام علي (عليه السلام) في كلام جامع: «الحسنات ثقل الميزان، والسيئات خفّة الميزان». التوحيد، ص ٢٦٨. [المترجم]

(٣) وردت الكثير من الأحاديث التي تؤكد انَّ الإمام علياً والأئمّة من ولده (عليهم السلام) هم «الميزان» وفي ذلك يقول الإمام الصادق : «نحن الموازين القسط» علم اليقين، ج٢، ص٩٤٤. [المترجم]

(٤) علم اليقين، ج٢، ص٩٤٤، وكذلك جاء في الحديث عن علي (عليه السلام) : «انا الصراط الممدود بين الجنّة والنار، وأنا الميزان» المصدر، ص٩٦٧. [المترجم]

(عليه السلام) عن قول اللّه عزّوجلّ : «ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفسٌ شيئاً» قال : «هم الأنبياء والأوصياء»[(١)].

ومن المؤكّد، انَّ الميزان بالنسبة لنا (وفق هذا المعنى) هو الالتزام بتوجيهات أئمة الهدى (عليهم السلام) وتوجيه الخُطى نحو منهاجهم والتخلّق بأخلاقهم، والتمسّك بحبلهم وحبّهم وولايتهم.

انَّ الإنسان الذي يجهل مكانة أهل البيت (عليهم السلام) في الدنيا ويتنكّب عن طريقهم ومنهاجهم، من المؤكّد انَّهُ لن يكون من أهل الهدى في الآخرة، لانَّ ميزانه سيكون خفيفاً. فالقريب إليهم قريب إلى اللّه (سبحانه)، فيما البعيد عنهم بعيدٌ عن اللّه (سبحانه).

لذلك يستوجب قربهم (صلوات اللّه عليهم أجمعين) في الحياة الدنيا وموالاتهم واتّباع نهجهم، ثقل ميزان الإنسان في الآخرة.

لا غرابة إذن أن يكون عليٌّ (عليه السلام) ميزان الأعمال. فالإنسان يرد المحشر، فتقارن أعماله وتقيَّم ويُحكم عليه إلى الجنّة أو النار، من خلال اقترابه أو ابتعاده عن علي ونهج علي. فمن كان في عمله وقوله أقرب إلى نهج علي في عمله وقوله، فاز وكان من أهل الجنّة والرضوان، امّا من كان بعيداً في عمله وقوله واعتقاده عن نهج علي، فهو من أهل النار والخسران.

وبكلام آخر، انَّ عليّاً (عليه السلام) هو الميزان، وبالتالي فهو المعيار الفاصل بين الحق والباطل.

وإذا قيل انَّ القرآن الكريم هو ميزان الأعمال والأقوال، فبِهِ تُقاس وتُقارن، فسنقول : انَّ عليّاً نفسه هو «القرآن الناطق».

إشارة

لقد عبَّر القرآن الكريم عن «الميزان» بصيغة الجمع، حيث قال تعالى : «ونَضع الموازين». ومن ذلك يظهر، انَّ في القيامة أكثر من ميزان، وليس ميزان واحد،

---

(١) المصدر نفسه.

وانَّ الإنسان يُعرض على تلك الموازين.

والذي يؤكّد أيضاً انَّ «الموازين» مُتعدّدة في الآخرة، هو قوله (تعـالى) «فَمَـن ثقُلَت موازينه».

وبه يستقيم ما قدَّمناه من انَّ للميزان أكثر من صفة ومصداق، وانَّهُ «موازين» وليس ميزاناً واحداً، فهو تارة يكون هويـة الإنسـان، وتـارةً «صحـائف أعمالـه» وثالثةً تجسّم الأعمال وصورها، وأهـم هـذه الثلاثـة جميعـاً، هـو الإمـام علـي أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي هو الميزان الأكبر.

كلمة أخيرة

بعدَ الذي مرَّ من حديث، نجد من المناسب ان نُعطي لأنفسنا برهة تأمّل، ننظـر فيها إلى أنفسنا، ونقارن بيننا وبين ما يُمثّله الإمام علي والذي هو ميزان الأعمال!

علينا أن نعطف خُطى حياتنا نحو نهج علي الذي أعطـى نفسـه للّـه، و لم يَحِـدْ نحو اليسار أو اليمين في أي لحظة مـن لحظـات عمـره الشـريف، وانّمـا بقـي علـى الصراط السويّ.

علينا ان نُحاسب أنفسنا وفق نهـج علـي لنطهّـر أنفسـنا، ونطـرد عنّـا الأهـواء النفسانيّة والتأثيرات الشيطانية، وإلاّ فلن ينتظرنا إلاّ الخسران!

انَّ عرض أنفسنا على ميزان علي (عليه السلام) يدعونا أن نتعـرَّف علـى حيـاة هذا الإمام العظيم، وفيمَ أمضى عمره الشريف.

لقد رافق الإمام علي النبيّ الأطهر من صدر البعثـة حتـى الوفـاة، وأمضـى معـه (٢٣) عاماً كاملة، هي تمام الفترة الممتدّة من البعثة حتى الوفاة، فلـم يتخلّـف عـن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وانّما اشترك في حروب النبي ومغازيه جميعاً (٧٤ حرباً وغزوة) إلاّ اثنتين بقـي فيهمـا في المدينـة المنوّرة، لمواجهـة حركـة النفـاق في الداخل، وما كان ليتخلّف عن رسول اللّه أو يمكث في المدينة من أمر نفسه، وانمـا امتثالاً لأمر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله).

امّا في مكّة، فقد أمضى (١٣) عاماً مملوءة لحظاتها بالجهاد والمواجهة. بل كانت سنوات مكة أمضّ في ثقل الجهاد ووعورة الطريق، وما تحمّلته الدعوة الناشئة خلالها من مشاق وتحدّيات، من حروب المدينة وغزواتها.

وبعد رحلة المصطفى (صلّى اللّه عليه وآله) إلى الرفيق الأعلى، مكث في بيته صابراً محتسباً، محتملاً ما هُضمَ من حقّه (عليه السلام) كما قال: «فرأيت أنَّ الصبر على هاتا أحجى، فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجا» وقد فعلَ ذلك لكي يحفظ للمسلمين وحدتهم وانسجامهم.

فعلينا إذن، أن نستلهم الدروس من حياة علي، وعلينا أن نضيء حياتنا بأنوار منهجه النبوي المستبصر، كي نمضي على بصيرة، وإلاّ فلن يكون مصيرنا إلاّ الخسران في الدنيا والعذاب في الآخرة!

الفصل السابع عشر

شهادة الشهود وصبر الإنسان

يُصرّح القرآن الكريم والروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام) انّ في القيامة شهوداً تشهد للإنسان أو عليه. والذي يُستفاد من النصوص، انّ هؤلاء الشهود، هُم عشرة أصناف أو أكثر. ولكن الذي يعنينا التأكيد عليه في هذا الفصل، هو ثلاثة أصناف من الشهود، نتحدَّث عنهم كما يلي :

أوّلاً : أعضاء الإنسان وجوارحه

ثمّة آيات كثيرة في كتاب اللّه تؤكّد انّ أعضاء الإنسان وجوارحه تشهد له أو عليه. ومن ذلك انّ المجرمين عندما يُواجهون مصيرهم يوم القيامة، يحاولون ان ينكروا أعمالهم ويتبرّؤوا من الصور المتجسّمة لأعمالهم القبيحة، وفي هذه اللحظة يختم (سبحانه) على أفواههم فتنطق جوارحهم وتشهد عليهم.

وفي ذلك يقول (تعالى) : «اليوم نختمُ على أفواهِهِمْ وتُكلِّمُنا أيديهمْ وتَشهَدُ أرجُلُهم بما كانوا يكسبون»[1].

وفي آية أخرى نقرأ قوله (تعالى) : «حتى إذا ما جاؤُها شَهِدَ عليهم سَمعُهم وأبصارُهم وجلودُهُم بما كانُوا يعملونَ وقالُوا لِجُلودِهم لِمَ شهِدتُم علينا قالوا أنطقَنا اللّه الذي أنطق كلّ شيءٍ وهوَ خَلقكُم أوَّل مرَّةٍ وإليه تُرجعون»[2].

وفي آية ثالثة يقول (تعالى) : «ولا تقفُ ما ليسَ لكَ بهِ علمٌ انَّ السمعَ والبصرَ

---

(١) يس : ٦٥.

(٢) فصلت : ٢٠ - ٢١.

والفؤادَ كلّ أولئك كانَ عنهُ مسؤولاً »[١].

وتشير الآيتان الأوليان إلى شهادة أعضاء الإنسان وجوارحه عليه، مثل العين والاذن والجلد. امّا الآية الأخيرة فتشير إلى مسؤولية « الفؤاد » عمّا تقترفه جوارح الإنسان وأعضاؤه. والذي نستفيده من ذلك أنَّ هويّة الإنسان وشخصيّته تشهدان عليه؛ وانَّ قلبه يشهد على ما كان يحمل صاحبه من أفكار وعقائد منحرفة، وما كانت تطويه سريرته من نوايا سيّئة وخواطر شرّيرة.

ولاشك انَّ هذه الشهادة هي أصعب ما يواجهه الإنسان في ذلك الموقف؛ أي انَّ شهادة القلب أبلغ من شهادة الجوارح والأعضاء.

عِظة

لذلك كلّه علينا أن نكون على حذر ممّا نحمله من أفكار، ونتبناه من عقائد؛ وعلينا أن نمعن النظر بهذه الآيات الكريمة، لأنَّ أفكارنا وعقائدنا تشهد علينا، وتفضحنا في ذلك الموقف نوايانا وما تكنّه سرائرنا.

وعلينا أيضاً أن لا نطلق الكلام جزافاً، بل نفكّر ونتدبّر ثم نتكلّم.

ثانياً : الملائكة

الصنف الثاني من الشهود على الإنسان في يوم القيامة هم الملائكة. وفي ذلك يقول تعالى : « كتابٌ مرقومٌ يشهدُهُ المُقرَّبونَ »[٢].

وإذا كان المراد من الملائكة الشهود، هما « رقيب » و« عتيد » فإنَّ الأمر صعب شاق على الإنسان. إذ الذي نستفيده من الروايات والأحاديث الواردة، انَّ هناك ملكين يُراقبان الإنسان دوماً، ويحصيان عليه؛ ويمليان صحيفة أعماله[٣].

---

(١) الإسراء : ٣٦.

(٢) المطففين : ٢٠-٢١.

(٣) قال الإمام علي (عليه السلام) : « لا يزال الرجل المسلم يُكتب مُحسناً ما دام ساكتاً، فإذا تكلّم كُتِبَ إمّا مُحسناً أو مسيئاً. وموضع المَلَكَين من ابن آدم الشدقان؛ صاحب اليمين

ولكن بعض الروايات تفيد انَّ كلَّ مَلَكَين يُراقبان الإنسان لمرّةٍ واحدة، ثم لا يعودان إليه طوال حياته أبداً، بل يتركان الأمر لغيرهما وهكذا.

وبهذا الأسلوب يكون عدد الملائكة الشهود كبيراً جدّاً. وهنا تكمن الصعوبة التي أشرنا إليها قبل قليل.

ثالثاً : أئمّة الدين

الصنف الثالث من الشهود، وهم أهم من الصنفين اللّذين سبقاهم، هم أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، فهم يشهدون للإنسان أو عليه؛ وما أسوأ حظ من يشهد عليه أئمّة أهل البيت(عليهم السلام).

لذلك جاء في الأثر : «ويل لمن كان شفعاؤه خصماءه».

ويشير القرآن الكريم إلى هذا النوع من الشهادة بقوله تعالى : «وكذلك جعلناكم امّةً وسطاً لتكُونوا شُهداء على الناس ويكون الرسول عليكُم شهيداً»[1].

وقد ذكر المفسِّرون معنيين للآية الكريمة هما :

أوّلاً : انَّ الخطاب فيها مُوجّه للمسلمين الذين جعلهم اللّه الأمّة الوسط، التي لا تميل صوب الافراط أو التفريط، لتمارس من موقعها دور هداية العالم والبشرية وأمم الأرض أجمع، وكي تكون نموذجاً للجميع في سموّ خلقها وفضائلها، ثم يكون النبي (صلّى اللّه عليه وآله) شهيداً على أمّته.

ثانياً : ذهب بعض المفسِّرين إلى معنىً آخر، استقوه من الأحاديث الواردة عن أئمّة أهل البيت (عليه السلام) في تبيان معنى الآية. فهؤلاء المفسّرون ـ ومنهم

يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، ومَلَكا النهار يكتبان عمل العبد بالنهار، ومَلكا الليل يكتبان عمل العبد في الليل» البحار، ج٥، ص٣٢٧. [المترجم]

(١) البقرة : ١٤٣.

المفسّر المعاصر العلاّمة الكبير السيّد الطباطبائي[1] ـ يعتقدون انّ الشهادة التي تتحدَّث عنها الآية، تتمّ في الآخرة.

ومع هذا التفسير يكون المعني بخطاب الآية الكريمة، هم أئمّة أهل البيت، الذين جعلهم اللّه (سبحانه) شهوداً على أعمال الناس في الآخرة[2].

كيف يشهد أئمّة أهل البيت؟

ذكرنا قبل قليل، انّ الآية الكريمة من سورة البقرة تدلّ على شهادة أئمّة أهل البيت في الآخرة للإنسان أو عليه. والسؤال كيف يشهد الأئمّة (عليهم السلام) للإنسان أو عليه؟

يذكر العلاّمة الطباطبائي (رحمه اللّه) وغيره من العلماء القائلين بشهادة الأئمّة (عليهم السلام) ان لأئمّة أهل البيت شهوداً على العالم أجمع. بمعنى انّ العالم الآن، بما فيه نحن البشر، تحت نظر الإمام المهدي (عليه السلام) امام الزمن المعاصر. ومعنى حضور الإمام وشهوده للعالم، هو اطّلاعه على أقوالنا وأعمالنا؛ بل وعلى نيّاتنا وسرائرنا. وإذا أضفنا لهذا، ما سبق ان ذكرناه، من انّ شهادة أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) على الناس في يوم القيامة، لا تصحّ إلاّ إذا كانوا شهوداً على أعمال الناس وأقوالهم ومطّلعين على نيّاتهم في هذه الحياة، فعندها ستكون النتيجة

(١) صاحب التفسير الشهير المعروف بتفسير الميزان (عشرون مجلّداً) والذي ربّما لم يشهد العالم الإسلامي مثيلاً له في السعة والدقّة والعمق، خلال العقود الأخيرة. [المترجم]

(٢) وردت الكثير من الروايات عن أئمّة أهل البيت يؤكّد جميعها على القول : « نحن شهداء الناس ». من ذلك ما يرويه أبو بصير عن الإمام الصادق (عليه السلام) في قول اللّه تبارك وتعالى : « وكذلك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس » قال : « نحن الشهداء على الناس بما عندهم من الحلال والحرام؛ وبما ضيّعوا منه » تفسير نور الثقلين، ج١، ص١٣٤.

انّ للأئمّة سلطاناً على القلوب، وشهوداً في الحياة الدنيا، يُؤهلهم للشهادة للإنسان أو عليه في الآخرة[1].

شهود آخرون

انّ الأرض والزمان والمكان كلّها شهود على الإنسان في الآخرة[2]، بل نجد ما يؤكّد انّ الشيطان نفسه، كما يشير لذلك القرآن[3]، يشهد على الإنسان يوم القيامة، ويقول له؛ انّ الأولى به، أن يلوم نفسه ويقرعها، بدل أن يلوم الشيطان، ذلك انّ الشيطان لم يكن له دور في حياة الإنسان، سوى الوسوسة في الصدور، بينما وقف في مقابل الشيطان (١٢٤) ألف نبي ورسول، ثم كان دور الأوصياء والأئمّة في الهداية، فهل يعقل أن يترك الإنسان خط الهداية هذا بما يحفل به من رسل ورسالات وأئمّة وصالحين، وينقاد للشيطان وحده؟

مصير الإنسان بعد الحساب

بعد الحساب، وملاحظة صحائف الأعمال، وبعد الميزان وحضور الشهود، يتميّز أهل الجنّة من أهل النار، وكلّ طائفة منهم تُساق إلى مأواها ومستقرّها.

ويحدّثنا القرآن الكريم في سورتي الزمر والحديد عن كيفيّة ذهاب أهل الجنّة إلى

---

(١) البحث في هذه المسألة استوفته الكتب العقائدية، وفي هذا الشأن يمكن مُراجعة:
كتاب: علم الإمام، للشيخ محمد حسين المظفر.
بحث للعلاّمة المجلسي صاحب موسوعة البحار في أوائل شرحه للصحيفة السجادية. [المترجم]

(٢) ثمّة حديث لرسول الله (صلّى الله عليه وآله) يدل على شهادة الايام والبقاع، ممّا جاء فيه:« ويستشهد البقاع والشهور على أعمال العباد، فمن عَمِلَ صالحاً شَهِدَت له جوارحه وبقاعه وشهوره وأعوامه وساعاته وأيّامه وليالي الجُمع وساعاتها وأيّامها، فيسعد بذلك سعادة الابد » يلاحظ بطوله في : البحار، ج٧، ص : ٣١٥ - ٣١٧. [المترجم]

(٣) يشير المؤلّف إلى قوله تعالى : « كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كَفَرْ قالَ إنّي بريء منك اني أخاف الله ربَّ العالمين » الحشر : ١٦.[المترجم]

الجنّة، حيث تحيطهم الملائكة، ويسعى نورهم بين أيديهم، والنور المعني هنا، هو آثار أعمالهم الصالحة في الدنيا، ثم يذهبون إلى الجنة، وهم على هذه الحالة من الشرف والتكريم.

وتصوّر لنا الآية التالية بعض ملامح هذا المشهد : «يومَ تَرى المؤمنينَ والمؤمنات يَسعى نورهُم بينَ أيديهِم وبأيمانهم بُشراكُم اليوم جنّاتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدينَ فيها ذلك هو الفوز العظيم»[1].

امّا المنافقون والمنافقات، فلن تُحيط بهم سوى الظُلمة، حيث لم يكن لهم عمل صالح في الحياة الدنيا يُوفّر لهم النور اللاّزم لأهوال الآخرة، وهم على هذه الحالة المزرية مُبلسون في ظلماتهم، تسوقهم ملائكة العذاب إلى النار زمراً.

وفي هذه اللحظة المصيرية المؤلمة يبدأ هؤلاء بالتماس أهل الجنّة طمعاً في اقتباس بعض نورهم، ولكن يُحاط بينهم وبين أهل الجنة بسور له باب تكون الرحمة (الجنّة) من باطنه، والعذاب (النار) من ظاهره.

يقول تعالى في ذلك : «يومَ يقولُ المنافقونَ والمنافقاتُ للّذينَ آمنوا انظُرونا نقتبس من نوركُم قيلَ ارجعُوا وراءَكُم فالتمسوا نوراً فَضُرِبَ بينهُم بسورٍ له بابٌ باطِنُه فيه الرحمةُ وظاهِرهُ من قبلهِ العذابُ»[2].

الصراط

يقول الشيخ الصدوق (رحمه اللّه) في كتابه المشهور «الاعتقادات» : «اعتقادنا في الصراط انّه حق، وانّهُ جسر على جهنّم، وانَّ عليه ممر جميع الخلق. قال اللّه عزّوجلّ «وإنْ منكُمْ إلاّ واردُها على ربّك حتماً مقضيّاً»[3].

ولكن ما هو المراد من الصراط؟

---

(١) الحديد : ١٢.

(٢) الحديد : ١٣.

(٣) مريم : ٧٠.

ربّما يكون المقصود من الصراط، ما يقوم به الإنسان في هذه الحياة الدنيا، من مجاهدة لنفسه، فإذا خرج ناجحاً في مجاهدة نفسه الأمّارة ، وتجاوز الأهواء والنوازع، فسيكون نجاحه هذا ضمانةً له للجواز على الصراط في الآخرة، ليصل إلى أعلى علّيين. امّا من ينهزم في الحياة الدنيا أمام نفسه الامّارة وضغوطاتها، ويرتكس في ظُلمات الأهواء والمعاصي، فلن يكون في الآخرة قادراً على جواز الصراط، فتزلّ به قدمه إلى النار.

ووفق هذا المعنى، تكون الآخرة هي باطن هذه الدنيا. بمعنى انَّ المصير يستبين في هذه الدنيا، وتُكشف فيها الحقائق، حيث يكون واقع النفس الامّارة وحقيقتها، جسر الصراط في الآخرة.

أخيراً ؛ نشير إلى انَّ الصراط في اللغة هو «الطريق»، وفي الاصطلاح الجسر أو الطريق المنتهي إلى الجنّة[1].

كيفية المرور على الصراط

جاء في الأخبار والأحاديث الشريفة؛ انَّ الناس يختلفون في كيفية مرورهم على الصراط إلى الجنّة، فمنهم الذي يمرّ مثل البرق، وبعضهم يمرّ كمن يعدو على الفرس، ومنهم الذي يمرّ حبواً، والذي يمرّ مشياً، ومنهم الذي يمرّ متعلّقاً لن يصل إلى الجنّة إلاّ بعد صعوباتٍ ومشاقٍ[2].

---

(١) ورد في الأثر في المعنى الاصطلاحي للصراط : « انَّ الصراط جسرٌ على متن جهنّم يمر عليه الخلائق ». علم اليقين، ج٢، ص٩٦٧.[للمترجم]

(٢) يشير المؤلّف إلى الحديث الشريف : «الناس يمرّون على الصراط طبقات، والصراط أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف؛ فمنهم من يمرّ مثل البرق؛ ومنهم من يمرّ مثل عدو الفرس؛ ومنهم من يمرّ حبواً، ومنهم مَن يمرّ مشياً، ومنهم من يمرّ متعلّقاً قد تأخذ النار منه شيئاً وتترك شيئاً». علم اليقين، ج٢، ص٩٧٣، الأمالي، ص١٧٧، البحار، ج٨ ، ص٦٤. [المترجم]

ولكن الأصل في هؤلاء، رغم تفاوت سرعة مرورهم، انّهم جميعاً من أهل الجنّة. انّ الذي يجوز الصراط كالبرق، كان في الدنيا مُتمسّكاً بنهج النبي الأطهر (صلّى الله عليه وآله) وبولاية الوصيّ علي (عليه السلام) والأئمّة الهُداة (عليهم السلام)، وكان مُنتهجاً في جميع فصول حياته نهج العبودية والطاعة. وأمثال هؤلاء كانوا يعيشون حياتهم وهم في شوقٍ دائم للّه، لذلك سارعوا إلى لقائه.

امّا الآخرون، فيتفاوت حال جوازهم على الصراط ومدّته، بما يُناسب أعمالهم الصالحة في الحياة الدنيا، فكُلّما كانوا ألزم في العبودية وأسرع في الطاعة وأثبت في الولاء، جازوا الصراط أسرع وثبتت أقدامهم عليه[1].

عدم دخول الكفّار الجنّة

يكون الصراط بالنسبة لأهل النار أدقّ من الشعر وأحدّ من السيف وأظلم من الليل[2]. وربّما يكون المراد من وصف الصراط بهذا الشكل ـ كما عليه الأحاديث الشريفة[3] ـ انّ الكفّار والفجّار لن يستطيعوا المرور عليه، وبالتالي لن يكون لهم جواز إلى الجنّة. وفي ذلك يقول (تعالى) : «ولايَدخلُونَ الجنّةَ حتّى يَلجَ الجَمَلُ في سَمِّ الخياط».

إذن؛ نستطيع أن نقول، انّ الكفّار وأهل المعاصي والذنوب والظالمين ومن يتّهم الناس في أعراضهم ويبثّ الشائعات ويصطنعها، لن يكون بمقدورهم أن يجوزوا على الصراط، بل تزلّ بهم قدمهم، فيقعون في أعماق جهنّم.

---

(١) قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) : «أثبتكم قدماً على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي». البحار، ج٨ ، ص٦٩. [المترجم]

(٢) يشير المؤلّف إلى حديث النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله) : «الصراط أدقّ من الشعر، وأحدّ من السيف، وأظلم من الليل». علم اليقين، ج٢، ص٩٦٩. [المترجم]

(٣) انّ صفة الصراط تلك تكون بالنسبة للكفّار، أما بالنسبة للمؤمنين، فهو كما جاء في الأخبار «يجعله اللّه للمؤمنين عريضاً وللمذنبين دقيقاً».

معنىً آخر للصراط

نستفيد من مجموعة أخرى من الروايات والأحاديث، انَّ للصراط معنىً آخر يتمثّل في متابعة نهج أهل البيت (عليهم السلام) في الحياة الدنيا والتمسّك بولايتهم. فمن يفعل ذلك يهتدي إلى طريق معرفة اللّه (سبحانه) ومَن اهتدى إلى طريق معرفة اللّه في الدنيا، يكون بمقدوره أن يجوز على الصراط في الآخرة.

وهذا المعنى نجده واضحاً في كلامٍ لأمير المؤمنين (عليه السلام) يقول فيه : «أنا صراط اللّه المستقيم وعروته الوثقى التي لا انفصام لها»[1].

لذلك، تعدّ معرفة أئمّة أهل البيت (عليه السلام) والتمسّك بنهجهم وولايتهم، الطريق المهيع إلى اللّه (سبحانه). فمن يسلك الطريق إلى معرفة اللّه من خلال الأئمّة الهداة، يمرّ في الآخرة على الصراط سريعاً ودون صعوبة أو مشاق[2].

(١) سُئلَ الإمام الصادق (عليه السلام) عن الصراط فقال : «هو الطريق إلى معرفة اللّه عزوجل وهما صراطان؛ صراط في الدنيا وصراط في الآخرة، فامّا الصراط الذي في الدنيا، فهو الإمام المفترض الطاعة، مَن عَرَفَهُ في الدنيا واقتدى بهُداه مرَّ على الصراط الذي هو جسر جهنّم في الآخرة، ومَن لم يعرفه في الدنيا زلّت قدَمُهُ عن الصراط في الآخرة فتردّى في نار جهنّم». اعتقادات الشيخ الصدوق، ص١٥٣.

(٢) مرَّ بنا حديث رسول اللّه في ذلك، حيث يقول (صلّى اللّه عليه وآله) : «أثبتكم قدماً على الصراط أشدّكم حبّاً لأهل بيتي».

الفصل الثامن عشر

الشفاعة

تعتبر الشفاعة من الأمور الثابتة من زاوية الرؤية القرآنية والأحاديث والروايات الشريفة[1]، وقد خصّص العلاّمة المجلسي في موسوعته الحديثية الكبيرة «بحار الأنوار» باباً كاملاً للشفاعة، أورد فيه ما يناهز مائة حديث[2]. إلاّ انَّ الأحاديث المبثوثة في الكتاب حول الشفاعة تصل إلى ألف حديث ورواية.

نماذج من آيات الشفاعة

ثمّة آيات كثيرة حول الشفاعة، نختار منها النماذج الخمسة التالية :

١ -يقول تعالى : «من ذا الذي يشفَعُ عندهُ إلاّ بإذنه» [3].

٢ - ويقول تعالى : «لا يملكون الشفاعةَ إلاّ مَن اتخذَ عِندَ الرحمن عهداً» [4].

---

(١) جاء في الحديث النبوي الشريف عن رسول الله (صلّى الله عليه وآله) : «ومَن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي». وعن الصادق قوله (عليه السلام) : «مَن أنكر ثلاثة أشياء فليسَ من شيعتنا : المعراج، والمساءلة في القبر والشفاعة» البحار، ج٨ ، ص٣٤، ٣٨. [المترجم]

(٢) يشير المؤلّف إلى : البحار، ج٨ ، ص٢٩ ــ ٦٣، باب الشفاعة، وفي الباب ٨٦ حديثاً. [المترجم]

(٣) البقرة : ٢٥٥.

(٤) مريم : ٨٧ .

٣ - وفي صفة الشافعين يقول تعالى: «عبادٌ مكرمون... ولا يشفعون إلاّ لِمَن ارتضى»[١].

٤ - ومن صور الحوار بين أهل الجنّة وأهل النار، ما يشير إلى الشفاعة؛ يقول تعالى: «وَكُنّا نكذِّبُ بيومِ الدين حتّى أتانا اليقين فما تَنْفَعُهُم شفاعةُ الشافعين»[٢].

٥ - ولكن ينبغي أن يكون واضحاً، انَّ الشفاعة في الآخرة، ليست على منوال ما يجري في الدنيا من «محسوبية ومنسوبية»، لذلك ينفي القرآن الكريم هذا الظنّ الخاطئ في قوله (تعالى): «واتّقوا يوماً لا تجزي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولايُقبل مِنها شفاعةٌ ولا يؤخذُ منها عدلٌ ولا هُم ينصرون»[٣].

ومعنى الآية، انَّ إنساناً لايُؤخذ بدل آخر في القيامة، ولايُبدَّل الحق بغيره، ولا تقبل منهم الفدية والرشاوى.

معنى الشفاعة

نستطيع أن نذكر للشفاعة أربعة معانٍ هي:

أوّلاً: الإمامة والقيادة

انَّ الذي يتولّى عليّاً (عليه السلام) في الحياة الدنيا وينقاد لإمامته وقيادته، فسيكون علي إمامَهُ وشفيعه في الآخرة أيضاً.

انّ الإمام (عليه السلام) يمثّل في هذه الدنيا موقع القيادة التشريعية. امّا في الآخرة فيمثّل موقع القيادة التكوينيّة. ومعنى ذلك، ان الذي يتّبع ولاية الإمام علي

---

(١) الأنبياء: ٢٨.

(٢) المدثر: ٤٦ - ٤٨.

(٣) البقرة: ٤٨.

في الدنيا وينقاد إلى نهجه، فسترسّخ فيه هويّة تقوده في الآخرة للانقيـاد وراء لـواء علي (عليه السلام) والدخول معه إلى الجنّة.

وكذا الحال بالنسبة لمن يسير في حياته الدنيا تحت رايـة الحسـين السبط (عليـه السلام) ويتحرّك في إطار إمامته وولايته، فإنّه يُحشر يوم القيامـة مـع إمامـه الـذي تولاّه، أي مع سيِّد الشهداء وتحت لوائه.

وهذا هو الذي نقصده من انَّ القيادة هنـا تشـريعية، ولكنّهـا في الآخـرة تـأخذ شكلاً تكوينياً، يتبع فيه الإنسان من تولاّه في الدنيا، ويكون تحت لواء من انقاد إلى امامته.

وهذا المعنى للشفاعة رجّحـه العلاّمـة الطباطبـائي في تفسيره المشـهور الميزان. والملاحظ أيضاً انَّ أهل الفلسفة والعرفان يقبلون بهذا المعنى أيضاً.

ثانياً : الواسطة في الفيض

المعنى الثاني للشفاعة، هو أن يكون الشفعاء الواسطة في الفيـض. وهـذا المعنـى يؤكّده القرآن الكريم والأحاديث النبوية، وقد أقام الأدلّة البرهانية عليه الفيلسـوف الكبير صدر المتألهين الشيرازي، حيث أثبت انَّ الحقيقة المحمّدية وآل محمّد (صلوات اللّه عليهم أجمعين) هم واسطة هذا العالم.

والمقصود من ذلك انَّ كل أعمالنا مرهونـة بمـا يفيضـه علينـا الحـقّ تعـالى. وانَّ واسطة الفيض هم بعد رسول اللّه (صلّى اللّه عليـه وآلـه) الأئمّـة الهُـداة مـن أهـل بيته(عليهم السلام).

وبذلك تكون نعمة الوجود والعقل والعلم والسلامة والمال وغير ذلك، هي ممّـا أفاضه اللّه (سبحانه) علينا بواسطة النبي وأهل بيته. وهـذا المعنـى الثـاني للشـفاعة، نجـده واضحـاً في النصـوص المـأثورة؛ حيـث نقـرأ في زيـارة الإمـام المهـدي (عليـه السلام) مثلاً : «بيُمنه رُزِقَ الورى، وبوجوده ثبتت الأرض والسماء».

ويشير النصّ إلى ان الإمام (عليه السلام) هو الواسطة فيما يفيضه اللّه (سبحانه) على عباده من رزق، وهو الواسطة في ثبات عالم الوجود وديمومته.

وفي نص زيارة الجامعة الكبيرة (المرويّة عن الإمام علي الهادي عليه السلام) نقرأ : «بكم فتح اللّه وبكم يختم وبكم يُنزّل الغيث وبكم يُمسك السماء أن تقع عى الأرض، وبكم يُنفّس الهم ويكشف الضرّ»[1].

انّ أهل المعرفة هم أهل البيت (عليهم السلام) وهم واسطة الفيض، وانّ العالم جسد وهم بمثابة الروح لهذا الجسد، والروح هي التي تدبّر شؤون الجسد. فمع وجود الإمام (عليه السلام) يستمد العالم وجوده من اللّه (سبحانه)، وهذا الاستمداد هو الذي يُبقي العالم ويحفظ له ديمومته.

قيام الوجود على الحجّة

اتضح من البحوث السابقة انّ مصير الإنسان وكونه من أهل الجنّة أو أهل النار يتحدّد بواسطة شهادة الأئمّة (عليهم السلام). وقد ذكرنا أيضاً انّ لأهل البيت (عليهم السلام) حضوراً وشهوداً كاملاً وتسلّطاً مطلقاً على عالم الوجود، أي انّ لهم مقام الولاية الكلية المطلقة[2].

وهذا المعنى تؤكّده وتوضّحه أحاديث كثيرة جمعها ثقة الإسلام الكليني في كتابه الحديثي المشهور «الكافي»[3].

ومن تلك الأحاديث ما جاء عن الإمام أبي الحسن علي بن موسى الرضا، عندما سُئلَ: تخلو الأرض من حجّة؟ فقال (عليه السلام) : «لو خلت الأرض

---

(١) زيارة الجامعة، مفاتيح الجنان، ص٥٤٤. [المترجم]

(٢) يبحث الإمام الخميني في كتاب «مصباح الهداية» مسألة الولاية الكليّة المطلقة التي يتحلّى بها الإمام علي (عليه السلام)، حيث يقول : «فهو عليه السلام بمقام ولايته الكليّة قائم على كلّ نفسٍ بما كسبت، ومع كلّ الأشياء».

(٣) يشير المؤلّف إلى : أصول الكافي، ج١، كتاب الحجّة، ص١٦٨ ـ ٥٥٤. [المترجم]

طرفة عين من حجّة لساخت بأهلها»[1].

والحديث الشريف واضح الدلالة على انّ خلوّ الأرض من الإمام الذي يمثّل مقام الولاية الكلية المطلقة، يؤدي إلى أن تسيخ الأرض بأهلها.

وما ينصّ عليه الحديث من ان الأرض تسيخ بأهلها لو خلت من الحجّة لحظة واحدة، هو من باب المثال، وإلاّ فالمسألة أدقّ من ذلك. ولكن يكفينا أن نشير بشكلٍ كُلّي إلى انّ الأرض لو خلت من حجّة، لما أمكن بقاء عالم الوجود ولفقد ديمومة استمراره.

وبناءً على هذا الأصل يكون أئمّة أهل البيت (عليهم السلام) هم محور الوجود. لذلك لا يرد الجنة في الآخرة إلاّ من كانوا هم واسطته. وهم أيضاً الواسطة في دخول الأنبياء والأوصياء والصالحين، لأنَّ الجنّة هي إفاضة من إفاضات الرحمة الإلهية، وهم (عليهم السلام) واسطة الفيض.

ثالثاً : الدعاء

المعنى الثالث للشفاعة هو الدعاء، أي طلب المسألة وقضاء الحاجة من النبي الأطهر (صلّى اللّه عليه وآله) وأئمّة أهل البيت (عليهم السلام) وجعلهم الوسطاء والشفعاء في قضاء الحوائج.

ولقد ثارت موجة من التشكيكات لمواجهة هذا المعنى للشفاعة، استندت جميعها على انّ الاستشفاع بالميت شرك! فكان ان تصدَّت لهذه الموجة سلسلة من البحوث العقائدية العميقة التي أثبتت انَّ من نطلب شفاعتهم، وهم رسول اللّه وأهل بيته (صلوات اللّه عليهم أجمعين) أحياء، ولا يعدون في الأموات، وانَّ أرواحهم خالدة وهي تحيط بهذا العالم وتشرف عليه بشكل كامل.

لذلك لا يقال لمثل رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) والأئمّة من أهل بيته (عليهم السلام) انّهم مثل الحجارة والخشب والعصا، وان حكمهم حكم

---

(١) البحار، ج٢٣، ص٢٩.

الجمادات الأخرى بعد موتهم ومفارقتهم للحياة الدنيا، وبالتالي يعدّ طلب شفاعتهم ضرباً من الشرك، أو اللغو والعبث، كما يحلو لمنطق المشككين!

اذن معنى الشفاعة هنا، هو دعاء الرسول والأئمّة والاستشفاع بهم، لكي يغفر اللّه (سبحانه) ذنوب المذنبين بواسطتهم.

والشفاعة بهذا المعنى ليست تدخّلاً من الرسول وأهل بيته في الشؤون الإلهية، وانّما هي عمل يتمّ باذن اللّه، أي انَّ اللّه (سبحانه) هو الذي أذِنَ لهم بالشفاعة.

إذن، فكما ندعو نحن لأنفسنا وللآخرين ونطلب لهم المغفرة والرحمة، فإنَّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) والأئمّة من أهل بيته (عليهم السلام) يقفون في القيامة ويتشفعون ويدعون لأمّتهم ويطلبون لها العفو والصفح من ربِّ العالمين. ومن الواضح انَّ دعاء رسول اللّه وأهل بيته مقبول عند اللّه سبحانه، وهو مستجاب حتماً[1].

رابعاً : شفاعة النبي وأهل بيته

المعنى الرابع للشفاعة، ان يأذن اللّه سبحانه لرسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) ولأهل البيت (عليهم السلام) بالشفاعة يوم القيامة، ويمنحهم حقّ استنقاذ العباد، وادخال من رضوا إلى الجنّة بحيث يكون لهم الاختيار التام في ذلك.

ومع هذا المعنى للشفاعة لا يبقى مجال للسؤال عمّا ذكرناه آنفاً من انَّ مفتاح

(١) انَّ الوهابية هي الاتجاه الوحيد الذي يثير الشبهات حول مسألة شفاعة رسول اللّه وأهل بيته (صلوات اللّه عليهم أجمعين)، فيما اجتمعت كلمة أهل الإسلام على مواجهة هذا الاتجاه التشكيكي وردّ شبهاته، ويمكن للقارئ مراجعة ما يلي:

كشف الارتياب للسيّد محسن الأمين العاملي.

كتاب الشرك أو الوهابية في الميزان للشيخ جعفر سبحاني.

كتاب التوسّل في ضوء العقل والقرآن والحديث للسيّد محمد ضياء آبادي، والذي ستصدر ترجمته عن مؤسسة البعثة. [المترجم]

الجنّة ومفتاح النار، يُسلّمان يوم القيامة بأمر اللّه بيد رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وأهل بيته، وانّ هؤلاء (صلوات اللّه عليهم أجمعين) هم قُسماء الجنّة والنار(١).

انّ ظاهر آيات القرآن يدل على هذا المعنى للشفاعة، ولكن ينبغي أن ندرك جيّداً انّ إرادة النبي وأهل بيته فانية في إرادة اللّه، أي انّهم لا يريدون غير ما يريده اللّه (سبحانه)، وانّ ما يريدونه (صلوات اللّه عليهم أجمعين) هو تحقيق لإرادة اللّه وتمثّلٌ لها.

فعن شفاعة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وردَ في الخبر، انّه يسجد في القيامة، فيأتيه النداء أن ارفع رأسك وَسَلْ تُعطَ، فيتشفّع لأمّته، فتقبل شفاعته(٢).

وقد ورد في الأخبار، انّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) لا يرضى أن يدخل الجنّة وحده ويترك مذنبي أمّته إلى النار، وانّما يظلّ ينادي : أمّتي، أمّتي(٣).

---

(١) عن عُبابة قال : سمعت عليّاً عليه السلام، وهو يقول : « أنا قسيم الجنّة والنار، فَمَن تبعني فهو منّي، ومَن لم يتبعني فهو لأهلُ النار ». علم اليقين، ج١، ص٥٣٦.

(٢) وتمام الخبر؛ روى علي بن إبراهيم بسندٍ موثّق عن الإمام الصادق انّهُ (عليه السلام) سُئِلَ عن شفاعة النبيّ (صلّى اللّه عليه وآله) يوم القيامة، فقال : « يلجم الناس يوم القيامة العرق، فيقولون : انطلقوا بنا إلى آدم يشفع لنا، فيأتون آدم، فيقولون : اشفع لنا عند ربّك؟ فيقول: إنّ لي ذنباً وخطيئة، فعليكم بنوح. فيأتون نوحاً فيردّهم إلى مَن يليه، ويردّهم كلّ نبي إلى مَن يليه حتى ينتهون إلى عيسى، فيقول : عليكم بمحمّد رسول اللّه صلّى اللّه عليه وآله، فيعرضون أنفسهم عليه ويسألونه، فيقول : انطلقوا، فينطلق بهم إلى باب الجنّة، ويستقبل باب الرحمن ويخرّ ساجداً، فيمكث ما شاء اللّه، فيقول : ارفع رأسك، واشفع تشفع، وَسَلْ تُعطَ. ذلك قوله عزّوجلّ : « عسى أن يَبْعَثَك ربّك مقاماً محموداً ». علم اليقين، ج٢، ص٩٧٦. [المترجم]

(٣) يذكر رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) انّ عنقاً من النار يُحيط الخلائق يوم القيامة « البرّ منهم والفاجر، فما خلق اللّه عزّوجلّ عبداً من عباده مَلَكاً ولا نبيّاً إلاّ نادى : ربِّ! نفسي

ومن الآيات الدالّة على عظيم شفاعة رسول اللّه في يوم القيامة، قوله تعالى : «ولسوفَ يُعطيك ربّك فترضى »[1]. فقد ذكر الإمام الصادق (عليه السلام) ان هذه الآية هي أرجى آية في كتاب اللّه[2]، لأنّها أعطت رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) الفتح والنصر في الدنيا، والشفاعة في الآخرة[3].

المستثنون من الشفاعة

لا يملك بعض الناس أهلية الشفاعة، وبالتالي لا ينالونها، ولا يذهبون ببركتها إلى الجنّة. ومن أولئك «تارك الصلاة» والمستخف بصلاته، حيث مرَّ معنا في

نفسي، وأنت]والكلام لجبرائيل يرويه النبي [يانبي اللّه تنادي : أمّتي أمّتي ». يلاحظ الخبر بطوله في : بحار الأنوار، ج٧، ص١٢٥ - ١٢٦. [المترجم]

(١) الضحى : ٥.

(٢) وتمام الخبر؛ انَّ بشر بن شريح البصري، قال : قلت لمحمّد بن علي (عليهما السلام) : أية آيةٍ في كتاب اللّه أرجى؟ قال : ما يقول فيها قومك؟ قال : قلت : يقولون : « ياعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه » قال (عليه السلام) : لكنّا أهل البيت لا نقول ذلك، قال : قُلتُ : فأي شيء تقولون فيها؟ قال (عليه السلام) : نقول : « ولسوف يعطيك ربّك فترضى » الشفاعة، واللّه الشفاعة، واللّه الشفاعة ». البحار، ج٨ ، ص٥٧. [المترجم]

(٣) اتفق أهل الإسلام جميعاً على شفاعة النبي (صلّى اللّه عليه وآله) في القيامة، وفي ذلك يقول الشيخ المفيد : « واتفقت الامامية على انَّ رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) يشفع يوم القيامة لجماعة من مرتكبي الكبائر من أمّته، وانَّ أمير المؤمنين (عليه السلام) يشفع في أصحاب الذنوب من شيعته، وانَّ أئمّة آل محمّد يشفعون كذلك، وينجي اللّه بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين ». أوائل المقالات، ص٥٤.

اما النووي فقد ذكر في شرح صحيح مسلم، انَّ القاضي عياض، قال : « مذهب أهل السنّة جواز الشفاعة عقلاً ووجوبها سمعاً بصريح الآيات، وبخبر الصادق. وقد جاءت الآثار التي بلغت بمجموعها التواتر بصحّة الشفاعة في الآخرة لمذنبي المؤمنين، وأجمع السلف الصالح ومن بعدهم من أهل السنّة عليها ». عن البحار، ج٨ ، ص٦٢ - ٦٣. [المترجم]

الفصول السابقة قول الإمام الصادق (عليه السلام) : «لا تنال شفاعتنا من استخف بالصلاة».

والذي يُستفاد من آيات الكتاب الكريم والأحاديث الشريفة، انّ «الظالم» لا تناله الشفاعة[1]. غير انّ أحاديث أهل البيت تؤكّد انّ المسلم الموالي لأهل البيت لا يخلد في النار بذنوبه ، وانّما يمكث فيها إلى أن يطهر، وبعد ذلك ينال شفاعة أهل البيت (عليهم السلام) وينجو من جهنّم[2].

وثمّة أصناف أخرى لا تنالها الشفاعة، تعرّض لذكرها القرآن الكريم في قوله تعالى : «كلّ نفس بما كسبت رهينةٌ . إلاّ أصحاب اليمين . في جنّات يتساءلون . عن المجرمين . ما سلككُمْ في سقر . قالوا لم نكُ من المصلّين . ولم نكُ نُطعمُ المسكين. وكنّا نخوضُ مع الخائضين . وكنّا نكذّبُ بيوم الدين . حتى أتانا اليقين . فما تَنْفَعُهُم شفاعة الشافعين . فما لهم عن التذكرة معرضين»[3].

---

(١) عن النبي (صلّى الله عليه وآله) قال : «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي ما خلا الشرك والظلم». علم اليقين، ج٢، ص٩٧٧. [للمترجم]

(٢) والظاهر انّ هذا حكم مذنبي أهل التوحيد أيضاً كما يذهب لذلك علماء الفريقين.

(٣) المدّثر : ٣٨ - ٤٩.

الفصل التاسع عشر

نهاية الشوط في مسير الإنسان

تؤول نهاية شوط أهل الفلاح إلى الجنّة، وأهل الخسران إلى النار. وقد جاء في القرآن انّ الجنّة والنار هما مآلُ مسير الإنسان ومنتهى كدحه.

يقول تعالى: «يا أيها الإنسان إنّك كادحٌ إلى ربّك كدحاً فمُلاقيه»[1]. أي انّ لقاء اللّه هو منتهى الشوط فيما يتحمّله الإنسان من مشاق وأذى، وما يُواجهه في سبيل اللّه من آلام.

وإلى هذا المعنى تُشير آيات أخرى، كقوله تعالى: «انّ إلى ربّكَ الرجعى»[2].

وقوله تعالى: «وانّ إلى ربّك المُنتهى»[3].

وكذا قوله تعالى: «إنّا للّه وإنّا إليه راجعون»[4].

انّ منتهى سير الإنسان يكون إلى رحمة اللّه حيناً، والتي تكون «الجنّة» مظهراً لها، وتارة يكون مُنقلبه إلى غضب اللّه وقهره، الذي تكون «جهنّم» مظهراً له.

طبقات النار وأبوابها

انّ للنار طبقات وأبواباً. وقد أشار القرآن الكريم إلى أبواب جهنّم بقوله تعالى:

---

(١) الانشقاق: ٤.

(٢) العلق: ٨.

(٣) النجم: ٤٢.

(٤) البقرة: ١٥٦.

«لها سبعةُ أبوابٍ لكلّ بابٍ منهُم جزءٌ مقسوم»[1].

وكذلك قوله تعالى: «وسيقَ الذينَ كفروا إلى جهنّم زمراً حتى إذا جاءُوها فُتِحَت أبوابُها»[2].

لذلك فإنَّ من يأكل حقّ الناس يرد جهنّم من بابٍ خاصّة يدخل منها أهل هذا الصنف. ويبدو انَّ هذه الباب أكثر أبواب جهنّم ازدحاماً، لأنَّ أصحابها أضرّوا بكرامات الناس وغصبوا أموالهم.

وعن طبقات جهنّم يُنقل في الخبر انّ الإمام عليّاً (عليه السلام) وضعَ يديه الوحدة فوق الأخرى، وذكر انَّ جهنّم طبقات.

وفي دعاء كميل إشارة إلى انَّ للنار طبقات: «أم كيف يتقلقلُ بينَ أطباقها»[3].

سقر

الذي يُفهم من الروايات انَّ جهنّم عميقة جدّاً ولها سبع طبقات (دركات)[4]. الطبقة الأولى معدّة للناس العاديين. بينما تكون الطبقة الأخيرة - وتسمّى «سقر»[5]- مأوىً للمنافقين والمتكبّرين، وهي أكثر الطبقات عمقاً، وللتدليل على

(١) الحجر: ٤٤.

(٢) الزمر: ٧١.

(٣) مفاتيح الجنان، ص٦٠. [المترجم]

(٤) انَّ اللّه جعلها (النار) سبع دركات: أعلاها الجحيم والثانية لظى والثالثة سقر والرابعة الحطمة والخامسة الهاوية والسادسة السعير والسابعة جهنّم. البحار، ج٨، ص٢٨٩. [المترجم]

(٥) جاء في الحديث الشريف: «انَّ في جهنّم لوادياً للمتكبّرين يُقال له سقر، شكا إلى اللّه شدّة حرّه وسأله أن يتنفس، فاذن له، فتنفّس فأحرق جهنّم». البحار، ج٨، ص٢٩٤. [المترجم]

عمق جهنّم، جاء في الخبر المشهور عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) قال: «سمعت صوتاً أفزعني، فقال لي جبرئيل: أتسمع يا محمّد؟ قلت: نعم، قال: هذه صخرة قذفتها عن شفير جهنّم منذ سبعين عاماً، فهذا حين استقرت»(١).

بيدَ ان ما يذهب إليه استاذنا الكبير الإمام الخميني في معنى الحديث: انَّ السبعين عاماً التي مرّت في حديث رسول اللّه قبل قليل، هي نهاية عمر الإنسان. والمعنى انَّ بعض الناس يقطع رحلته إلى جهنّم، على قدر عمره في الحياة الدنيا، ويتحدّد موقعه في النار، على ضوء ما يفعله في الدنيا. وبهذا الشكل فإنَّ الحجر الذي رُمي في جهنّم هو كناية عن القلوب المتحجّرة من قسوتها لأمثال هؤلاء، فمعَ تراكم المعاصي والذنوب، وحُجب الغفلة عن اللّه، يقسو القلب ويظلمّ، فيرمي بصاحبه إلى قعر جهنّم(٢).

مراتب جهنّم

الذي يبدو انَّ لجهنّم مراتب مثل مراتب الجنّة ودرجاتها. بمعنى انَّ العذاب يتناسب مع ذنب الإنسان ودرجة غفلته عن اللّه سبحانه. وبهذا الشكل تكون

---

(١) البحار، ج٨، ص٢٩١. [المترجم]

(٢) ثمّة حديث نبوي شديد الدلالة على هذا المعنى، فقد روي عن النبي (صلى اللّه عليه وآله) انّه كان قاعداً مع أصحابه في المسجد، فسمعوا هدّة عظيمة فارتاعوا، فقال (صلّى اللّه عليه وآله): أتعرفون ما هذه الهدّة؟ قالوا: اللّه ورسوله أعلم. قال: حجر ألقي من أعلى جهنّم منذ سبعين سنة، الآن وصل إلى قعرها، فكان وصوله إلى قعرها وسقوطه فيها هذه الهدّة. فما فرغ من كلامه إلاّ والصراخ في دار منافق من المنافقين قد مات وعمره سبعون سنة. فقال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): اللّه أكبر، فعلمت علماء الصحابة أنَّ هذا الحجر هو ذاك، وانّه منذ خلقه اللّه يهوي في جهنّم [بأعماله السيّئة في الدنيا] وبلغ عمره سبعين سنة، فلما مات حصل في قعرها». المسند، ج٢، ص٣٧١. وكذا: مسلم، ج١٧، ص١٧٨. وثمّة تعليق دال لصاحب علم اليقين، يُراجع في: ج٢، ص١٠٠٢. [المترجم]

جهنّم واحدة، ولكنّها ذات درجات ومراتب مُتعدّدة[1].

امّا أبواب جهنّم، فهي نفسها مداخل الإنسان إلى المعصية في الدنيا، أي انَّ ما تقترفه يداه في هذه الدنيا يعود عليه في الآخرة.

ويل

تتحدّث الروايات عن وجود توابيت وبيوت من نار، هي أقرب ما تكون إلى الزنزانات في الغُرف المعاصر. وفي جهنّم وادٍ عميق باسم «ويل»[2].

يقول تعالى: «ويلٌ لكلِّ هُمَزةٍ لُمَزة الذي جَمَعَ مالاً وَعدَّده»[3].

وقد روى الإمام الصادق عن آبائه (عليهم السلام) عن جدّه رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) في صفة أهل «ويل» ومن يُنادون في القيامة بالويل والثبور، فقال: قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): أربعة يؤذون أهل النار على ما بهم من الأذى، فيقول أهل النار بعضهم لبعض: ما بال هؤلاء الأربعة قد آذونا على ما بنا من الأذى؟ فرجلٌ معلّق في تابوت من جمر، ورجل يجرّ أمعاؤه، ورجل يسيل فوه قيحاً ودماً، ورجل يأكل لحمه. والذي يهمّنا من هؤلاء الذي يأكل أموال الناس ولا يؤدّي لهم حقّهم، والذي يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بين المسلمين بالنميمة، حيث يقول الحديث النبوي الشريف في صفة الأوّل: «ما بال الابعد قد آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول: انَّ الابعد قد مات وفي عُنقه أموال الناس لم يجد لها في نفسه اداءً ووفاءً» ثم «يقال للذي كان يأكل لحمه: ما بال الابعد قد

---

(١) جاء في الحديث الشريف: «النيرّان بعضها دون بعض» وفي ذلك إشارة إلى درجاتها. البحار، ج٨، ص٣١٤. [المترجم]

(٢) قال رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): «فويل ثم ويل ثم ويل، فسأله علي (عليه السلام): يارسول اللّه وما وَيل؟ قال: وادٍ في جهنّم أكثر أهله معادوك، والقاتلون لذريّتك، والناكثون لبيعتك». البحار، ج٨، ص٣١٢. [المترجم]

(٣) الهمزة: ١ ـ ٢.

آذانا على ما بنا من الأذى؟ فيقول : إنّ الابعد كان يأكل لحوم الناس بالغيبة ويمشي بالنميمة »[1].

شدّة عذاب النار

الخلاصة التي ننتهي إليها؛ انّ النار مكان مهول وخطير. وكما انّ مظاهر نقمة اللّه وغضبه مهولة وعظيمة، فإنّ النار كذلك، لأنّها في واحدة من معانيها مظهر لغضب اللّه وقهره.

ويكفينا انّ القرآن، وصف العذاب الإلهي بالشدّة، حيث يقول تعالى : « ان عذابي لشديد »[2]. وكذلك يقول : « انّ عذابي هو العذاب الأليم »[3].

لقد حذّر (سبحانه) الناس من عذاب النار وأنذرهم وخوّفهم وأبان لهم مشاهد من عذاب النار وصوراً من أهوالها.

ولكنّ المشكلة انّ الإنسان لا يستطيع أن يدرك حقائق الآخرة كالجنّة والنار، والعذاب والنعيم، وانّما يستطيع أن يتصوّر ملامح ذلك العالم.

درجات الجنّة وأبوابها

انّ للجنة أيضاً (كما للنار) مراتب ودرجات وطبقات مختلفة. يقول تعالى : « وسيقَ الذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زُمراً حتّى إذا جاؤُها وفُتِحتْ أبوابها »[4].

---

(١) يلاحظ نصّ الحديث كاملاً في : البحار، ج٨ ، ص٢٨٠ ـ ٢٨١، والابعد في الحديث، معناه المتباعد عن الخير، أو الهالك أو الخائن. [المترجم]

(٢) إبراهيم : ٧.

(٣) الحجر : ٥.

(٤) جاء في الخبر عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله): « إذا كان يوم القيامة...؛ ونادى منادٍ من عند اللّه يسمع آخرهم كما يسمع أوّلهم، يقول : أين أهل الصبر؟ قال : فيقوم عنق من الناس، فتستقبلهم زمرة من الملائكة فيقولون لهم ما كان صبركم هذا الذي صبرتم؟ فيقولون

فللجنّة أبواب متعدّدة، يفتحها الإنسان بأعماله الصالحة في الدنيا. ولقد جاء في الحديث عن رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) انَّ للجنّة أبواباً بعضها يدخل منه الشهداء، وهي خاصّة بهم، وثمّة باب للصابرين؛ والصابرون هم الذين صبروا على بلاء الدنيا ومحنها وما فيها من فتن وفقر ومرض وعلل وأسقام، وتحمّلوا جميع ذلك في سبيل مرضاة اللّه (سبحانه).

ولعلّ أبرز مصاديق الصبر، الصبر على الطاعة، والصبر عن المعصية. فهؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى : «انّما يُوفّىٰ الصابرونَ أجرَهُم بغير حساب»(١).

انَّ الصابرين يلقون في الآخرة أجراً وفيراً حتى ليتمنّون أن تكون أجسادهم قد قُرّضت في الدنيا بالمقاريض وصبروا على ذلك، لكي ينالوا جزاءً أوفر ممّا نالوه.

مصاديق الصبر

للصبر مصاديق كثيرة، منها ان يصبر الإنسان عندما تقع عيناه على امرأة، فيغضّ الطرف قربة إلى اللّه سبحانه. ومن مصاديق الصبر أن يصبر عن الشهوات، وان لا يستمع إلى استغابة الآخرين، أي لا يحضر مجالس الغيبة، ولا يسعى للجاه والرئاسة، وإذا فتحت عليه أبواب الرزق فينبغي أن لا يتكسّب إلاّ من الحلال. ومن مصاديق الصبر أيضاً، السيطرة على النفس الأمّارة.

انَّ الذي يتمكّن ـ في حالةٍ أو موقف معيّن ـ أن يسيطر على نفسه، وينعطف بمسيرة حياته نتيجة تلك الهيمنة على النفس، فسيطوي الطريق نحو اللّه سريعاً، إذ ربّما كان صبره هذا معادلاً لمائة سنة يمضيها إنسان آخر في طريق المعرفة والسلوك والعبودية للّه.

صبرنا أنفسنا على طاعة اللّه، وصبّرناها عن معصيته. قال: فينادي منادٍ من عند اللّه: صدق عبادي، خلوا سبيلهم ليدخلوا الجنّة بغير حساب». أمالي الطوسي، ص٣. [المترجم]

(١) الزمر : ١٠.

أبواب أخرى

ثمّة باب آخر يدخل منه العباد الصالحون، وهم الراغبون إلى اللّه المستأنسون به، فهؤلاء كانوا يصلّون ويتهجدون والناس نيام[1].

وثمّة باب للذين يخدمون الناس، ويسعون في قضاء حوائجهم في الدنيا، وهي باب عظيمة ورفيعة.

باب الشيعة

ثمّة باب تختصّ بشيعة أهل البيت (عليهم السلام)، وهي باب كثيرة الأزدحام، ومنها يدخل الشيعة الذين نالوا شفاعة رسول اللّه(صلّى اللّه عليه وآله).

ثم انّ الذي يسير على نهج الحسين ابن رسول اللّه في هذه الدنيا ويتشبّه بأخلاقه ويقتدي به، ينال شفاعته في الآخرة. والذين ينالون شفاعة الحسين (صلوات اللّه عليه) كثيرون، لذلك يزدحم هؤلاء عند الباب الخاصّة به (عليه السلام) حتى لتكون هذه الباب أكثر ازدحاماً من الأبواب الأخرى، فإذا دخل منها الداخل، وطئت قدماه الجنّة[2].

تذكير

علينا إذن أن نتوسّل بأهل بيت رسول اللّه (صلوات اللّه عليهم أجمعين)

---

(١) أشار رسول اللّه في حديث أبواب الجنّة إلى هذه الباب بقوله (صلّى اللّه عليه وآله) : «فأمّا الباب الأعظم : فيدخل منه العباد الصالحون، وهم أهل الزهد والورع، الراغبون إلى اللّه عزّوجلّ والمستأنسون به ». امالي الصدوق، ص٢١٣، من علم اليقين، ج٢، ص١٠١٦ [المترجم]

(٢) في حديث للإمام علي (عليه السلام) عن أبواب الجنّة قال : « إنّ للجنّة ثمانية أبواب...، إلى أن قال : وخمسة أبواب يدخل منها شيعتنا ومحبّونا. فلا أزال واقفاً على الصراط أدعو وأقول : ربِّ سلّم شيعتي ومُحبّيَ وأنصاري ومَن تولاّني في دار الدنيا ». علم اليقين، ج٢، ص١٠١٦. [المترجم]

وخاصّة سيِّد الشهداء الحسين (عليه السلام). وعلينا أن نحيي مأتمه ونساهم في مجالس عزائه، ونواظب على زيارته، ولاسيما زيارتي «عاشوراء» و«وارث»، وان نكنّ له الحبّ في القلب، وعلينا قبل كلّ ذلك وبعده أن نقتدي بهذا الإمام العظيم في حياتنا ونسترشد به في سلوكنا.

باب التوبة

وهو من أبواب الجنّة. فالذنوب مهما كانت كبيرة وعظيمة، فإنّ الإنسان إذا رجع عنها وندم، وتغيَّر داخله، والتزم شرائط التوبة وعَمِلَ بها، فإنَّ اللّه يغفر لهُ ذنوبه فيدخل الجنّة من باب التوبة.

يقول تعالى : «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه انَّ اللّه يغفر الذنوب جميعاً»[1].

يذهب المذنبون إلى جهنّم إلاّ التائبين الذين عادوا إلى اللّه، فأبدل (سبحانه) سيّئاتهم حسنات، ومحا الصحائف السوداء من أعمالهم وأبدلها بصحائف أخرى نقية. والتائبون هم السعداء الذين يجازَون في الآخرة بالبشرى والجنّة.

يقول تعالى : «إلاّ مَن تاب وآمن وعمِلَ صالحاً فأولئك يُبدّل اللّه سيئاتهم حسناتٍ»[2].

---

(١) الزمر : ٥٣.

(٢) الفرقان : ٧٠.

الفصل العشرين

مشاهد من الجنة والنار

تُعتبر الجنّة مظهر رحمة اللّه، والنار مظهر قهر اللّه وغضبه. لذلك تعدّ الجنّة نعمة عظيمة لا توصف، ولا تستطيع عقولنا أن تدرك كُنهها، لأنَّ رحمة اللّه مطلقة غير متناهية، وكذلك تكون مظاهر الرحمة مطلقة أيضاً ولامتناهية. وعذاب جهنّم هو مظهر للقهر الإلهي، لذلك فهو عظيم، ولا نقوى على إدراكه. فلجهنّم، كما سبق ان أشرنا في الفصل السابق، دركات وطبقات، وانَّ المجرمين يردون إلى الدرك أو الطبقة التي تتناسب مع ذنوبهم ومعاصيهم، أي انَّ شدّة عذاب أهل النار تكون تبعاً لأعمالهم وأقوالهم، وما كانوا عليه في الحياة الدنيا.

احتراق الأجسام والأفئدة

الذي يتّضح من صريح نص القرآن، انَّ نار جهنّم لا تحرق الجلود والأجسام وحسب، وانّما تُحطّم العظام، وتحرق الجسم والروح معاً، وتجعل نفس الإنسان في عذاب أليم.

يقول تعالى: «كُلّما نضجَتْ جُلودُهُم بدَّلناهُم جلوداً غيرها»(١).

امّا في سورة «الهمزة» فتتحدّث الآيات بوضوح عن سراية النار إلى عظام الإنسان، حيث يقول تعالى: «ويلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمزةٍ. الذي جَمعَ مالاً وعدَّدَه. يحسبُ أنَّ مالَه أخلده. كلاّ لَيُنبذَنَّ في الحطمة. وما أدراكَ ما الحُطمةُ. نارُ اللّه

---

(١) النساء: ٥٦.

الموقدة . التي تطّلعُ على الأفئدة»[1].

لقد جاء في معنى «الحطمة» انّه الشيء الذي يُهشّم العظام، لذلك فإنَّ تعبير «ليُنبذَنَّ في الحطمة» يدلّ على الرمي في النار بحيث تتكسَّر العظام وتتهشّم وتُسحق.

إحاطة النار بأهلها!

يرمى أهل النار بين دركاتها وأطباقها فتحيط بهم من كل ناحية، يقول تعالى : «انّها عليهم مؤصَدَة . في عَمَدٍ مُمَدّدة»[2].

فالنار مسلّطة عليهم، وهي مطبقة؛ أي تطبق أبوابها عليهم، فلاسبيل للخروج منها.

وقد ورد في الدعاء : «أم كيف يتقلقلُ بين أطباقها»[3].

السلاسل والأغلال

إنّ الإنسان الذي يستمرّ على المعاصي والذنوب في الدنيا وتترسّخ فيه الذنوب بحيث تتحول إلى مَلَكات، فانّه يُبعد نفسه بنفسهِ عن اللّه وعن حنانه، ويرضى التثاقل إلى الأرض والالتصاق بالدنيا. ومثل هذا الإنسان يهيّئ لنفسه من أعماله الدنيوية وجناياته فيها، سلاسله وأغلاله للآخرة. انّه يشدّ نفسه بشكل محكم بالسلاسل والأغلال. يقول تعالى : «خذوهُ فغلّوهُ ثمَّ الجحيمَ صَلّوهُ ثُمَّ في سلسلةٍ ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلُكُوهُ»[4].

انَّ غرور الإنسان وحسده وتكبّره وغير ذلك ممّا يعيشه في دنياه، تتحوّل في

---

(١) الهمزة : ١ ـ ٧.

(٢) الهمزة : ٨ ـ ٩.

(٣) مقطع من دعاء كميل، مفاتيح الجنان، ص٦٥. [المترجم]

(٤) الحاقة : ٣٠ ـ ٣٢.

الآخرة إلى سلاسل وأغلال.

يقول تعالى : «إنّا جَعلنا في أعناقِهِم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون»[1].

طعام أهل النار

يصرّح القرآن الكريم في سورة الحاقّة بأنّ «غسلين» هو طعام أهل النار، حيث يقول (تعالى) : «ولا طعامٌ إلاّ من غسلين»[2].

أمّا في سورة الواقعة فيقول (تعالى) : «لآكلونَ من شجرٍ من زقّوم فمالئون منها البطون فشاربون عليه من الحميم فشاربونَ شُرب الهيم . هذا نُزُلَهُم يومَ الدين»[3].

يشرب أهل النار من فرطِ عطشهم من «الحميم» تماماً مثل البعير العطشان الذي يأتي الماء وَلِهاً، ولكنّهم عندما يشربون منه، فستتقطّع أمعاؤهم وتذوب أنفسهم من حرّه ونتنه، ثم تُعاد الكرّة عليهم بالشرب مجدّداً، وهكذا يستمرّ عذابهم.

وعطش أهل النار ناشئ من عطش شهواتهم في الحياة الدنيا ونفوسهم للرئاسة والجاه والغرور والتعالي. وهو أيضاً نتيجة لأعمالهم وما قاموا به في الدنيا من تتبّع عيوب الناس، وثلم شخصياتهم والانتقاص منها.

إنّ الذي يصرّ في حياته على الذنوب، يُبتلى في النار بمرض الجوع، ولن يُعطى هناك إلاّ ما أرسله سلفاً بأعماله في حياته الدنيا، من زقوم وضريع وحميم.

وهؤلاء لا يروى عطشهم في النار ولا تسدّ نهمتهم، وانّما يزدادون عطشاً وجوعاً.

---

(١) يس : ٨ .

(٢) الحاقة : ٣٦، وغسلين : هو القيح والصديد الممزوج بالدم.

(٣) الواقعة : ٥٢ ـ ٥٦.

لقد كانت هذه إشارات طفيفة جداً لمشاهد من النار، وعلينا لتليين قلوبنا وتطويعها أن نتعمّق في دراسة الآيات القرآنية التي تصف النار، وتتحدّث عن مشاهد القيامة وأهوالها وحال أهل النار وما يؤول إليه مصيرهم.

انَّ القلوب لتقسو ويتراكم عليها الرين، فعلى الإنسان الذي يمرّ بمثل هذه الحالة أن يُسارع إلى قراءة إحدى السور التي تتحدَّث عن النار وأهوالها، وبالذات من سورة الواقعة إلى آخر القرآن، لأنَّ السور القصيرة في أواخر القرآن تزخر بالصور والمشاهد المكثّفة من أحوال القيامة[1].

وينبغي أن تكون القراءة بقلب محزون وبتفكير وتأمّلٍ عميقين، وان يعيش الإنسان ما يقرأه ويكرّره لكي يبعد أغلفة الحجب وما ران على قلبه ليعود قلبه ليّناً بعد القسوة وطاهراً نقيّاً بعد الاسوداد. ولنعلم جميعاً ان تذكّر الآخرة هو أفضل طريق لزجر النفوس وردعها وتنقية القلوب من صدئها.

مشاهد الجنّة

ليس بمقدورنا كما أكّدنا ذلك مراراً أن نُدرك حقيقة الجنّة، بل لا نستطيع أن نتصوّرها، ولكن نستطيع من خلال استعراض الآيات القرآنية ان نقف على بعض ملامحها، وان بدت هذه الملامح ضعيفة وناقصة.

يقول (تعالى) : «فلا تعلمُ نفسٌ ما أخفِيَ لهُم من قُرّة أعينٍ جزاءً بما كانوا يعملون»[2].

---

(١) يصف الإمام علي النار بأسلوبه البليغ المعروف فيقول (عليه السلام) من جملة خبر طويل في وصف النار : «قعرها بعيد، وحرّها شديد، وشرابها صديد، وعذابها حديد، ومقامعها حديد؛ لا يفتر عذابها، ولا يموت ساكنها، دار ليس فيها رحمة، ولاتُسمع لأهلها دعوة». أمالي الطوسي، ص١٨، والنص نقلناه عن : تسلية الفؤاد في ذكر الموت والمعاد، ص٢٤٢. [المترجم]

(٢) السجدة : ١٧.

ويقول (تعالى) : «وعَد اللّه المؤمنين والمؤمنات جناتٍ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبةً في جناتِ عدنٍ ورضوانٌ من اللّه أكبر» [١].

أنواع الجنان

ذكرت الآية الكريمة الآنفة ثلاثة صنوف من الجنان هي : الجنّة، وجنّة عدن، ورضوان اللّه.

ولكن علينا أن نعلم انَّ هذه الأنواع الثلاثة ليست جنّات مختلفة، وانّما هي مراتب لجنةٍ واحدة. والاختلاف في مراتب الجنّة، يكون تبعاً لاختلاف درجات أهل الجنّة، من حيث مستوى إيمانهم وأعمالهم الصالحة وعقائدهم وغير ذلك.

لذائذ الجنّة

لذائذ الجنّة على نوعين هما : لذائذ روحية، ولذائذ جسمية. وأحد خصوصيات نِعَم الجنّة ولذائذها انَّ الإنسان لا يملّها ولا يكلّ منها.

ومن جملة اللذائذ المادية التي يذكرها القرآن الكريم في آيات مختلفة، هي الفواكه بمختلف أنواعها، واللحوم والشراب والانهار، والحور.

اللذائذ المعنوية

تشير الآية الكريمة التالية إلى بعض اللذائذ المعنوية، حيث يقول (سبحانه) : «لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً إلاّ قيلاً سلاماً سلاماً» [٢].

وهذه الآية ونظائرها تُشير إلى صنفين من اللّذة هما :

أ : انَّ أهل الجنّة لا يسمعون لغو الكلام، وليس في علاقاتهم مع بعضهم سعي وراء الفتنة، فهم مكرمون قد نزعت منهم الأغلال، وطهروا فلا ذنوب ولا

---

(١) التوبة : ٧٢.

(٢) الواقعة : ٢٤ ـ ٢٥.

معاصي، وانّما السلام والتحية المتبادلة هما أساس علاقاتهم، وهم لا يسمعون غير ذلك.

ب : انّ الجنّة مكان لتحلّي الوحدة والانسجام والنقاء؛ ولتحلّي التوحيد والنور الإلهي أيضاً. فهي مقام لا فرقة فيه ولا اختلاف، ذلك انّ الفرقة والاختلاف من خصائص موطن الكثرة، ولا مكان لها في مقام تجلّي التوحيد.

فالنقص والفساد والاختلاف والتضادّ والموت وما سواها هي من خصائص موطن الكثرة وعالم الأضداد (أي الدنيا). امّا العالم الأخروي المطبوع بالروحانية والانسجام والنقاء، فليس ثمّة مكان للفساد والتضاد والاختلاف والموت والنقائص الأخرى. وذلك العالم، هو عالم البقاء والخلود، وهو مكان لتجلّي النور ووحدة الحقّ تعالى[1].

سلامٌ من ربٍّ رحيم

ثمّة مقطع من سورة يس يكشف عن جانب من جوانب اللّذة المعنوية التي يَنعَم بها أهل الجنّة، حيث يقول تعالى : «إنَّ أصحاب الجنّة اليوم في شُغلٍ فاكهونَ هم وأزواجهم في ظِلالٍ على الأرائِكَ مُتّكئونَ لهم فيها فاكهةٌ وَلَهُم ما يدَّعونَ سلامٌ قولاً من ربّ رحيم»[2].

والتلذّذ بثمار الجنّة والجلوس على الأرائك، حيث تجري من تحتهم الأنهار، هي من اللّذات الجسمية ذات الطابع المادّي. ولكن هناك ما هو أرفع من هذه اللّذة وأسمى؛ هناك لذّة الروح حين يصلها سلام الرّب (جل جلاله).

تحمل ملائكة اللّه من قِبَله (سبحانه) التحيّات والسلام إلى عباده من أهل الجنّة

---

(١) انّ اللّه سبحانه خلق الإنسان ومنحه الروح، وجعله يميل بالفطرة للرجوع إلى عالم الخلود والبقاء؛ عالم الجنّة والراحة المعنوية والحسّية. امّا الدنيا بما تحفل به من تنوّع وأضداد، فإنّ روح الإنسان تمكث فيها قليلاً وهي توّاقة للرحيل إلى عالمها؛ العالم الاخروي.

(٢) يس : ٥٥ ـ ٥٨.

والرضوان. وهذه اللّذة تعدّ ألذّ لذّات الجنّة، حيث لا تناظرها اللّذات الحسّية كالتمتّع بالحور العين وتناول فواكه الجنّة وثمارها، ومشاهدة آيات الجمال التي وعد بها الرحمن.

مشاهدة أنوار الجمال

من اللّذات التي تأنس بها النفس الإنسانية والتي تنطوي على قيمة رفيعة بالنسبة لأهل الجنّة، هي مُشاهدتهم لاشراقات الجلال وتجلّيات أنوار الجمال الإلهي.

لقد كان أئمّة الهدى (عليهم السلام) يمهّدون في حياتهم الدنيا إلى ذلك المقام الاخروي، كما يتّضح من مُناجاتهم (صلوات اللّه عليهم أجمعين) حيث نسمعهم يقولون : «إلهي : ولا تحرمني النظر إلى وجهك».

وقولهم : «إلهي؛ وألحقني بنور عزّك الأبهج فأكون عارفاً».

وقولهم: «إلهي؛ وأنر أبصار قلوبنا بضياء نظرها إليك حتّى تخرق أبصار القلوب حجب النور فتصل إلى معدن العظمة وتصير أرواحنا معلّقة بعزّ قُدسك»[1].

مظهر آخر

من المظاهر الأخرى للّذائذ المعنوية التي يتنعّم بها أهل الجنّة، ما تحدّثنا به الروايات من انّ اللّه (سبحانه) يبعث إلى أهل الجنّة كُتباً، فيها : «من الحيّ الذي لا يموت إلى الحيّ الذي لا يموت».

وهذا المظهر في توجّه اللّه لعباده الصالحين، انّما يكشف عمّا يناله هؤلاء من الرفعة والمقام بحيث يكونون أهلاً لمكاتبات ربّ العالمين ومخاطباته، التي تأتيهم

---

(١) مقاطع من المناجاة التي كان يُناجي بها الإمام علي (عليه السلام) في شهر شعبان، والتي اشتهرت بعد ذلك بالمناجاة الشعبانية. وقد دأب الأئمّة من ولده على المناجاة بها من بعده. وينبغي أن لا يفوت المسلم المناجاة بها ولو مرّة واحدة في حياته. يلاحظ : المفاتيح، ١٥٦.

ولاشك على قدر درجاتهم ومقاماتهم في الآخرة.

ولا يقوى الإنسان على تصوّر لذّة أعمق من هذه اللّذة المعنوية التي يرفل بها أهل السلام والرضوان؛ أهل الجنّة!

شأن أهل الجنّة

نستفيد من قوله تعالى: «إنَّ أصحاب الجنّة اليوم في شُغُلٍ...» انَّ لكلّ إنسانٍ في القيامة شأناً يعنيه، ومقاماً يصل إليه ويتوغّل فيه. وهذا الشأن والمقام يرتبطان بما عمله في الدنيا، وما قدَّم لنفسه من أعمال صالحة، وما قطعه من شوط على طريق مجاهدة نفسه والارتقاء في سلّم الرفعة المعنوية.

فالذي عَمِلَ وَبَذلَ في الدنيا، وصرف همّته في طريق المعرفة والسلوك، فسيكون له في الآخرة مقام وشأن عظيم يناسب ما قام به في حياته الدنيا.

ولأنَّ السعي والجهد يتفاوتان في الحياة الدنيا من واحدٍ إلى آخر، لذلك فإنَّ شأن أهل الجنّة ومقاماتهم تتفاوت هي الأخرى تبعاً لاختلاف درجاتهم ومنازلهم، وبما يُناسب أعمالهم الصالحة.

ومن هنا، يمكننا أن نذكر المستويات التالية التي نستفيدها من آيات الكتاب المبين.

أوّلاً: شأن عامّة أهل الجنّة

ثمّة من عباد اللّه من يكون شأنهم في الجنّة الانغمار بأنعُمها المادّية ولذائذها الحسّية مثل الأنهار والأشجار والقصور والحور العين وغير ذلك. وربّما وصل هؤلاء سلام من ربّ العالمين وتحيّات منه. وهذا بشكلٍ عام شأن عامّة أهل الجنّة، وهو شأن عظيم، يحتاج الإنسان إلى ذوق ومعرفة خاصّين لتصوّر لذّاته، مع انّه أدنى رتب الجنّة وأقلّ درجاتها!

ثانياً: الانغمار في عالم الوحدة

هناك فئة أخرى من أهل الجنّة تحتل رتبة أرفع من التي سبقتها، حيث يكون من

شأن أهل هذه الطائفة الانغمار في عالم الوحدة، ويكون شغلهم التهليل والتسبيح وتمجيد الذات الربوبيّة.

يقول تعالى : «وقالوا الحمدُ لِلّهِ الذي أذهَبَ عنّا الحَزَنَ إنَّ ربَّنا لغفور شكور»[1].

وتصف الروايات حال هؤلاء بأنّهم من شدّة انغمارهم بعالم الوحدة لا يلتفتون إلى الحور العين والقصور وأشكال النِعَم الماديّة الأخرى.

ثالثاً : مُرافقة النبيّين والصالحين

هناك طائفة أخرى من أهل الجنّة تأنس بمرافقة رسول اللّه (صلّى اللّه عليه وآله) وأئمّة أهل البيت (عليه السلام) وتكون لذّة هؤلاء بمجالسة النبي وأهل بيته. وربّما كان هؤلاء أهل جنّات عدن.

يقول تعالى : «وَمَن يُطِع اللّه والرسول فأولئِكَ معَ الذينَ أنعمَ اللّهُ عليهم من النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحينَ وَحَسُنَ أولئِكَ رفيقاً»[2].

ولا ريب انَّ مرافقة النبي وأهل بيته والاستئناس بهذه الرفقة تعدّ نعمةً عظيمة ولذّة رفيعة.

رابعاً : رضوان اللّه

ثمّة صنف آخر من أهل الجنّة يكون لهم مقام أرفع، انّهم في جوار اللّه ورضوانه، وهم في قربه.

انَّ نظَرَ اللّه إلى هؤلاء يستوجب حصولهم على «السعة الوجودية»، وعنايته ولطفه بهم يبعث فيهم الفرح والسرور.

يقول تعالى : «وُجُوهٌ يومئذٍ ناضرةٌ إلى ربِّها ناظِرةٌ»[3].

---

(١) فاطر : ٣٤.

(٢) النساء : ٦٩.

(٣) القيامة : ٢٢ ـ ٢٣.

فجملة «إلى ربّها» هي جار ومجرور، ويدلّ تقدّمها على الحصر. والمعنى، انَّ ثمّة مجموعة من أهل الجنّة ليس لها شأن سوى النظر إلى جلال الحقّ ومشاهدة جماله والانغمار بأنواره جلّ وعلا.

وهؤلاء ينظرون إلى وجه اللّه فقط، ومنتهى لذّتهم في الجنّة هي مشاهدة وجهه الكريم.

وعندما نقرأ في الروايات انَّ الشهيد ينظر إلى وجه اللّه، فالمراد من ذلك انَّ الشهداء هم مصداق قوله تعالى : «يا أيّتُها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربِّك راضيةً مرضيةً فادخلي في عبادي وادخُلي جنّتي»[1].

وقد روي عن رسول اللّه في حديث المعراج أنّهُ (صلّى اللّه عليه وآله) سألَ ربّه عن المخاطبين بـ «المسجونين» مَن هُم؟ فجاء البيان كما في حديث المعراج انَّ «المسجونين» هُم : «الذين سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام، وبطونهم من فضول الطعام».

انَّ هؤلاء لم يتوغّلوا في حياتهم الدنيا بالمشتهيات المحلّلة، وكانوا يُمسكون ألسنتهم عن الكلام الذي لا ينتج لهم ثمرة أخروية، بل ولا ثمرة دنيوية. وكان هؤلاء لا يرتادون المجالس العابثة التي تهدر الوقت، ولم يكونوا ينامون كثيراً، ولا يستريحون دون علّة، بل كانت أعمارهم معمورة بعبادة اللّه وطاعاته، وكانت أوقاتهم مصروفة لطلب العلم والعمل بأحكام الشريعة السمحة.

لم يرتكب هؤلاء حتى المكروهات، بل احترزوا منها وتجنّبوها، وأقاموا حياتهم على أساس من التوازن والضرورة، فسلكوا الطريق الوسط الذي ينأى عن الافراط ويتجنّب التفريط.

تذكير

علينا جميعاً أن نُكثر من تلاوة السور الأخيرة في القرآن ، لما تشتمل عليه من

---

(١) الفجر : ٢٦ ـ ٣٠.

تركيز على مشاهد القيامة، ووصف الجنّة والنار[1]. انّ هذه السور تبعث في الإنسان الخوف والرجاء، وتوجد فيه الباعث للسير والسلوك نحو اللّه.

علينا أن نحتفظ بداخلنا بحالتي الخوف والرجاء، فنشك في أنفسنا ونلومها ونزجرها ونخوّفها لما ترتكب من المعاصي والذنوب، ولكن علينا إلى جانب الخوف أن نعيش الرجاء برحمة اللّه ونحسن الظن به سبحانه.

انّ على الإنسان أن يعي جيّداً، أنّ رحمة اللّه أوسع وأكبر من ذنوب العبد، مهما بلغت هذه الذنوب، ذلك ان رحمته وسعت كلّ شيء، وانّه (سبحانه) يغفر الذنوب جميعاً.

بين أهل الجنة وأهل النار

تفيد آيات القرآن الكريم انّ أهل الجنّة وأهل النار يرى بعضهم البعض، ويدور حوار بينهم وكلام.

ومن جهةٍ ثانية يتحدّث القرآن الكريم عن محادثة أهل الجنّة وأهل النار للّه (سبحانه)، ففيما يلتذّ أهل الجنّة بحديثهم معه (سبحانه)، نجده ينهر أهل النار ويسخط عليهم، ويأتيهم الخطاب الإلهي: «اخسئُوا فيها ولا تكلّمونِ» وذلك جواباً على ما كان قد طَلَبَهُ أهل النار من اللّه سبحانه لإخراجهم من النار، حيث يحكي القرآن ذلك على لسانهم بقوله تعالى: «قالوا ربّنا غَلَبت علينا شقوتنا وكنّا قوماً ضالّين . ربّنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنّا ظالمون»[2].

---

(١) من المفيد أيضاً في تكريس حالة الخوف والرجاء، أن نتعايش مع المشاهد الثمينة التي تطويها الأحاديث الشريفة عن الجنّة والنار، وأهوال القيامة ومنازلها بشكل عام. ويمكن إجمالاً أن نُراجع مايلي:

بحار الأنوار، الأجزاء: ٦ ـ ٨، وعلى الأخصّ الجزء الثامن الذي يتحدّث عن الجنّة والنار.

علم اليقين، ج٢، ص١٠١٥ ـ ١٠٦٩، ويتحدّث عن أهل الجنّة وأهل النار.

تسلية الفؤاد في بيان الموت والمعاد، السيّد عبداللّه شبّر. [المترجم]

(٢) المؤمنون: ١٠٦ ـ ١٠٨.

ومن مشاهد حوار القيامة التي يتحدّث عنها القرآن ، هو مخاطبة الملائكة لأهل الجنّة وأهل النار ، حيث نلاحظ التكريم واضح في اسلوب خطابهم لأهل الجنة، فيما يتحدّثون مع أهل النار بعنف وإهمال. وهو أمرٌ يبعث الألم والأذى المضاعف في نفوس أهل النار، لأنّهم يتحوّلون في ذلك الموقف إلى هُزاؤٍ للّه وملائكته وأهل الجنّة ممّا يضاعف حسرتهم ويزيد تألّمهم.

يقول (تعالى) في سورة الأعراف : «ونادى أصحاب الجنّةِ أصحابَ النارِ أن قد وجَدْنا ما وَعَدنا ربّنا حقّاً فهَل وجدتُم ما وَعَدَ ربّكُمْ حقّاً قالوا نَعَمْ فأذّنَ مؤذّنٌ بينَهُم أن لعنة اللّه على الظالمين»[1].

وكذلك قوله (تعالى) : «ونادى أصحاب النار أصحاب الجنّة أن أفيضوا علينا من الماء أو ممّا رَزَقَكُم اللّهُ قالوا إنَّ اللّه حرَّمَهُما على الكافرين»[2].

ومن المؤكّد أنَّ لهذا الجواب وقعه المؤلم في نفوس أهل النار.

من صور الحوار الأخرى، ما يتحدَّث عنه القرآن الكريم في قوله (تعالى) : «في جنّاتٍ يتساءلونَ عَن المجرمينَ ما سَلَكَكُمْ في سَقَر قالوا لم نكُ من المصلّين وَلم نَكُ نطعِم المسكينَ وَكُنّا نَخوضُ معَ الخائِضين».

ثم يقول القرآن في حال هؤلاء : «فما تَنْفَعُهُم شفاعةُ الشافعين»[3].

آخر الكلام

نحمد اللّه سبحانه على ما وفّقنا من إتمام هذا البحث، رغم أنّه كان بحثاً عامّاً لا يتضمّن سوى إشارات لهذا الموضوع، ولكن كُلّنا أمل أن ينفع اللّه به إخواننا، وأن يكون أداءً لقليلٍ من حقّهم الكريم الذي علينا.

وصلّى اللّه على نبيّنا محمّد وعلى آله الطيّبين الطاهرين، وآخر دعوانا أن الحمدُ للّهِ ربِّ العالمين.

---

(١) الأعراف : ٤٤.

(٢) الاعراف : ٥٠.

(٣) المدّثر : ٤٠-٤٨.

المحتويات

مقدمة المترجم

الفصل الأول

المدخل إلى مسألة المعاد

الفصل الثاني

أسباب إنكار المعاد

الفصل الثالث

الموت انتقال من دار إلى دار

الفصل الرابع

إثبات عقيدة المعاد

الفصل الخامس

المعاد الجسماني

الفصل السادس

شبهة الآكل والمأكول

الفصل السابع

حشر الإنسان بهويّته الدنيويّة

الفصل الثامن

معنى تجسّم الأعمال

الفصل التاسع

علاقة الجزاء بالعمل

الفصل العاشر

منازل الآخرة

الفصل الحادي عشر

معالجة بعض الشبهات

الفصل الثاني عشر

عالم البرزخ

الفصل الثالث عشر

نَفخُ الصور

الفصل الرابع عشر

الكوثر

الفصل الخامس عشر

الحساب والكتاب

الفصل السادس عشر

الميـزان

الفصل السابع عشر

شهادة الشهود ومصير الإنسان

الفصل الثامن عشر

الشـفـاعـة

الفصل التاسع عشر

نهاية الشوط في مسيرة الإنسان

الفصل العشرون

مشاهد من الجنّة والنار

صدر للمترجم

ترجمةً:

١ ـ التفسير الامثل في عشرين مجلداً بالاشتراك مع آخرين.

٢ ـ تربية الطفل في الرؤية الإسلامية.

٣ ـ مقالات تأسيسية في الفكر الإسلامي.

٤ ـ الشيعة.. نص الحوار بين العلامة الطباطبائي والمستشرق هنري كوربان.

٥ ـ رسالة التشيع في العالم المعاصر.

٦ ـ الشيخ المفيد وهوية التشيع.

٧ ـ الامامة.

٨ ـ المعاد.

٩ ـ ذكرياتي مع الشهيد مطهري.

١٠ ـ المسار الثقافي بين الشيعة والمعتزلة.

١١ ـ أجوبة الشبهات.

١٢ ـ إيثار ووفاء.. قصة.

١٣ ـ صلاة أخرى.. قصة.

تأليفاً:

١ ـ الشهيد مطهري.. مدارات في فكر الإحياء والنهضة.

٢ ـ أزمة الكويت.. ضوء على موقف الجمهورية الاسلامية، بالاشتراك مع آخرين.